

من
تراب الطريق
(2)

رجائي عطية

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ - ٢٠١٠ م

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

عطية ، رجائي .

من تراب الطريق | 2 / رجائي عطية . - القاهرة

: المكتب المصرى الحديث، ٢٠١٠. ٤٠٠ ص؛ ٢٠ سم .

تدمك ٩٧٧ ٢٠٩ ١٩٧ ٦

١- المقالات العربية

أ - العنوان

٨١٤

رقم الايداع ٧٦٠٥ / ٢٠١٠

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

• تصميم الغلاف : نادية شريف — كمال بهنساوي

المكتبة المصرية الحديثة

www.almaktabalmasry.com

ت: ٢٣٩٣٤١٢٧

ت: ٤٨٤٦٦٠٢

القاهرة : ٢ شارع شريف عمارة اللواء

الإسكندرية : ٧ شارع نوبار المنشية

تقديم

هذه خواطر من القلب ، مجدولة بحب الوطن ، معنية
بهموم الناس في بلادنا .
رجائي عطيه

من

تراب (١٥٩) الموت شرفاً (*)

الطريق!

تجوع الشريفة ولا تأكل بثدييها، عبارة تجرى فيما بيننا مجرى الأمثال احتراماً لكل شريفة لا تسترخص شرفها، ولا تفرط في عرضها مهما كانت حاجتها واحتياجها وفقرها وجوعها .. راودتني هذه المعاني وأنا أقرأ قصة شابة مدرسة في كلية طب الأسنان ماتت قتيلة دفاعاً عن شرفها ألا يمس وعن عرضها ألا يخوض فيه خائض، ركب جنون شهوة عمياء أراد بها أن يغتال بالقوة والعنف ما ليس له، وأن يذنس عرضاً ملك صاحبه ليس له عليه حق ولا سلطان !

صرفني ما عانته القتيلة الشريفة في صراعها ذوداً عن شرفها، عن جنوح هذا الجانح الشرير الذي ذهب عقله ومات ضميره .. أتصورها لحظة بلحظة وهي محوطة بشبح الموت، تتلقى الضربات والطعنات، تمزق جسدها وتعبث بأحشائها وتفجر دماءها وتوجع قلبها وكل ذرة في كيائها، لا عليها لتتقى هذه الطعنات الموجعة الدامية إلا أن تستسلم ولها عذر في هذه القوة الغاشمة الباطشة الشريرة التي لا تملك قدرة ولا أدوات ولا وسائل مقاومتها .. فهي إن استسلمت مغلوبة على أمرها، لا اختيار ولا إرادة لها .. اختيارها معدوم، وإرادتها موعودة، ولا حيلة لها .. ومع ذلك أبت إلا أن تلوذ بقوة تكوينها النفسى الإرادى، وبمتانة معتقدها أن الشرف لا تفريط فيه، وأن العرض دونه الموت. فالموت أهون من عرض مبذول أو منتهك!

هذه فتاة جديرة بأن نقيم لها تمثالا .. رأت الموت مطلا قادمًا آتيا مزهقًا لروحها لا محالة ! واجهته واعية بمقدمه المؤكد غير مترددة ولا هيابة. ناظرت الجنون الذي ركب الذنب ولم يعد أمامه أى فرصة للتراجع! هو إذن لن يتراجع، وسلاحه نافذ بطعناته، متوحش فى ضرباته، يمزق أحشاءها ويودى بها إلى الموت المحقق . ومع ذلك لم تتراجع، ولم تهن أو تضعف أو تدعه يلغ فى عرضها أو ينال بغيته المجنونة منها !

لهفى على هذه الفتاة فى اللحظات التى استقبلت فيها شبح الموت القادم، وآلام الطعنات الممزقة، وضربات الوحش المجنون، بينما لا منجد ولا مغيث ولا مهرب ولا مفر إلا أن تستسلم وتسلم نفسها، ولكنها لم تفعل، وقدمت مثالا رائعا لإرادة تتحنى أمامها الجبال الشوامخ احترامًا وإعجابًا وتقديرًا.

ماذا أقول لكم من بعد ؟! هل راجعنا العشوائيات التى أصابت حياتنا فى كل شىء. لم تقتصر على عشوائيات المباني وتبوير الأرضى، وإنما ضربت حياتنا فى كل شىء. هل تأمل أحد فى حراس العقارات وعشوائية تشغيلهم والتعامل معهم ؟! هل تأمل أحد فى عشوائية الأمان الذى نعطيه لمن لا يستحقونه ؟! هذه بالذات عشوائية مشتركة فى الخاص والعام، ضربت حياتنا الخاصة فىمن نعطيهم ثقة بلا ضوابط ولا معايير، وضربت حياتنا فى الشأن العام الذى بات بدوره ضحية عشوائية اختيارات تفتقد الرشد مثلما تفتقد مقومات الثقة والأمان !!!

من

تراب (١٦٠) ماذا حدث للمصريين ؟ ! (*)

الطريق!

ماذا حدث للمصريين ؟ ! .. شيء مفزع انفجار حوادث التحرش الجنسي وهتك العرض والاغتصاب ! لم يعد يمضى أسبوع إلا وتفجعنا حادثة من هذه الحوادث التى طفقت للأسف تشكل ظاهرة جديدة على بر مصر !

لم تكن حادثة مدرسة طب الأسنان التى دفعت حياتها ثمناً لحفظ شرفها، إلا واحدة من حوادث أخذت أشكالا متعددة .. من المريع أن يتحول المعلم إلى وحش يغول فى تلاميذه وينتهك براءتهم وأعراضهم ! فجعتنى تفاصيل وقائع مخزية لمدرس بالفيوم جارى تحقيقها بنيابة إطسا .. فارق المدرس واجب المعلم وشرفه ومقتضيات أمانته على تلاميذه الموكول إليه تربيته وتعليمهم، فجعل يأخذهم تباعا، واحدا وراء الآخر، إلى مخزن المدرسة وغيره، ليغول فيهم وينتهك أعراضهم بصور مزرية للجنوح والتشرد والسفالة والانحطاط ! . ما إن شكوا واحد من التلاميذ مما جرى معه، حتى تجرأ الآخرون لينكشف الغطاء عن حالات أخرى جرت وتجرى وقيادة المدرسة - دار التربية والتعليم - فى غيبة تامة عما يفعله أحد أعضاء هيئة التدريس بتلاميذها !

تحت عنوان : " وزارة التربية والتأديب " - التعليم سابقا - قرأت بالأهرام (١١/٧) كيف صارت مدارسنا ساحات للضرب والقتل والمشagبات .. وها هى حوادث التحرش الجنسي وهتك الأعراض بل

(*) المال ٢٠٠٨/١١/١١

والاغتصاب. ويفجعنى بذات الأسبوع خبر طفلة فى الثامنة من عمرها، بإحدى المدارس الأجنبية الفخمة، ائتمن ذووها مدرستها على الذهاب بها رفق زميلاتها برحلة إلى العين السخنة، لتقيق المدرسات والمدرسون على غياب الطفلة، وليسفر البحث عن اكتشاف عمال أربعة بالمنطقة اختطفوا الطفلة البريئة المسكينة وطفقوا يتناوبون الاعتداء الجنسى عليها فى غفلة من المدرسين والمدرسات الذين غفلت عيونهم وضمايرهم عن الطفلة المؤتمنين عليها !!

ترى ماذا بقى للمؤسسة التعليمية فى برّ مصر ؟!.. تورد المصور (١١/٧) تحقيقات عن " عنف المدارس القاتل " .. فيروعنّا أن حصاد أسبوع واحد من العنف فى المدارس، قد بلغ قتيلا - أجل قتيلا !- و(١٥) جريحا !

فإذا تركت التربية و" التنكيل " - التعليم سابقا، وما كان قد جرى بأكير شوارع المهندسين، وحادثه مدينة نصر التى استبان فيها أن قاتل الطفل - شاذ فشل فى الاعتداء جنسيا عليه .. ويمت شطر المحلة الكبرى، وجدت عاملات بأحد مصانعنا يشكون من تحرشات جنسية وتهديدات بالاغتصاب. لم يسبق أن شاهدنا هذا التلاحق للتحرشات الجنسية والاغتصاب وهتك الأعراض فى بلادنا !

لا يمكن أن تمر هذه الظواهر مرور الكرام .. هناك مستجدات أدت بالتأكيد إلى هذه الانفلاتات الجامحة الغربية على موروثنا الدينى والأخلاقى. هذه المستجدات تستوجب من المفكرين وعلماء الاجتماع وأساتذة الطب النفسى أن يبحثوا ويتدارسوا لمعرفة الجذور والأسباب لتدارك الأمور قبل أن تستفحل ونحن مشغولون عنها بتوافه الأمور !

من

تراب (١٦١) هل تركنا اللغو والتفاهات؟! (*)

الطريق!

يكفى أن تكون مصرياً لتستهجن التصريح الشاطح الذى صدر عن عضو عنصرى متعصب، وكليم عنصريون، من أعضاء الكنيسة الإسرائيلية، ولكنك لا بد أن تكون فارغاً لتتصرف عن الدنيا وما فيها، وعن إسرائيل وبلاويها وجرائرها الكبرى، لتتوقف وتطيل التوقف والتعقيب واللت والعجن حول هذا التصريح وصاحبه الذى لا يخرج عن كونه لغواً لا يتوقف عنده عقل، فلم يشذ صاحبه العنصرى عن أى إسرائيلي .. فكلهم عنصريون وإلا ما أقاموا كيانهم على أساس عرقى عنصرى لا مواراة فى عنصريته !

لم يمانل استهجانى التصريح الجامح الشاطح المجاوز للأدب لعضو الكنيسة الإسرائيلية. إلا استهجانى أيضاً لطول التوقف والتعقيب واللت والعجن وتببيج المقالات والتعقيبات على التصريح وعلى صاحبه الذى طفقت مدبجات اللت والعجن تورد سيرة وأصل هذا الرجل التافه وفصله، وميلاده ومكانه، ونشأته ومساره، وتاريخه وحاضره، لتجعل منها موضوع الساعة، وتقدمه للدنيا فى ترويج ضرير دون أن تدرك !

هل لصقت العبارة الجامحة بالرئيس حتى تتوقف الدنيا عند هذا اللغو الصادر عن عنصرى تافه يتساوى تفاهة مع كل من يتخذ العنصرية عقيدة ومنهاجاً يتعصب به وله؟! وهل يمكن أن تنحصر الدنيا فى هذه العبارة

(*) المال ١٢/١١/٢٠٠٨

اللاغية فتصرفنا عن أمهات المسائل بل عن كبائر إسرائيل التي لا تتوقف لحظة !

التوقف عند اللغو فراغ وخيبة قوية، وهو فراغ وخيبة لأنه يعطى قيمة دون أن يدري لما لا قيمة له، ولأنه ينصرف بها عن القضايا والكبائر الحقيقية الجارى ممارستها من إسرائيل لاغتيال فلسطين وإخفاء العرب ! العاقل اللبيب الذى لديه ما يشغله، لا يتوقف عند اللغو والتفاهات، فالتوقف عندها يعطيها قيمة ليست لها، والانشغال بها مضيعة للوقت والجهد وانجراف فارغ ! يجارى اللغو دون أن يدري، وينصرف داريا أو غير دار عما يجب ويجدر الاهتمام به وهو فى أحوالنا كثير وهام لا يحتمل هذا الخواء الفارغ الذى أدهشنى بين التوقف الطويل والحشد العريض وكثرة اللت والعجن عند عبارة تافهة .. يذكرنى العويل حولها بالمثل السائر : " الجنازة حارة والميت كلب ! " . والميت الذى أعنيه هنا هو العبارة اللاغية التى لا غيرت الدنيا ولا مست أو التصقت بشخص السيد الرئيس !

أيها السادة ! هل يمكن أن ترتد إلينا عقولنا لنترك الخواء الفارغ واصطناع الولاء والإخلاص والغيرة والغضب، ونلتزم الوقار والجد الواجب أن ننصرف بهما إلى قضايانا الكبرى . يكفى أى عاقل وقور أن يطل على ما تنشره الصحف وتبثه وكالات الأنباء والفضائيات والأرضيات، ليعلم أن هنا وهناك ما ينادينا بترك التفاهات إلى أمهات أمور هى التى يجب أن نتوقف عندها ونطيل النظر والتأمل والحديث والفعل !

من

تراب (١٦٢)

الشاعر الأديب : (*)

محمد عبدالله محمد

الطريق!

الأستاذ العلامة الجليل محمد عبدالله محمد لم يكن محامياً فقط من فلتات
المحاماة في القرن الماضي بطوله، ولا كان فقط عالماً موسوعياً ضارباً
بتعمق عريض في كل باب من أبواب المعرفة، ولا كان فقط فقيهاً متميزاً
في القانون ترك فيما ترك كتاباً في جرائم النشر لا يزال عمدة المراجع في
بابه رغم مضى أكثر من نصف قرن على تأليفه، وإنما كان أديباً وشاعراً،
ترك درة فكرية في "معالم التقريب"، ونظم على مدى سبعين عاماً شعراً
عمودياً متميزاً صبر على عدم نشره حتى وقع في يدى فأجبرته جبراً على
نشره في ديوانين : "العارف" و "الطريق" .

في ديوانه "العارف" من قصيدة : "المسرح الحر" اخترت لك هذه
الآبيات :

فيها من الماء أو فيها من النار
وقد تثور لدى إيماءة الجار
وما فؤادك فني أي بمختار
هيهات يثبت ما تبنى لإعصار

كل العواطف أشباه مسالكها
فقد تسل إذا ما طفلة ضجكت
هذي وتلك يقاب أو مناسبة
قناديس النهر تبنى السد جاهدة

لا فرق فيهن بين الفأر والأسد
وربما هب من هم ومن حسد
في جيدها - حبلاً من المسد

دم يدور عجيبات دوائر
قد دق منهن قلب نام صاحبه
وربما حملت نفس مشاكليها

(*) المال ٢٠٠٨/١١/١٣

هَذَا الْبَرِيدُ عَجِيبَاتُ رَسَائِلُهُ يَمْشِينَ بِالسِّرِّ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ

•••

تَيْنَةُ الشَّوْكِ لَمْ تَبْسَمْ لِرَاغِبِهَا الرَّاضِي بِالْبَذْرِ وَهِيَ الْبَذْرُ وَالْحَصَا
تِلْكَ الْعَوَاطِفُ لَا رَى وَلَا شَبْعُ رَضِعُ الْحَصَى ! صَوْمٌ وَلَا نُسُكُ
وَكَيْفَ تَفْتَحُ أَرْوَاحَ نَوَافِذِهَا حَيْثُ التَّرَابُ مَعَ الْحَصْبَاءِ يَعْتَرِكُ
حَيْثُ السَّمَوَاتُ قَدْ ضَنْتَ بِرَحْمَتِهَا وَصَارَتِ الْأَرْضُ أَرْضًا كُلُّهَا شَرَكُ

•••

رَاقِبْتُ نَفْسِي - وَالْدُنْيَا مَشَاهِدَةٌ عَبَّرَ الدُّخَانَ الَّذِي نَدَعُوهُ أَفْكَارًا
وَقَدْ تَفَرَّقَ عَمْرِي خَارِجِي نَتَقًا تَرَوِي - اللَّيَالِي وَالْأَيَّامَ - أَخْبَارًا
لِمَنْ؟ الْأَمْثَالِي وَعِنْدَهُمْ مِنْ مِثْلِ هَذَا وَقَدْ مَلَّوهُ تَكْرَارًا
فِي دَاخِلِ الْبَحْرِ يَرْجُو فِئْمَهُ سَمَكُ الْبَحْرُ فِي الْفَيْهَمِ - إِنْكَارًا وَإِقْرَارًا

•••

مَهْمَا تَفَكَّرْتَ لَمْ تَذُرْكَ سِوَى صِلَةٍ مَا بَيْنَ فِعْلٍ وَفِعْلٍ خَلَقَهَا فِعْلُ
لَقَدْ جَلَوْتَ كَثِيرًا هَلْ تَرَى أَحَدًا إِنْ الْخِفَاءَ كَثِيفٌ حَوْلَ مَا تَجَلَّوْا
إِنَّا بَنَيْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ عَالَمَنَا وَالْكَوْنُ لَا يَكْتُبُ الْأَسْمَاءَ أَوْ يَتَلَوُ
وَلُجَّةُ الْبَحْرِ أَعْجَامٌ حَوَادِثُهَا أَنْتَ الَّذِي يَصِفُ الْأَحْدَاثَ وَالْعَقْلُ

من

تراب (١٦٣)

بطولات مغلوبة (٢)

الطريق!

شدنى عمود زميل مجمع البحوث الإسلامية، العلامة الجليل الدكتور محمد رجب البيومى، بصوت الأزهر (١٤/١١) - إلى قضية بالغة الأهمية، يجرى فيها الخلط والتخليط بين البطل وله معايير قوامها نبيل الغاية وسلامة القصد واستقامة الوسيلة والسلوك، وبين السفاح أو القرصان الذى وإن خالطت البطولة (الظاهرية) أفعاله، إلا أنها لا تتدرج فى شرف الغاية أو الفعل والسلوك !

لم يكن النفخ الضرير فى عملية سطو تصادف إبان الحرب العالمية الأولى أن كانت على قطار محمل بأسلحة للإنجليز، سطا عليه وسرقه أدهم الشرقاوى، مبرراً لجعله بطلا مغواراً، تكتب حوله وفيه القصص والتمثيلات، دون أن تنتبه إلى أن هذا السلاح استخدم فى مزيد من السطو والجث والقتل والسلب والنهب والاعتصاب !

لم يكن هذا النفخ الضرير هو الأكذوبة الوحيدة التى جعلت من القرصنة بطولة شعبية تتطلى على البسطاء، وتتسج حولها الحكايات والأشعار، لينتقلها الناس ويرددوها بلا وعى ولا عقل ولا فهم ! .. وإنما كتبت تحت عنوان " البطولة " و " الأبطال " - سير عديدة شرقية وغربية للصوص أو قراصنة ولجبابرة جعلتهم الحكايات الشعبية والأشعار أبطالاً بلا بطولة، وروجت دون أن تدري للقرصنة واللصوصية والجبروت، وكان من طرائف هذه التأثيرات أن ينسج الكاتب الفرنسى موريس لبلان روايات

(٢) المال ١٧/١١/٢٠٠٨

أرسين لوبين تحت عنوان : " اللص الشريف " .. مع أن الشرف بعيد
عن اللصوصية بعد السماء عن الأرض، وبريء منها براءة الذنب من دم
ابن يعقوب !

الخطر أن هذه الظاهرة القديمة، جعلت تدخل الآن بأردية وألبسة جديدة
فى دنيا الناس .. مع غياب العقل والفهم صارت تتطلى على البسطاء
العناوين البراقة للصوص وقراصنة سلب ونهب من نوع جديد، لعل أظهر
الأمثلة عليها عينات من المتصدين للعمل العام بدعوى أن كلا منهم "
طبيب الملايين "، فى يده مبضع سحرى يزيل به كل آلام البشر ويحقق
آمالهم ! أعرف نماذج للصوص نهبوا وسلبوا واستولوا تحت عنوان
القروض والتسهيلات الائتمانية، على أموال البنوك وغيرها من الأموال
العامة، ثم عادوا فاستخدموا ذات هذه الأموال المستولى عليها فى الترويج
لأنفسهم للدخول إلى المواقع البرلمانية أو الشعبية أو الرياضية، وللبر
أثواب الإصلاح وسرقة ألقاب الزعامة والرئاسات الشعبية أو المحلية أو
الرياضية، مطعمة بألقاب البرّ أو الحج أو الصلاح، لينطلى أمرهم على
الناس، ويبيعوهم مكانة غير مستحقة، تصاحبهم موتى كما صاحبتهم
أحياء، بينما هم أبعد الناس عن استحقاق هذه المكانة التى سلبوها سلباً لدى
قلوب البسطاء الطيبين !

أخطر من شر وخداع هؤلاء الأشرار، غياب وعى وفهم الناس
وانطلاء الحيل والمخاتلات عليهم، مع أن واقع انحراف وجنوح هؤلاء فى
ماضيهم واقع قريب، كان مشهوداً من سنوات قليلة، حملت الصحف أخباره
وفصوله وجرائره وبلاياه، وحملت فيما حملت ما زواج هذا الجنوح
والاستلاب، من تنعم بحصاده فى زيجات أو علاقات آثمة مشتراة، أو فى
ممارسة المزيد من الفساد فى الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية
وفى كل باب يمكن التوصل بالمال إلى اقتحامه أو ارتياده تحت عناوين
مغلوبة تتطلى على البسطاء، وإن لم تنطل على العارفين الذين ربما دخلوا
فى مقايضات باعوا فيها سكوتهم أو آثروه طلباً للسلامة وتجنباً لقدرة المال
على الانتقام !

هل يمكن أن تعود الإنسانية في حاضرها المعاصر إلى أحبولة
" اللص الشريف " ؟! .. إن كثيرًا مما نشاهده الآن فصول تكاد تكون معادة
- ولكن بأثواب مختلفة - لظاهرة اللص الشريف، مشاهيرها لصوص سرقوا
المال أو أفسدوا وأمعنوا في الإفساد، ثم ارتدوا مخادعين ثوب الشرف
والعطاء العام فانطلى أمرهم على الغافلين، وأفسحوا لهم المجال، وربما
أقاموا لهم الميادين أو أطلقوا أسماءهم على الشوارع والطرق والأماكن !
هل يوجد أشر وأدعى للرتاء من هذه المشاهد الجهولة التي غاب فيها
العقل وغابت الفطنة وأصيبت العيون بالعماء ؟!
أيها الشرف .. كم من الجرائم ترتكب باسمك ؟!

من

تراب (١٦٤) هدايا إسرائيلية؟! (*)

الطريق!

من النوايا التي قد تبدو حسنة - ما قتل ! من هذه النوايا الحسنة -
ظاهريا ! - أن تقيم إسرائيل مزادا لبيع الهدايا التي قدمت لمسئوليها !
فشيء جميل أن يسلم المسئول ما تلقاه من هدايا بحكم منصبه - إلى
حكومته .. وربما كان جميلا أن تبيع إسرائيل ما تلقاه مسئولوها من
هدايا، وأن يكون ذلك في مزاد علني يحقق أقصى ربحية ممكنة . فهذه
خصلة إسرائيلية معروفة !

ولكن المزاد العلني الذي كشفت صحيفة هاآرتس عن قيام إسرائيل
بعقده، هو مزاد لبيع ما تلقاه المسئولون الإسرائيليون من هدايا من زعماء
عرب ! .. إذن فإن الشطارة الإسرائيلية في ميادين المال، قد خالطتها هنا
شطارة أخرى في ميدان السياسة، سواء بالترويج ضمنا لفكرة التطبيع، أم
لخلق أزمات بين الحكام العرب وبين قواعدهم !

أعلنت الصحيفة الإسرائيلية، ونقلت عنها مجلة المصور (١١/١٤)، أن
من ضمن المعروضات في المزاد العلني هدايا قدمت للسفاح شارون رئيس
الوزراء الإسرائيلي الأسبق، وأخرى لرئيس الوزراء السابق إيهود
أولمرت، وأخرى لقادة في الموساد الإسرائيلي، وأن من هذه الهدايا
المعروضة ساعات ثمينة مرصعة وتحمل علم دولة قطر، وأخرى مطلية
بالذهب مهداة من الديوان الملكي الأردني وتحمل شعار المملكة الأردنية !

(*) المال ٢٠٠٨/١١/١٨

هل نية هذا المزاد العلني الإسرائيلي نية حسنة، أو يمكن أن تتدرج في باب النوايا الحسنة؟! .. هل من النوايا الحسنة فضح ستر هذه الهدايا العربية الثمينة إلى المسؤولين الإسرائيليين؟!

وهل يمكن لدولة كدولة قطر، أن تفسر تناقض هذه الهدايا مع الدور الذي تتلبسه قناتها . قناة الجزيرة، أو تقدم للشارع العربي تبريرا تقبله العقول لهذا الفصام أو الشيزوفرينيا؟! .. ربما كانت أزمة النظام الملكي الأردني أقل، فعلاقات الأردن مع الإسرائيليين علاقات قديمة منذ الملك عبد الله .. وهي علاقات مستمرة تستوجد مبررها في التداخل بين الأردن وما كان يسمى بالضفة الغربية الواقعة الآن تحت الاحتلال الإسرائيلي الذي يدبر بشتى الحيل والأحبال لضمها إلى إسرائيل الكبرى؟!

يبدو أن رياح التطبيع جارية على قدم وساق، في السر وفي العلن، وأن العرب قد أخرجوا هذه القضية من إطار المفاوضة وأسلحة المساومة، وانساقوا إلى منح إسرائيل كل ما تريد دون أن يحصلوا على خردلة مما يريدونه . فباستثناء سيناء التي استردتها مصر، لا تزال الجولان والضفة الغربية واقعتين تحت الاحتلال الإسرائيلي الاستيطاني، فلم تتوقف قط عمليات الاستيطان في المناطق المحتلة، بينما تدمير المسجد الأقصى والآثار الإسلامية وتهويد القدس جار على قدم وساق، وبدلا من أن يتحرك العرب لإنقاذ المدينة المقدسة التي لم يعد أحد يتواصل في الدفاع عنها وتذكير الناس بما يجري فيها سوى الصديق المثقف الدعوب الدكتور أحمد يوسف القرعي، فإن حكام العرب يطبعون مع إسرائيل، ويهدون إلى مسؤوليها الساعات الثمينة المرصعة والتي تحمل الشعارات الرسمية الملكية، وما خفي كان أعظم !

هل كان يمكن أن تعرف الشعوب العربية أمر ما يهدده حكامها إلى إسرائيل، لولا مزاد بيع هداياهم الذي أعلنته إسرائيل وفضحت به أمر هذه

الهدايا، وجعلت تروج بها للعالم، أن العرب لا يتضررون من احتلال
أراضيهم بل يطبعون معها ويقدمون الهدايا مشفوعة بالتباريك والأحضان؟!
ترى، هل هذا المزاد العلني، هو آخر ما في جعبة إسرائيل فضحه عن
هرولة الحكام العرب إلى التطبيع معها؟!

من

تراب (١٦٥) فارس من الزمن الجميل (*) الطريق!

حلت من أسبوع، نكرى رحيل فارس المحاماة الأستاذ العظيم مصطفى مرعى . سجله فى المحاماة حافل بصفحات ناصعة، لا يوازيها إلا سجله فى الحياة الوطنية، كان فى جميع الأحوال فارساً بلا منازع، ندر أن يضاهيه فى فروسيته أحد، وكانت مواقفه تجسيدا لهذه الفروسية .. فى المحاماة وفى الحركة الوطنية !

كنت صبيًا حين ذهبت إلى محكمة جنايات شبين الكوم رفقة أبى عطية عبده المحامى، كان والأستاذ مصطفى مرعى زميلى دراسة بمدرسة الحقوق الملكية، وكثيرا ما حدثنى أبى عنه، فذهبت إلى المحكمة مشوقا إلى سماعه ، قامة فارعة، وحضور طاع، وأداء حار ينساب هادئا وفى لحظة تراه كالهدير .. أفلتت يومها من ممثل النيابة عبارة متجاوزة، ربما تغاضى عنها كثيرون، ولكن مصطفى مرعى لا يعرف الإغضاء حين تمس كرامة المحاماة، فانطلق كالأسد الهصور يقول : " أرجو أن تستحى النيابة التى لا تراعى أدبا ولا استحياء " !. صمنت القاعة وكأن الطير على رءوس الجميع، وسكت عضو النيابة ولم يعقب احتراما للأستاذ الجليل الذى كان سالفا أفوكاتو عموميا ومستشارا بالنقض ووزيرا، ولو كان غير مصطفى مرعى الذى أطلق هذه العبارة، لقامت الدنيا ولم تقعد !

كانت الفروسية هى الملمح الأساسى فى حياة مصطفى مرعى، يصاحبها علم واسع وثقافة حاضرة ولغة دانت لصاحبها وأداء فى المرافعات وفى البرلمان لا يضارعه أحد .. قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وبعدها

(*) المال ٢٠٠٨/١١/١٩

، لم تفارقه فروسيته قط .. يقف في (٢٩) مايو ١٩٥٠ لينقى استجوابه الشهير الذي جرى على محورين : أحدهما يضرب في ملك البلاد ويفجر ما أُعطِيَ لمستشاره الصحفي كريم ثابت من مستشفى المواساة، ويثير في ثانيهما نفقات حملة فلسطين والأسلحة الفاسدة !

أما استقالته من وزارة حسين سرى باشا، فغير مسبقة، سواء في مبادرته إليها قبل فترة وجيزة من اكتمال فترة استحقاقه معاش الوزير، أم في صياغته لها .. هو يخطر باعتزاله ولا ينتظر قبولا لاستقالته .. فحسبه أنه قرر .. طفق يقول مما قاله فيها لرئيس الوزراء : " تحية وبعد، فأنت تعلم، كما يعلم غيرك، أني إنما اشتركت في حكومتك على أمل فيك أن لك غاية هي جمع الكلمة، وضم الصفوف . وأن لك هدفا هو جمع القوى المؤتلفة على مواجهة الخطر من مشاكلنا الخارجية والداخلية . وقد تبين لي أنك لا تتغيا هذه الغاية، ولا تتوسل بوسائلها، بل إنك لتبدو كما لو كنت مسلطا لتجعل من كل حزب حزبين وكل فرقة فرقتين . وقد رأيتك بنفسى ترى الرأى للحق وتنقضه للباطل، وتقول الكلمة وتكرها، ولم يقع ذلك مرة واحدة في تافه من الأمر، بل وقع مرارا وفي الخطير من شئون الدولة لهذا أحيطك علما باعتزالي العمل في الوزارة " !

هو الفارس الذى صاغ العريضة الشهيرة ووقعها مع كبار الشيوخ ووجهوها إلى الملك تحمل خطايا الحكم والبطانة المحيطة به، وتواجهه بما لم يواجهه به أحد .. وتراه فى محاكمة إبراهيم باشا عبث الهادى، أمام محكمة الثورة برئاسة البغدادى وعضوية السادات وحسن إبراهيم، لا يتردد فى الانسحاب حين جعلت المحكمة تضيق الخناق على الدفاع وتهدر حقوقه - ولكنه لا يترك المحكمة دون أن يقول لها عبارته الشهيرة : " خير للمتهم أن يكون بلا دفاع، من أن يكون بدفاع أبتّر " !

كان هو الفارس المغوار فى مواجهة قانون العيب، وفى التصدى
للتأمر على حرية الصحافة .. فشمّر وقد تجاوز الثمانين يكتب كتابه
الضافى: " الصحافة بين السلطة والسلطان " !

كم تلقى هذا العظيم من طعنات لقاء مواقفه وفروسيته، رأيته فى نقابة
المحامين كالطود الشامخ يواجه فى شجاعة زمر البلطجية الذين دفعوا
للإحاطة به ومنعه من إلقاء كلمته الاحتجاجية على ماجرى ويجرى لنقابة
المحامين !

هذه سطور من مواقف فارس عظيم فى الزمن الماضى، دفع الثمن ولم
ييال، ترى ماذا يتحمل الفرسان فى زمن القحط !؟

من

تراب (١٦٦)

الطريق!

نظارة

محمد عبدالله محمد (*)

فى مستهل قصيدة " نظارتى " من ديوان " العارف " ، للأستاذ المحامى
الجليل محمد عبدالله محمد .. يقول الشاعر الحكيم :

نظارتى بعد هذى السن باردتفيتهاالوضوح بلا دفع المواعيد
كأنها خلفها غيرى تصاحبه بين الأباطيل أو بين التجاعيد
صديق العناقيد والأغصان كذب صمت الرمال وإطراق الجلاميد
إننا وحيدون هذا كل ما وصلت إليه عينى على أرض المواجيد
يخرج الشاعر الحكيم من هذه الرباعية، إلى أخرى يسخر فيها من تيه
الآدمى بذاته وأمجاده، ومن كبره الذى لا يفارق عزفه وإنشاده تحت راية
العقل، ليخلص إلى أن المخلوق ما هو إلا ومض إخفاء وإيجاد الخالق عز
وجل ..

ماذا ترى الأرض إن ترصدها من زحل وهل ترانى وأبعادى وأمجادى
نخفى ونصمت غرقى فى ضاللتنا فيم احتجاجى وإنكارى وإيعادى
وراية العقل أطويها وأنشرها وذلك الكبر فى عزفى وإنشادى
عيون بُعدك تخفيننا وتوجدنا لأننا ومض إخفاء وإيجاد
يمضى محمد عبدالله محمد فى رباعيات هذه القصيدة التأملية، فيتعجب
من حمى غريزة التملك الضريرة التى يدفعها الطمع إلى القتال من أجل ما
سوف تفقده يقيناً، وكيف أن النفس عدوة القيود حتى وإن كانت من حرير،
ليسخر من انجراف الآدمى إلى الاقتناء والثراء، والاعتراض على نصيبه

(*) المال ٢٠٠٨/١١/٢٠

من الخلق !.. فهل يتأمل الإنسان فى النمل والأفيال أو الأعشاب
والشجر .. هل هى تسأل خالقها ماذا أعطاهما وماذا حجبه عنها ؟!.. لو فهم
الإنسان لأدرك كنه الحياة، وفهم أن عزفها لن يوقفه سخط منه أو كدر !

يتنقل هذا الشاعر الحكيم من رباعية إلى أخرى متأملاً فى الحياة
والإنسان، ليقف فى نهايتها حائراً بين السؤال والجواب .. مدركا أنه لم
يوت من العلم إلا قليلاً، عائداً إلى نظارته التى بدأ بها رحلته أو قصيدته،
وماذا محت أنامل السن من ذاكرته وتخلل سطورها فراغات وأخطاء ..

مهاجر القلب هل خذ لغربتيه لا خذ للبُعْد إذ لا خذ للأمل
من أرضيه طار نحو الشمس تدفنه ولا يواجيه غير البرد والليل
أذاك فى خلقه شيء يساق له كما تساق طيور البحر للنقل
نشوى بما ليس تدرسه منومة فى طيرها بنداء الشوق والأجل

* * *

أنامل السن تمحو خط ذاكرتى وفى السطور فراغات وأخطاء
يعشو المساء كأن الليل سارقه وقد تواطأ أطراف أضواء
خبا نهاراً وولى هل يعوضه أنس السرى وسماء فيه قمرأ
وأن تسوق حديثاً قد يصادفه أذن وبسمة إعجاب - وإطراء

من

تراب (١٦٧) .. صيرورة لا تتوقف ! (*)

الطريق!

منذ خصصت الدول العظمى فالكبرى، ميزانيات هائلة لارتياح الفضاء، والاعتراضات تتزايد أن ينفق الأغنياء هذه الأموال الباهظة بينما يعاني أكثرية أهل الأرض من الفقر المدقع ! أليس فقراء أمريكا أو روسيا أو غيرها، أولى بهذه النفقات ؟! .. وهل فرغنا من أسرار الأرض وما فيها وفي باطنها، حتى نستكشف أسرار السماء ؟!

هذه الاعتراضات التي أثرت من نحو أربعين عاما، أخذت تتآكل تدريجيا مع كل كشف في الفضاء استبان أنه يفتح أو فتح بالفعل أو يمكن أن يفتح في المستقبل - خيرات كثيرة ومنافع جمّة لأهل الأرض !

الإخلاد إلى الإلف وشرنقة الاعتقاد، كان على الدوام العائق الأساسي للبشرية في قبول الجديد أو الإطلال عليه . كانت هذه الشرنقة وراء مقاومة دعوات جميع الرسل و الأنبياء، وكانت هي هي مرجع التحفظ على أي جديد في مجال الاختراع أو الابتكار أو التطور، وكانت هي هي مرد الاعتراضات التي أثرت على ارتياح الفضاء ونفقاته الباهظة !

لم يكن بوسع الحاضر وهو يخلد إلى شرنقة الاعتقاد، أن يرى ناهيك بأن يتقبل ما ارتآه وقتها مجازفات أو مغامرات ارتياح الفضاء وبلا عائد وجدوى ! .. لم يكن بوسع هذه " الشرنقة " أن تتصور مع بدايات محاولات ارتياح الفضاء، ما أسفر عنه بالفعل هذا الارتياح من امتلاء الفضاء الكوني بالأقمار الصناعية ومواكيك وسفن الفضاء، وما أتاحتها هذه المنظومة من

(*) المال ٢٤ / ١١ / ٢٠٠٨

إمكانيات ومنافع هائلة فى الاتصالات والبث الكونى على الموجات المرئية والمسموعة، وتواصل العالم بكل ذلك ونواتجه حتى صار كالقرية يعيش من فى أفريقيا لحظة بلحظة مع من فى أمريكا أو أستراليا والعكس .. صار القمر الصناعى الواحد يغنى عن مئات المحطات التليفزيونية والإذاعية ويغضى ببثه قارات العالم، وأتاحت هذه الأقمار الصناعية للبشرية دنيا فسيحة من تطبيقات شتى فى التصوير المساحى، وفى الإرشاد الأمن للسفن والطائرات، وفى التنبؤات بأحوال الطقس وغيرها ..

فتحت سفن الفضاء أنظار علماء الأرض على مكنونات كانت مجهولة فى الكون الفسيح الذى لازلنا لا نعرف عنه إلا قليل القليل .. عندما أطلقت المحطات المدارية والتلسكوبات الفضائية عرفنا ما لم نكن نعرفه عددا وحجما من أجرام كونية كان منها المجهول لنا تماما أو المعلوم علما ناقصا أو مشوشا .. وعرفنا من أمر النجوم والمجرات والمدارات أكثر كثيرا مما كنا نتصوره، ولا تزال نجهل معظمه !

استدعت كشوف الفضاء، ولا تزال تستدعى كل يوم، حكمة قديمة .. هى أن الحقيقة بنيت البحث والاجتهاد، وأن القعود عن الحلم يصادر على حقائق الغد .. أليست حقائق اليوم نبت أحلام كانت محض رؤى بأمر .. فماذا إذا توقفتنا عن الحلم وأخلدنا للموجود وتبنا عن الوجود ؟!

الحياة كلها، وهذه حكمة الخالق، فى صيرورة دائمة، لا تتوقف قط .. الواقف فى هذه الصيرورة على نظام " مملك سر " - يتخلف عن ركب الحياة، ويحاصره الجمود والبلادة . بلا يقظة، يفقد الإنسان قدرته على الرؤية وعلى الحلم .. القدرة على الحلم دليل حياة، وخاصية مانحة . إلى الحلم وما يشعله من خواطر ويحركه من سواكن، تعود الإنجازات أو الطفرات أو النجاحات فى حياة البشر !

من

تراب (١٦٨) هل عرفنا وزن مصر؟! (*)

الطريق!

لدى العديد من الاعتراضات على ما يسمى مهرجان القاهرة السينمائي الدولي، بل وعلى ما آل إليه فن وصناعة السينما في مصر. ولكن استوقفني الأسبوع الماضي تصريح لرئيس المهرجان، وهو فنان كان في الأصل طبيبا، والفرض أنه متقف .. يعكس - أى التصريح - حالة عدم التفات وعدم تقطن إلى قيمة مصر ! لا على المستوى العام، ولا على المستوى السينمائي !

فضلا عن اعتراضاتي العديدة على المهرجان، وعلى إنفاق أى قرش عليه - فالمليم قد انقرض والقرش فى سبيله إلى اللحاق به، فما يحتاجه البيت يحرم على الجامع، فكيف بالأموال تمنح لفنانين أجانب ثمنا لتثريفهم السامى لمهرجان لا يقدم لمصر ولا للفن شيئا إلا زفة ينعم بخيراتها أصحابه، بينما معظم الشعب المصرى يتضور جوعا ويعانى من أمراض الفاقة !

تصريح رئيس المهرجان يجهل قيمة مصر ووزنها الأدبى بين شقيقاتها العربيات، فضلا عن وزنها الفنى بعامة وفى السينما بخاصة . فمصر بالنسبة لفن وصناعة السينما بين كافة الدول العربية، تضارع بالنسبة والتناسب - مكانة هوليوود السينمائية بالنسبة للعالم . ومع ذلك يقول تصريح رئيس المهرجان : " لو عايزين جورج كلونى وأنطونيو بانديراس

(*) المال ٢٥/١١/٢٠٠٨

فى حفل الافتتاح هاتولى ١٢ مليون دولار (٣٠ مليون جنيه مصرى)
زى ميزانية مهرجان نبي " أو " أبو ظبى " ! .

ومع احترامى لكل شقيقة عربية، فإن المساواة هنا مساواة عددية فى
غير موضوعها، فمكانة الدولة ومهرجاناتها المصنف عالميا ضمن (١١)
دولة كما يقول صاحب التصريح - مكانة حاضرة تؤخذ فى الاعتبار فيما
يطلبه أو يتقاضاه هذا أو ذاك مع اعتراضى على المبدأ ذاته ! ما أريده أن
لمصر مكانة يجهلها ويغفلها التصريح الضريع الذى يؤكد أن الحدودة كلها
قارعة تبدد أموالا مصرية - وإن كانت من داعم ! .. شعب مصر فى أمس
الحاجة إليها لجبر - ولو قليلا - من معاناته من الفقر المدقع وأمراضه
المتزايدة المتفشية . أما مصر ذاتها، فموجع أن نجهل قيمتها ومكانتها،
بينما الانتماء لا يكون إلا نيت إحساس بالقيمة والمكانة !

تذكرت وأنا أقرأ هذا التصريح الضريع الغافل عن قيمة ومكانة
مصر، تذكرت بالمقابل ما كان يفعله ويقوله مصطفى كامل لبعث الحركة
الوطنية بتخصيب الشعور بالانتماء للوطن العزيز الغالى .. انظروا وتأملوا
فى كلماته : يقول الجيلاء إننى متهور فى حب مصر، وهل يستطيع
مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟! إنه مهما أحبها فلن يبلغ الدرجة التى
يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللانقطة بها، ألا أيها اللائمون
أنظروها وتأملوها وطوفوا بها، واقرأوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين
لها من أطراف الأرض، هل خلق الله وطننا أعلى مقاماً، وأسمى شأنًا،
وأجمل طبيعة، وأجل آثارًا، وأغنى تربة، وأصفى سماء، وأعذب ماء،
وأوعب للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ..؟ اسألوا العالم كله يجبكم
بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا، وأن شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم
الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها !
أعرف أن المقارنة هنا ظالمة، ولكن قيمة الفن تتلاشى إذا فقد هدفه
وانفصم عن تربته المستمدة من قيمة وتقدير الوطن . إن مصر ومهرجان
عاصمتها السينمائى النولى لن يضيف إليها حضور " كلونى " أو غيره،

ولن نخسر شيئاً بعدم حضرة. ولكن نخسر مصر حين يجهل أبنائها
قيمتها، ويغفلون عن مكانتها، فتتطلق تصريحاتهم ضريبة تغفل هذه وتلك
وتتجر دون أن تدري في شجرة الانتماء التي إليها محبة وارتقاء
الأوطان !

من

تراب (١٦٩) هل تتفطن الثروة؟! (*)

الطريق!

كلما عدت إلى كتابات يحيى حقى، أدركت كم كان هذا الأديب فذا من عملة نادرة .. عدسته لامة قادرة على تجميع الشذرات وتقديم اللمع الواضحة التي تلفتك إلى ما يمر على الكثيرين من الكرام !

عن " الحمار الزرقاء " تلتقط كاميرا يحيى حقى نوعا من الإعلانات التي كانت تتشر إبان الحكم المملوكى عن بيع بالمزاد العلنى لحمار الفلاح أو طسته أو محصوله البسير وفاء بحق دائرة فلان باشا الفلانى . الحمار الزرقاء عنوان متكرر فى بيع المزاد، يقول يحيى حقى إنه قرأ عنها مرارا قبل أن يتشرف بمعرفتها ولقائها وجها لوجه . الإعلان عنها كان مختصرا من خمس كلمات : " حمار زرقاء سن عشر سنوات " ، وأحيانا يكون الإعلان من ست كلمات إذا بالغ المزايد فى بيان البضاعة، فيضيف مثلاً أنها " عرجاء " ! أو أنها سوف تباع بالمزاد مع طشت صفيح وثلاث كيلات ذرة، سدادا لمبلغ (١٢) جنيها وبضعة مليمات . كان المليم لا يزال معروفا متداولاً فى ذاك الأوان، وكانت هذه عينة من إعلانات بيع ممتلكات الفلاحين - وكم كانت زهيدة ! - بالمزاد وفاءً بمديونيات أصحاب الملك والدواير والأبعاديات ! .. وأحيانا بناء على طلب الخاصة الخديوية، أو الخاصة السلطانية !

يروى يحيى حقى كيف دخل حسين رشدى باشا رئيس الوزراء على السلطان حسين المتسمى بلقب " أبو الفلاحين " ، وكان بينهما وقرنتيهما

(*) المال ٢٠٠٨/١١/٢٦

صداقة ومودة، ليفرد أمامه صحيفة ورد بها اسم الخاصة السلطانية، ويشير إلى الإعلان ويقول عاتبا : " عيب يا مولانا " !

ولكن ما هو العيب ؟! .. العيب الذى قصده رئيس الوزراء لم يكن إلا عن النشر ! أن يقرأ الناس أن الخاصة السلطانية تباع متاع ومؤونة فلاح مسكين من أجل (١٢) جنيهها و (٢٥) مليما ! تلاحقه الخاصة ملاحقة الكلاب السلوقى حتى تصرعه فى سوق البلدة !

للذين انطلقوا الآن فى ردة التباكى على عهد الملكية، أهديهم من كلمات يحبى حقى : " وقد بلغ نشاط الإدارة فى خدمة أرض الجالس على العرش ذروته فى عهد فؤاد وفاروق . وسألت مرة فلاحا عن أعز أمنية له، فقال لشدة دهشتى : " أن لا تشتري الخاصة الملكية أرضا فى بلدنا " !

ترى هل اقتصرت الردة على التباكى على الملكية ؟! . لقد انقض الثراء بشدة على الأراضى هنا وهناك، ولكنها أرض من نوع آخر يجرى فيها التسقيع على الواسع بعد الشراء بأبخس الأثمان، فتتكون من حصيلة الشراء الحرام من ممتلكات الدولة، والبيع الحرام بمئات الملايين، ثروات هائلة تهون أمامها أبعاديات الأمس ! .. على الأقل كان هناك من يستطيع أن يقول : " عيب " فلا يلاحق ولا يُصادر ولا يُحاصر !

لقد تغولت الثورة : ترعرعت فى بر مصر، واستشريت وتفشى فيها الفقر والفقراء ! ومن الغريب اللافت أن الثروة لا تنفطن للخطر القادم من الفقر والإملاق ! لو تفطنت الثروة للغضب المنحبس فى الصدور، لاعتدلت وارعوت قبل أن يأتى طوفان لن يميز بين الغنى والفقر !!!

من

تراب (١٧٠) عبقرية القبح ؟! (٢)

الطريق!

لسنوات غير بعيدة، كان محل لابس بشارع قصر النيل بوسط القاهرة، شبه واحة وتحفة جمالية يؤمها الأدباء والشعراء والفنانون، وينشدها كل طالب فسحة راحة أو ترجية الوقت من زحام المدينة، وبقي المحل عنوانا للجمال والنظافة والحركة والرواج إلى أن استولت عليه وزارة التموين . كيف ؟ لست أدرى !

الذى لاحظته ولاحظه غيرى، هو كيف انحدر المحل انحداراً هائلاً منذ أن استولى عليه القطاع العام للتموين والتجارة الداخلية، وصار عنوانا للقبح والدمامة بدلا من الجمال والرونق والأناقة . ومع زيادة القبح زادت لافتاته القبيحة للإعلان عن إدارة القطاع وتوارى كل شيء جميل فيه، وجعل المحل يتردى فى شكله وخدمته حتى آل إلى وكالة ومجمع للهرجلة والقدارة وسوء الخدمة، وظل منذ استولت عليه وزارة التموين ينحدر حتى عافه الناس وأوجع منظره المتردى عيون وقلوب من يتذكرون جماله ورونقه فى الزمن الفائت !

كان ظنى والحسرة تملونى أن المحل لا يزال موجودا وأن مأساته اقتصرت على ضياع الجمال وشيوع القبح فى كل شيء، إلى أن قادتني قدماى بأمس، إلى شارع قصر النيل عائدا سيرا على الأقدام من جنازة بميدان التحرير، فروغنى مشهد لا أتخيل أنه هان على من امتلكوا زمام المحل من سنوات.. فحولوه إلى خرابة . لقد انتهى المحل تماما وغلقت كل

(٢) المال ٢٧/١١/٢٠٠٨

أبوابه على شوارع قصر النيل وإبراهيم القباني وصبرى أبو علم بالضبة والمفتاح، وعشش العنكبوت والقذارة عليه، وحلت أمامه أكوام الزباله التى صارت مشهدا متكررا يملأ جنبات الشوارع حتى فى وسط المدينة الذى كان منتزها للجمال والأناقة حتى عهد قريب . فهتمت من المحلات المحيطة بالمحل أنه مغلق من سنوات، وأن أحداً لم يعد يدرى لماذا ؟!

الذى أفهمه أن هذا المحل كان لابد يدر - فضلا عن رونقه وجماله - دخلا كبيراً حتى استولت عليه وزارة التموين، وأن هذا الدخل صار إيرادا من موارد الدولة ممثلة فى القطاع العام، وأنه صار بحكم ذلك من أموال الدولة العامة، الاستيلاء عليه جنائية، وكذا الإضرار به عمداً أو إهمالاً !

الذين آلوا بالمحل إلى هذه الحال، لا ينشرون القبح والدمامة وكفى، وإنما يهدرون المال العام إهداراً يستوجب المساءلة الجنائية . كل جنيته يفوت على الدولة كل يوم يمثل نزيفا للمال العام فضلا عن الإتيان المدمر على كل ما هو جميل فى بر مصر !

لم يكن بوسعى وأنا أشهد المنظر المؤسف، ولا هو فى وسعى الآن تقصى الأحوال والظروف والمثبطات والإهمالات التى أدت بهذه الدرة إلى هذه الحال المزرية، ولا حساب ماذا ضاع على المال العام نتيجة هذا الإهمال الجسيم الذى يستوجب المساءلة والحساب !

ظننى أنه واجب على كل صحيفة مصرية أن تجرى تحقيقاً صحفياً حول هذا الموضوع، يرصد العبقرية الفذة المؤسفة التى تعيثُ فساداً فى كل شيء طيب بمصر ! لابد أن نعرف ماذا فعل ويفعل المسؤولون عن هذه الجريمة التى حولت هذا المكان الرائع إلى خرابة، وكِم ضاع على المال العام من جراء هذا الإهدار المفزع الذى لا يراعى أبسط مبادئ الضمير والإحساس بالمسئولية !

من

نراب (١٧١) المرفأ! (*)

الطريق!

مهما كبر الإنسان، أو تقدم به العمر، أو ارتفعت المكانة - يحتاج دوماً إلى مرفأ .. يأوى إليه حيناً أو يلقي همومه، أو يضع رأسه على كتفه ليبكي ويغسل أحزانه، أو يستمد التشجيع والثبات والثقة، أو ينشد النصيحة، أو يتلقى العون والمدد .

ظللت ثلاثين عاماً أنعم بهذا المرفأ . تلقاني محمد عبدالله محمد وأنا أقترب من الأربعين، فمحنني أبوة عريضة، وأستاذية معطاءة، وعاطفة متفهمة حانية .. أعطاني من علمه وأستاذيته ما جعلني من صناعة يديه .. ولكن أميز ما شملني به - هو أبوته الحانية، وراحة الأمان التي ألجأ إليها حين يحزبني أمر، أو تلم بي ملمة، أو تستعصى على رؤية .

لازلت أذكر أبوته الحانية عندما ذهبت إليه شاكياً من فقداني تدفقي بعد أن لامسته في إحدى القضايا وبهرتني عظمته وقوة عارضته وعمق أفكاره، فهانت أسمى الفصاحة والبلاغة اللفظية، وتضاءلت أمام العبقريّة العقلية اللامعة . يومها اهتزت تقني في الفصاحة وأساليبيها، واهتزت خطوط التوصيل بين العقل واللسان، وتعثر التدفق وانحبست الطلاقة، فذهبت إليه أشكو ما أنا فيه، فإذا به يخفف روعي، وينتشلني من وهديتي بعبارة واثقة حانية لازلت أحفظها عن ظهر قلب . قال لي : " لا تقلق أنك توقفت وتأملت وراجعت . كثيرون يأتون إلى الحياة ويفارقونها كما دخلوها

دون أن يتوقفوا أو يتأملوا أو يراجعوا . توقفك يعنى أن
" شجرتك طيبة وستورق " .

من يومها فى السبعينيات - لم أفارق هذا المحامى العلامة المفكر الجليل
حتى فارق دنيا فى أوائل القرن الواحد والعشرين . لازلت أنكر كيف
وجدت لديه المرفأ حين أملت بى ملمة شديدة، حزبنى أمرها .. ولم يأخذ
بيدى ويكفكف عنى إلا أبوة هذا الإنسان العظيم . ظل محمد عبدالله محمد
لأكثر من ثلاثين عاما المحور الحاضر فى حياتى . قد مرت على رحيله
ثمانية أعوام، ومع ذلك لا يمضى يوم دون أن أتذكر محمد عبدالله محمد،
أفتقده وأترحم عليه ويوحشنى فراقه . لم أعد أجد المرفأ الذى كنت ألتجأ
إليه، ولا الأنيس الذى كان يؤنس عقلى ويهدى خطاى وينير طريقى .. كم
أدرك اليوم أننى بأشد الحاجة إليه، وأتذكر كلماته أن غربتى فى المحيط
سوف تزداد . لماذا يا محمد بك ؟! فتأتينى كلماته العميقة أن الناس
الخلاص للحق والحقيقة تصيبهم الغربة على الأيام وسط محيط يضم فيه
الإخلاص وينظمر الوفاء وتجف القلوب . كانت كلمات محمد عبدالله محمد
هى الموحية لمقال كتبتّه من نحو خمس سنوات بعنوان: " غربة القريب " !
كم أحس بالغربة فى هذا الزمن الكسيع، وكم أحس بالوحشة الشديدة
وسط محيط نصبت فيه معانى الوفاء وتلاشى الإخلاص وتفشت
المظهريات وتقلص الصدق وضمرت المشاعر !

نظرت حولى وسط الهجير الذى أحاط بى وأخذنى من كل جانب، فلم
أجد " المرفأ " .. رحل محمد عبدالله محمد، ولم أجد من يملأ مكانه الشاغر .
سيظل مكان محمد عبدالله محمد شاغراً لا يملؤه ولا يقدر على ملئه أحد .
محمد عبدالله محمد هو الأب الذى تيتمت بعده للمرة الثانية بعد يتم الأب .
وهو السند الذى لم أجد عوضاً عن عقله وقلبه وفهمه وعطائه، وهو المعنى
الذى تاهت واضطربت من بعده المعانى !!

أبى الروحى محمد عبدالله محمد . كم أوحشتنى . يرحمك الله رحمة
واسعة .. ويلهمنى الصبر والعزاء حتى ألقاك !

من

نراب (١٧٢) المسرح الحر! (*)

الطريق!

من قصيدة "نظارتى" بديوان العارف للشاعر الحكيم محمد عبدالله محمد، انتقلت إلى قصيدة "المسرح الحر" .. يعنى بها مسرح الحياة الذى أبدعه وينظمه خالق الكون .. هذا المسرح الملىء ببلايين الاحتمالات التى تحيط بالإنسان فى صحوه ومنامه، وفى سعيه وقعوده، وفى أمله ويأسه، تصرفها مقادير لا يمتلك الإنسان دفتها، يكاد يكون فيها مؤديا لدور مرسوم لا يملك منه فكاكا .. يستوى فى ذلك الإنسان بتميزه واقتداره، مع الفأر والأسد .. كل منهم تدور فى كيانه ذات الدماء العجيب دوائرها، تحمل رسائلها بين الروح والجسد !

من الظلام نلّمُ النورَ داخلنا ندعو اليقين الذى يذنو ويبتعدُ
وربما بعد وقتٍ صار ما معنا حقاً يورثُ للدينيا ويُعتَقَدُ
إذا تعثّر ذو عقلٍ برِيبتهِ يبيتُ مضطرباً الأحشاء يرتعدُ
من الظلال نخافُ النورَ خارجنا نخافُ صدمةً ما ينْفى وما يعدُ

* * *

الناس على الدوام أسرى للعادة وما يعتقدون، أعداء ما يجهلون .. يخافون التوغل فى الأعماق مخافة التصادم مع الأفكار والمعتقدات ! وتجنباً لاتهامات السطحيين الذى لا يفكرون ولا يتأملون !

أَعْطَى التَّعَصُّبُ نَسَجَ الْفِكْرِ حَبْكَتَهُ قَوَّاهُ بِالْجِدِّ حَيْثُ الْجَدُّ يُحْتَرَمُ
حَيْثُ التَّسَامُحُ فِي الْأَرْكَانِ مَمْتَنِعٌ وَمَنْ تَوَعَّلَ فِي الْأَعْمَاقِ مُتَّهَمٌ
إِذَا تَحَوَّلَ مِنْ قَوْلٍ لَوَاقِعَةٍ وَصَارَ حَرْبًا وَسَلَمًا ذَلِكَ الْكَلَمُ
وَدَارَ فِي الدَّمِ يَغْزُو كُلُّ وَاقِدَةٍ غَرِيبَةِ الدَّارِ تَغْزُوهُ وَتَقْتَحِمُ

* * *

لَا تَنْسَ أَنَّكَ ذُو دَوْرٍ تُمَثِّلُهُ فِي قِصَّةٍ أَنْتَ فِيهَا وَاحِدٌ أَحَدُ !
وَلَنْ تُشَارِكَ فِيهَا الرَّأْيَ مُخْرِجَهَا هُنَا - بِرَغْمِكَ - تَخْتَارُ الَّذِي تَجِدُ
وَكَلَّمَا اخْتَرْتَ قَادَ الدَّوْرُ لِأَعْيَاهُ إِذَا اندَمَجَتْ تَبَارَى الرُّوحِ وَالْجَسَدُ
هَلْ أَنْتَ شَيْءٌ خِلَافَ الدَّوْرِ خَارِجُهُ أَوْ أَنْتَ ظِلٌّ وَهَذَا الظِّلُّ يَبْتَعِدُ

* * *

يَأْيِهَا الْفَطْنُ الْقَاسِي أَوْ قِطْنِي كُلُّ مَنْ النَّوْمِ وَالْإِيقَاطِ تُمَثِّلُ
مَاذَا أَنَا ؟ لَا أَرَاهَا بَلْ أَحْسُ بِهَا وَمَا خِلَافُ ذَلِكَ تَشْبِيهًُ وَتَعْلِيلُ
وَلَسْتُ أُمْلِكُ إِسْكَاتًا لِأَسْئَلْتَنِي فَإِنَّ أَجَوِبَةَ الْفَانِينَ تَأْوِيلُ
وَكَيْفَ يَكْشِفُ مَا حَوْلِي حَقِيقَتُهُ وَكُلُّ مَا فِيَّ أَحْلَامٌ وَتَخْيِيلُ

* * *

وَذَلِكَ حَيْرَانٌ لَا يَرْضَى بِحَيْرَتِهِ لَذَا يَمَثِّلُ شَخْصًا لَيْسَ حَيْرَانًا
يَقُولُ مَا قَالَهُ زَيْدٌ وَيَفْعَلُهُ عَلَى طَرِيقَةِ عَمْرِو كَيْفَمَا كَانَا
إِنَّا نَرَاجِعُ فِي التَّمَثِيلِ قَدَرْتَنَا عَلَى الْأَدَاءِ وَفَهْمِ النَّصِّ أَحْيَانَا
لَكِي نَقُومَ بِمَا نَرْجُو وَنُحْسِنُهُ فَقَدْ نَزِيدُ - بِهَذَا - الْحُلْمِ إِيْمَانًا !
الْمَسْرَحِ الْحَرِّ أَدْوَارَ وَأَكْسِيَّةً وَكُلُّ دَوْرٍ لَهُ جِزْءٌ مِنَ الزَّمَنِ !

من

نقل الأعضاء ! (١٧٣)

الطريق!

أجل . قانون نقل الأعضاء لن يمنع التجارة فيها ! لا يوجد قانون فى العالم يمنع الجريمة ! لم تمنع قوانين حظر حيازة وإحراز المخدرات من التجارة فيها وتعاطيها ! ولم تحل القوانين العقابية على اختلافيها دون وقوع جرائم القتل والسرقة والنصب والاختلاس والرشوة وخيانة الأمانة !

ومع ذلك يبقى السؤال عن أثر قانون نقل الأعضاء ذا طبيعة خاصة .. لأنه حسب المفهوم قانون ينظم ويضع القواعد والأسس والنظم لنقل مشروع للأعضاء تبرعا لا تجارة، وبشروط وضوابط تكفل - فى نظر المشرع - عدم الخروج بالنقل من مشروعية التطوع فى حالته التى تفيد المتبرع إليه ولا توقع ضررا كبيرا بالمتبرع .. فامتناع الضرر كليا محال، لأن كل عضو له منفعة المؤكدة لحكمة ارتأها الخالق عز وجل اهتدينا إليها أو عجزت بشريتنا للآن عن اكتشاف سرها وغايتها !

الثغرات المتخوف منها ثغرات عديدة، بعضها إلى القانون ذاته، وبعضها إلى الناس .. لا يوجد ولم يوجد التشريع الكامل المتكامل الذى لا ثغرة فيه أو لا طريقة لاختراقه أو الاحتيال عليه، أما الناس فهم الناس كما كانوا وكما هم وكما سيظلون فى كل عصر. مع الأثرة والحسابات الشخصية لن يعدم الناس الوسائل للالتفاف على القانون، يساعدهم على ذلك أن القانون الكامل المتكامل لا وجود له .

(٥) المال ٢٠٠٨/١٢/٣

من ثغرات مشروع القانون المعروض الآن على مجلس الدولة، والتي سوف يترخص فيها الناس وينفذون منها، هلامية وعدم وضع ضوابط فعالة لحالة الضرورة التي تسمح بنقل الأعضاء، أو لإباحة التبرع للأجانب لصلة مصاهرة قد تفتح باباً آخر للنخاسة التي يباشرها بعض الأثرياء فى شراء الصبايا، والأخذ بافتراض فى تحديد حالة الوفاة دون القطع فيما اختلف فيه الأطباء أنفسهم سيما فى حالة ما يسمى موت جذع المخ، وهى حالة تفرض نفسها بشدة فى حالة الأعضاء التى تتلف إذا لم تؤخذ فور الوفاة، مما يجعل افتراض الصواب فى أطباء ثلاثة برغم عدم الاتفاق العلمى أمراً جالباً للريب والظنون !

يبدو أيضاً من ثغرات القانون والناس، أن افتراض الحياد يصطدم بأنه لا يوجد فى الدنيا ضمان مؤكد لحياد البشر، وأن توعية الأسر التى يعتمد عليها المشايخ للمشروع لن تكفى مع ضغط وجوع بل وكفر الفقر الذى سوف يفتح أبواباً لن تتغلق لتجارة الأعضاء استغلالاً لثغرات القانون وطبائع الناس وغول الفقر والحاجة !

المؤملون خيراً فى المستشفيات الحكومية، يجهلون أو يتجاهلون الحالة المتردية التى وصلت إليها هذه المستشفيات التى لم يشفع فى إصلاحها رقابة شكلية توضع على الورق . إنها مسألة آليات وذمم وطبائع وسلوكيات تراكمت على مدار السنين تهدر حقوق الأحياء فما بالك بالأموات أو بالمعوزين الذى يبيعون أعضاءهم من وراء الكواليس، وربما جاء السماسرة من ذات العاملين بالمستشفيات الحكومية التى يعد اللجوء إليها كالاستجارة من الرمضاء بالنار !

ظنى أن فتح درجة القرابة حتى الدرجة الرابعة، يفتح أبواب البيع، بينما قد لا يغطى الالتزام بالدرجة الأولى والثانية للقرابة - مقدار الحاجة إلى نقل الأعضاء . وهذه وتلك تثير بقوة وجوب وضع سياج صارم من الضمانات لا يغفل طبائع الناس ولا ضغوط الفقر فى بر مصر، أما إباحة التبرع للأجانب، فإن الاكتفاء لضبطها بصلة القربى والمصاهرة، لن يكون

كافيا دون معايير صارمة لمواجهة سوق النخاسة التى سوف تفتتح بقوة
لشراء زيجات توصلنا إلى شراء أعضاء !!

أخطر الثغرات التى تهدد حائط الصد الذى يحاول المشروع إقامته أمام
التجارة، يأتى من الناس ومن الإدارة المصرية .. لن يتتور الناس بين يوم
وليلة، ولن يتخلص المعوزون من ضغط الفقر والجوع فى لحظة، ولن
تتصلح حال الإدارة المصرية التى يعتمد عليها المشروع كثيرا - لمجرد
الرجبات الطبيعية والنوايا الحسنة ! .. راجعوا كيف تصدر شهادات الوفاة
ذاتها، وكيف تسير الأمور فى أجهزة وزارة الصحة ومستشفياتها، لتعرفوا
أننا نحتاج إلى كثير من الضوابط الحقيقية الفعالة قبل أن نفتتح على فقرائنا
نار جهنم !!

من

تراب (١٧٤) عشوائيات الحظوظ ! (*)

الطريق!

من شهور كتبت عن تجاهل اسم الزعيم الكبير مصطفى النحاس فى شوارع وسط القاهرة، مع أن شارع قصر النيل لا يزال اسما بلا مسمى حتى الآن، جاهزا لأن نطلق عليه اسم الزعيم مصطفى النحاس الذى ظلمناه طويلا طوال سنوات العزلة الإجبارية التى فرضت عليه !

ويبدو أن تكريم الأحياء فى مصر حظوظ. فمن الحظوظ أن نقيم تمثالا للفريق عبد المنعم رياض بميدان التحرير، وهو لا جدال يستحق التكريم، بينما لم نقم تمثالا لائقا بقلب القاهرة حتى الآن لأى من الزعيم جمال عبد الناصر الذى استشهد الفريق رياض إبان حكمه، أو للرئيس السادات صاحب قرار وحرب العبور. وقد يقال إضافة لذلك إن حرب التحرير بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ قد حملت بطولات الأبطال عظام لا تقل بطولاتهم عن الفريق رياض، ومع ذلك لم يكرمهم أحد !

ظنى أن الأمور جارية على نظام المصادفات، أو الاستجابة للإلحاحات، وإلا فكيف نفسر توارى طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ويحيى حقى تواريا يكاد يكون تاما فى موجات التكريم التى تكاد الآن تنصب فى العظيم نجيب محفوظ دون أن نبالى بمن أطلق عليهم هو نفسه أنهم أساتذته الذين حفروا وعبدوا الطريق .. هل كان عباس العقاد يدرك قلة التقدير والوفاء حين هرب بجثمانه فأوصى أن يدفن بمسقط رأسه أسوان حتى لا يضيع فى زحام القاهرة كما يضيع الآن بتجاهل إقامة تمثال

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٤

له فى القاهرة، إذ لا يكفى تخليداً له أن يطلق اسمه على شارع بمدينة نصر !

ما هو منطق أن تتوارى جثامين وأضرحة قامات مثل مصطفى كامل ومصطفى النحاس ومحمد فريد وعرابى وطه حسين ولطفى السيد وتوفيق الحكيم ويحيى حقى، بينما لأحمد ماهر ضريح بوسط القاهرة كان من حظ محمود فهمى النقراشى أن ألحق به . بديهى لست أعترض على تكريم رياض ومحفوظ وماهر والنقراشى، ولكنى أتساءل فقط عن عدم تكريم آخرين يستحقون أيضاً كل التكريم !

هل يغفر لنا التاريخ أننا حتى الآن لم نقم تمثلاً لائقاً للزعيم جمال عبد الناصر، أو للرئيس محمد نجيب أول رئيس للجمهورية، أو للرئيس السادات أو للزعيم مصطفى النحاس ؟!

لا جدال أن العظيم نجيب محفوظ محظوظ - فضلاً عن تفرد - بمجموعة محبيه الذين يحوطون ذكره بالعباية والتكريم فى كل مكان وأخرها إطلاق اسمه على نكية أبو الذهب وإنشاء متحف باسمه . ولكن ألا يمثل هذا بمفهوم المخالفة أننا نغضى بلا منطق ولا مبرر عن تكريم عظمائنا أمثال العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وآخرين فى عقد فريد ملئوا الحياة الأدبية والفكرية إلى جانب عظماء القادة والزعماء الذين غيرنا ما كان قد أطلق من أسمائهم على مدن أو بحيرات حال حياتهم ؟!

ظنى أن مرد ذلك ليس فقط إلى قلة الوفاء، وإنما إلى عشوائية تتترك الأمور لمصادفات المقادير، مثلما تركت كل شىء جميل فى القاهرة المعزية إلى أيادى الإهمال والقبح والقدارة، فضاعت الجماليات، حتى فى التماثيل التى أقيمت مؤخراً فاخترت لها أمكنة تكاد تزرى بها، كالمكان المختار لتمثال أمير الشعراء أحمد شوقى، أو ضياع معالم تمثال الفريق رياض وسط ارتفاعات كوبرى أكتوبر من ناحية، والأنتكخانة من ناحية أخرى، حتى أنك لا تستطيع أن تهتدى إلى موضع التمثال إلا إذا فتشت

وأمعنت النظر لتجده في النهاية صغيراً متواضعاً لا يوحى بأى شموخ
وسط الغابة الخرسانية العالية المحيطة به !

ماذا أقول لكم ؟! هل أقول انظروا إلى مساحة وامتداد الميدان الذى
وضع فيه الباريسيون المسئلة المصرية فى ميدان الكونكورد . رحم الله
أحمد بهاء الدين الذى ظل إلى آخر يوم قبل أن تأخذه الغيوبة ينادى
بالعودة إلى رعاية الجمال فى بر مصر !

من

تراب (١٧٥) في النبوة الحمديّة (٢)

الطريق!

في النبوة الحمديّة، فضلا عن عنايتها الجمّة بجانب الروح والنفس — فيها اعتراف جاد بالعالم المادى الظاهر، وأنه واقع ضرورى لا يجوز تجاهله وليس منه مفر لأى حى أو غير حى، لأن الحى وغير الحى جزء موجود من العالم المادى لا محالة .

وفى النبوة إيمان فطرى بأن ذلك العالم بما فيه من أحياء، محكوم بحكمة خالصة .

وفى هذه النبوة إيمان فطرى بأن الفارق الجوهرى بين آدمى وبين غيره، أن آدمى مسئول أمام خالقه عن الإقصاد والفساد الذى يقع بقصد أو بغير قصد أو باختيار آدمى، فهو الوحيد — أى الإنسان — الكائن المكلف المسئول عما يفعل وعما يدع وعما يحسن وعما يسيء .

وحياة نبي القرآن — عليه الصلاة والسلام — يميزها عن حياة غيره، كونها مركزة على هذه المسئولية بدعوة داخلية قاهرة ملازمة، لا يستطيع أن يهرب النّبي من " صوتها " فى نهار أو ليل فى أى مكان أو زمان .

وهذه الدعوة القاهرة ملحّة، جعلت ممارسات النّبي عليه السلام لحياته، فى السر والعلن، خالية من طابع الاستغراق والاستئثار والرغبة الشخصية فى الاستزادة، هذا الاستئثار الذى يطبع النفس عند آدمى عادة، ولكنك لا تجده إطلاقا فى ممارسة النّبي، فممارساته عليه السلام وإن كانت بلا أدنى شك طبيعىة واختيارية وليس فيها ما هو غير آدمى، لكنها كانت خالية

(٢) المال ٢٠٠٨/١٢/١٥

دائماً من أى طابع للاستغراق أو الاستئثار أو الرغبة الشخصية فى الاستزادة، بدا ذا نتائج عملية ظلت مصاحبة وجليّة فى النبوة المحمدية .. منها انقطاع صلته عليه السلام بالتملك الشخصى انقطاعاً يكاد يكون كلياً، فلم يملك - صلى الله عليه وسلم - مالا يحسده عليه أحد، أو يطمع فيه أحد من الآدميين .

ومن هذه النتائج أو الآيات، انقطاع صلته بالترف والأبهة والفخامة التى تقوم مقام التملك أو التمول .

ومن هذه الآيات - خلوصه من كل دواعى الشره ودواعى البطر والتنعّم والترّف. ومنها أنه عليه السلام، وهو أهمها، قد عاش حياته بالغ التواضع، راعياً للمظلوم واليتيم، ذاماً مجافياً للكبر والخيلاء، راعياً للمحتاج، باراً بالضعفاء والمساكين، محسناً للفقراء مضيفاً لهم حانياً عليهم . لقد ملك عليه السلام قلوب الضعفاء والفقراء والمحرومين والمستعبدين - ملك قلوبهم إلى أبد الأبدين .

من

نراب (١٧٦) التصميم والإصرار! (*)

الطريق!

فى تحقيق أهدافنا الكبيرة، نحتاج إلى التصميم والإصرار، ولذلك نحرص عليهما، أما فى حياتنا اليومية فلا نحتاج كثيرا إلى التصميم والإصرار، ولذلك فلا نهتم بتنمية أو تعليم التصميم والإصرار . وأحيانا نتبرم بهما إذا صادفناهما فى غيرنا على شاكلة تبرمنا بالغباء أو التصلب أو الجمود !

فحظ الكثرة الكاثرة من القدرة على التصميم والإصرار - ضئيل جدا. وهذا يجعل مقاومتهما لمن أوتوا قدرة عالية على التصميم والإصرار تكاد تكون مستحيلة إن لم تكن معدومة !

والتصميم والإصرار تركيز الالتفات على الشئ أو الهدف المصمم عليه لمدة فيها يشغل الشئ أو الهدف مساحة الثقات الأدمى، ويستحوذ على اهتمامه، ويكثف حوله فكره وعواطفه .. فلا يبقى من ذلك قدر هام يعطى لشئ أو هدف آخر ما يشارك به فى الأمر المصمم عليه مشاركة عادلة.

هذا التركيز مفيد إذا لم يبالغ فيه الإنسان، وهو ضرورى للتعلم وللابتقان وللازم للبحث العلمى وغيره من الأبحاث . ولا غنى عنه للتأليف الجيد وللتجويد فى الفنون والآداب وإتقان الصناعة والبحث والتجويد بعامة .. وكل من هذه وتلك مساع لها موضوع محدد يحدد مجال التصميم

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/١٦

ودائرتة تحديداً آمناً، لا يغرق فى الغالب الأعم حياة الآدمى أو يطغى عليها، إلا إذا كان الآدمى غير سوى !

أما إذا كان موضوع التصميم والإصرار نصرة فكرة كلية شاملة تشمل كل الجنس أو كل النوع أو كل اللون أو كل المنتمين لوطن معين أو لغة معينة أو دين معين - فإنه يكون أكثر تعرضاً للمبالغة فيه . هذه المبالغة شديدة الخطورة من جهة لأن التصميم أو الإصرار عندئذ لا يسمح لصاحبه بحرية التصرف والتخلص بالنسبة لكل من يخالف أو يعترض سبيل الفكرة المستأثرة فى مبالغة ومغالة أو يهدد أو يُظن أنه يهدد نجاحها، وكذا بالنسبة لكل من يخالف أو يعترض أو يهدد أو يُظن أنه يهدد أو يعوق نجاح الفكرة أو وصولها إلى غايتها !

إلى هذه المبالغة فى التصميم والإصرار، تُعزى الديكتاتوريات الفردية والعامّة - حين تهين أو تبرر لصاحبها رؤية أحادية للأشياء، ووجهها واحداً للأمور، فتسوقه بالوعى أو باللاعوى إلى ديكتاتورية مطلقة على الأشخاص والأشياء، فيجتهد ما وسعته الطاقة أو خارج ما تسعه إلى حد الشطط فى فرض ما يريد توسلاً إلى نصرة وإنجاح وتوطيد معتقده الذى غالى فيه وتشييع له إلى حد التطرف !

يصاب التصميم والإصرار بالعمى الضرير، إذا لم يدرك أن للحقيقة عدة أوجه، وأن ما لدى الآخرين جدير بالنظر والفهم . فارق كبير بين التصميم والإصرار للإنجاز والإجادة والإتقان، وبين الاغترار الذى ينظر للأمور من ثقب واحد لا يرى سواه .. معظم خطايا البشرية، واستبداد الحكام، مردودة إلى هذا الثقب الضرير الضيق !

من

تـرـاب (١٧٧) الثقة والاحتمال ! (*)

الطريق!

الإمكان أو الاحتمال - شئ في البنية الأصلية للوجود الطبيعي .. العضوى وغير العضوى .. فى وجود الأحياء وغير الأحياء على حد سواء .

وقد حاول العقل البشرى أن يتجاهل هذا الواقع أو يقلل من شأنه عصوراً طويلة، ومازالت كلمات مثل : صدفة وحظ واعتباط وعرضى - مازالت تحمل قدراً من معنى المخالفة والإخلال والعمى والغفلة وعدم المعقولة ! وقد ترك هذا أثراً غير حميدة فى التراث الإنسانى كله، سواء ما تعلق منه بالفلسفة أو الأخلاق أو الدين أو الفن أو الاقتصاد .. أو تعلق بالعلم نفسه !

والارتباط بين الإمكان والاحتمال، وبين الإرادة والاختيار وهما ركيزتا الحياة الواعية، ارتباط أوضح من أن يتجاهله العقل أو يصر على تجاهله.. سواء فى نظر العقل إلى نفسه وإمكانياته وقدراته، أو بالنسبة لعلاقته بالوجود أو علاقته بما يظن أنه أصل الوجود أو أنه مصير الوجود ومصيره هو !

والذى يشجعنا على الجرأة والاندفاع بغير بيئة أو تثبت جاد، وعلى استساغة المبالغة والتطرف وتخطى الحد - هو الاطمئنان لعدم وجود المعترض أو المانع .. وأحياناً بسبب الاطمئنان لوجود التوافق أو الموافقة .

(*) المال ١٧/١٢/٢٠٠٨

وهذا باب جاء ويحيى منه كثير من الأذى فى حياتنا الفكرية والروحية والمادية . لأن العقل والعلم والثقة والإيمان والصحة والقوة - مبناهم جميعا الانضباط !

هذا الانضباط هو الذى يقاوم السيولة الفطرية التى فى داخلنا، والتى بمقاومتنا لها وعلى قدر هذه المقاومة، يكون للآدمى " ذات " تعى نفسها وماضيها وتلتفت إلى حاضرها ومستقبلها .. ذات يحس بها إحساسا يقينيا متصلا ملازما بأنها " وجود " مهم فائق الأهمية .. وجود خاص لا يشاركه أحد فى خصوصيته .. وجود غير الوجود العام للآخرين أو الكون .

وتلك السيولة الفطرية التى داخلنا رصيد حيوانى .. لها عند الحيوان حدود فطرية يتوارثها النوع توارثا بيولوجيا فى الأغلب الأعم .. يجيء هذا الميراث مع الميلاد ولا يضيف إليه مجتمع الحيوان إلا أقل القليل لتبقى فى حدودها . وهذه الحدود الفطرية تمنع الحيوان من الحيرة والتخبط وتجعله قادراً على التكيف مع المحيط، وتجعل سلوكه يتسم دائما بالثقة والإيمان الحيوانى animal faith - الخاليين من التردد لخلوهما من النظر والتأمل والمقارنة وما مائل ذلك مما يستثير الخواطر والرغبات المتعارضة التى تواجه الآدمى وتحتاج منه دائما إلى شىء يضبطها ويفصل بينها ويطوعها ويخضعها لسلطانها !

ومع ذلك فهذا الإيمان الحيوانى animal faith أو هذه الثقة الحيوانية، موجودان أيضا لدى الآدمى - وعلى نطاق واسع - فى كل الأمور التى يقوم بها دون نظر أو تأمل، وهذه تشمل رقعتها أو مساحتها معظم حياتنا العادية فى يقظتنا من أكل وشرب وحركة وسكون وحب وكره وكلام وصمت وقبول ورفض ورضا وسخط .. كل هذا السلوك المبنى على الاعتياد سواء كان ماديا أو معنويا مصحوب بهذا " الإيمان الحيوانى " أو هذه " الثقة الحيوانية " .. لأنهما فى الحقيقة أساس الاعتياد وغايته فى ذات الوقت . وبدونهما يفقد الاعتياد تماما وظيفته وأهميته فى عالم وحياة الإنسان !

من

تَراب (١٧٨) قراءة القرآن^(*)

الطريق!

قراءة القرآن الكريم قراءة متأنية مثابرة آية آية أو جملة جملة مع الاجتهاد فى تصور الجو والظروف والحالة بالنسبة للأشخاص عندما كانت الملة فى بدايتها دعوة وليدة تلتبس من يصدقها وينضم إليها ويؤيدها، ويقاوم الواقع الغامر السائد الذى يعاديه لأنها تحاول تغييره وتشتد عداوته لها ومحاربته إياها كلما زاد عدد المصدقين والمنضمين والمؤيدين !

هذه القراءة للقرآن الحكيم - شىء يختلف اختلافاً كلياً عن القراءة المقصود بها التعبد أو المقصود بها التفقه أو المقصود بها التفتن لما فيه من البلاغة والفصاحة المعجزة غير العادية مع الحكمة والعمق . فهذه كلها تجريدات جزئية واشتقاقات فرعية لا ترى الواقع الأول للقرآن إلا من بعيد .. رؤية جزئية جداً تخفى حجم وحقيقة واقعه الأول، أى حقيقة وماهية حياة الدعوة على مدى ثلاثة وعشرين عاماً .

هذه القراءة المصحوبة بتصور الجو والظروف والحالة بالنسبة للأشخاص - عند كل آية أى عند كل جملة - تحمل " شحنة " مصدرها الجو والظروف والحالة - هذه القراءة هى وحدها التى تعطى القارئ حجم وحقيقة واقع القرآن - إلى تاريخ وفاة النبى صلى الله عليه وسلم . وهى قراءة ممكنة لكل من لديه قدر كافٍ من المعرفة بتاريخ الدعوة والبيئة العربية التى ولدت وانتشرت فيها، والنبى نفسه - عليه السلام - لم يأمر بتدوين إلا القرآن، ولم يدون أحد أحداث الدعوة تباعاً فى أوقات

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/١٨

حدوثها، ولم يُبدأ فى تدوين السيرة إلاّ بعد عشرات السنين من وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأكد وأوثق مصدر للعلم بأحداث السيرة هو نفس أو نص سور القرآن وآياته . فما عدا ذلك من أخبار قد كتب بعد أمد طويل من مصادر شتى، بينما متن القرآن المجيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

شئ من هذه الغاية قصدته فى مطول : " السيرة النبوية فى رحاب التنزيل " .. صدرت من هذا المطول خمسة مجلدات، ولا يزال السادس والأخير فى ذمتى داعياً الله تعالى أن يمكننى من إتمامه . فى رحاب التنزيل جدلت أحداث السيرة النبوية موصولة بنزول آيات القرآن المجيد وما صاحب هذا التنزيل من جو وظروف لم أشأ أن أسميها " أسباب النزول "، وإنما تتبعت فقط مناسباتها، بأدلا قصارى مستطاعى لاستحضار صور الأحداث كما جرت فى زمانها، بلسان وعبارات أصحابها، مقرونة بما كان ينزل تبعاً من آيات الذكر الحكيم على صفى السماء المبعوث رحمة للعالمين . عنيت فيها قصداً أن تتوارى ذاتى، وأن أتترك المشاهد تتحدث بنفسها وتقدم للمتلقى مكنونها ومعالمها ونبضها .. رامياً أن أتيح له أن يتنسم عبق السيرة وجوّ ونفحات التنزيل، وأن يعايش زمانها ويستروح أنفاسه، ليرى كيف انساب المدد الإلهى برسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم ليهدى البشرية من ظلام الكفر والشرك إلى نور اليقين .

من

تراب (١٧٩) الحذاء الطائر! (*)

الطريق!

بغض النظر عن الحذاء الطائر، فلم تكن واقعة قد حدثت بعد، حين تكرتني زيارة جورج بوش الابن، في أيامه الأخيرة قبل مغادرة البيت الأبيض، لكل من العراق وبعدها أفغانستان . ذكرتني برقصة أو تغريدة البجعة في أيامها الأخيرة !

الرقصة الأخيرة، أو تغريدة البجعة، صافحتها بمقال للأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود في أخريات عام ١٩٩٠ على ما أذكر .. أيامها كتب بمقاله الضافى في الأهرام أنه يقال عن البجعة إنها إذا ما دنت من ختام حياتها سمعت لها أنات منغومة تطرب أذان البشر، ولا يمنع طربها أن تكون تلك الأنات صادرة - على الأرجح - من ألم يكويها، ومن هذه التغريدة الجميلة - للبجعة لا لبوش ! - قبل موتها جاء التشبيه عند أدباء الغرب لأعمال الختام في الحياة، بأنها تغريدة البجعة قبل موتها !

بدا لي أن هذه المعاني هي التي دفعت بوش الابن، إلى تقرير زيارة العراق ثم أفغانستان في أيامه الأخيرة قبل أن يغادر البيت الأبيض - غير مأسوف عليه ! - إلى غير رجعة . كان ظنه أن ذلك سوف يستحضر - قبل أن يودع - ما ظنه إنجازاً في ولايته المشؤمة على البشرية وعلى بلده وشعبه . توهم أنه بهما - بالزيارتين - سوف يكتب الخاتمة الرائعة، أو " الفينالة " بلغة المسرح، لأعماله (المجيدة !) التي جرت الدمار والويلات والخراب !

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٢٢

الشيء الذى لم يقدره خيال أو وهم بوش، أن " فينالة " المسرحية لا قيمة لها ولا أثر فيها إذا كانت لفصول ومشاهد ركيكة أو خائبة . وقد جاءه الجزاء من جنس عمله ومشاهد ولايته المؤسفة . كان غزو أفغانستان ثم العراق، مشهدين فظيعين لسياسة خرقاء وأوزار كبرى قارفها بوش ومن تحالفوا معه .. الغريب اللافت أن بوش توهم بخيال مريض أنه سيستقبل بالعراق التى بدأ بزيارتها، استقبال الأبطال الأصدقاء ! لقد صدق الأكاذيب التى أطلقها لتبرير غزو وتدمير وتكسيح العراق ! صدق ما بثه للعالم أنه سوف يخلصه من أسلحة دمار شامل تبين وثبت أنها لا وجود لها إلا فى أوهامه وأكاذيبه، وصدق ما جعل يدعيه للعالم وللعراقيين أنه سوف يزريح عن العراق كابوسا يقض مضاجع العراقيين، وأنه فور إنجاز المهمة (المقدسة !) وإسقاط النظام العراقى سوف يتلقاه الشعب العراقى بالأحضان، ومع أن ردود الأفعال جاءت على نقيض أوهامه، وطفقت المقاومة العراقية تشتعل وتزداد يوما بعد يوم، إلا أنه ظل على وهمه فأعدم الرئيس العراقى صدام حسين فى مشهد مأساوى مقدما إياه كضحية فى عيد الأضحى المبارك ! .. الأغرب أن الرئيس بوش العبقري ظل سادرا فى هذه الأوهام، لا يرى ما يجرى فى المشهد العراقى ولا يحزر دلالتة، فظن أن زيارته للعراق زيارة رئيس لشعب صديق سوف يتلقاه بالترحاب والأحضان، ومن ثم سوف يكون المشهد الذى تمناه - مسك الختام أو رقصة البجعة التى سيقدمها للعالم ولبلده قبل أيام من مغادرته البيت الأبيض إلى غير رجعة !

ظنى بغض النظر عن الآراء والفلسفات، أن الحذاء الطائر هو أبلغ وسيلة لاستقبال بوش بالعراق والتعبير للعالم كله عن شناعة ما فعله بالعراق وشعبه وما أنزله فى غزوه الأحمق من تدمير وما بثه فى بلد الرافدين من هلاك وخراب !

للذين يتحدثون عن العقل واللياقة، أقول إن الحذاء الطائر كان أبلغ فى رسالته من الاغتيال ! سيظل بوش ويظل العالم وتظل الأمة العربية

يذكرون الحذاء الذي استقبل بوش بأرض الرافدين .. ستتطوى الفصول
والمشاهد، وسيسترد العراق ما خربته الحماقة المتغترسة، ولكن سيبقى
"الحذاء" عنواناً للرئيس جورج بوش الثاني !

من

تراب (١٨٠) شطط ضير! (*)

الطريق!

لفتنى صباح الثلاثاء ١٦/١٢ - مانشيت سماوى بإحدى الصحف الخاصة، تقول كلماته : " هل كوارث المنيا - وآخرها السبعون غريقا بحادث أتوبيس مغاغة بترعة الإبراهيمية ! - هل هذه الكوارث، هكذا يقول المانشيت - عقاب إلهى لأحمد ضياء الدين (محافظ المنيا) على دفاعه عن تعذيب ضباط الشرطة للمواطنين " ؟!

الذى لفتنى أن تفصح الجريدة عن " عقاب إلهى "، على ما رأيته أوزاراً للسيد المحافظ، مع أن العقاب الإلهى - إن كان ! - لم ينزل بسيادته، وإنما راح ضحية الحادث الأخير قرابة سبعين غريقاً جميعهم أبرياء من أى إثم للسيد المحافظ أو سواه، ابتلعتهم مياه ترعة الإبراهيمية فى حادث مأساوى وجف له قلب مصر !

هل بوصلة العقاب الإلهى - إن كانت ! - لا تعرف طريقها وتخطئ هدفها، فتودى بحياة سبعين بريئاً ليغرقوا فى قاع ترعة الإبراهيمية على مذبح عقاب السيد المحافظ عقاباً إلهياً ؟!

ما ذنب هؤلاء الغرقى السبعين أن تذهب حياتهم عقاباً - إلهياً - للسيد المحافظ، وما ذنب الزوجات والأمهات التكلى، والأطفال الذين يتموا، أن يكابدوا رحيل ضحاياهم ويحتملوا تبعات رحيلهم على حياتهم وأقواتهم ومعاشهم ومصائرهم ومعاناتهم من بعدهم ؟!

ذكرنى هذا الربط المخيف الضرير، بقالة لأحد علماء الدين أطلق فيها
أن ضحايا إعصار مدمر ذهب بحياة مئات الألوف، إنما كان جزاء
(إلهيا !) وفاقا للعالم على خروجه على الدين !

هل التزمنا بحدودنا البشرية وأدركنا كم هو مخيف وضرير أن ننسب
الحوادث والكوارث والملمات إلى عقاب إلهى، بينما لا صلة ولا رابط ولا
سببية بين ضحايا الحادث أو الكارثة أو الملمة وبين ما يعتقده المعتقد -
صح أم أخطأ - فى أوزار وخطايا آخرين لا علاقة للضحايا بهم أو
بأوزارهم !!

هل يستطيع مخلوق أن يستقرئ الإرادة الإلهية، وأن يرد وينسب إليها
ما يريد أو ما يعتقد ؟! أليس هذا تطاولا على المشيئة الإلهية، ورجما فيما
لا يجوز فيه الرجم ؟!

وهل يدرك الراجم أن " شخصية المسؤولية " ركن ركين فى مبادئ
القرآن الحكيم، فإذا خرجت - ظاهريا ! - عن هذه الحدود، فلعل لا
يعرفها ولا يدركها المخلوقون، فالله تعالى يقول فى محكم تنزيله :
" وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه " . ويقول : " كل امرئ بما كسب
رهين " . ويقول فى عدة سور : " ولا تزر وازرة وزر أخرى " .
ويقول : " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا
يره " . مؤدى هذا المبدأ القرآنى أن الواحد لا يؤخذ بوزر غيره، وأن
الأمة لا تؤخذ بوزر أخرى، وأن الوزر موقوف على مقارفه لا يمتد
خارجه ولا يمس سواه !

لا يمكن لمخلوق أن يقرأ ناهيك عن أن ينسب شيئا كبر أم صغر إلى
إرادة الله، ناهيك بأن يكيفه ويستقرئ أسبابه حسب معتقده أو هواه . مخيف
وضرير أن نصدر للناس أن الضحايا السبعين الأبرياء الذى ابتلعتهم مياه
ترعة الإبراهيمية عند مغاغة، كانوا قربانا لعقاب إلهى ! - أرادت المشيئة
الإلهية إنزاله بالسيد محافظ المنيا !!

هذا الشطط الضرير يصيب بالحوال معتقدات الناس، ويمثل أسوأ
مواساة لأسر الضحايا الأبرياء الراحلين !!

من

تراب (١٨١) بوصلة تائمه ! (*)

الطريق!

من الظواهر المؤسفة، أن بوصلة الإعلام بعامة تبدو ضالة حائرة فى هذه الأيام، تاه منها أن الأصل الواجب هو التوجيه والإصلاح والتنوير، وغرقت معظم قنواته فى هاوية " المسائرة " التى ترضى غرائز الناس، وتثير أشواق النميمة، وتستجلب زيادة التوزيع، حتى وإن بثت الحول والعماء ونشرت مدركة أو غير مدركة عوامل الفساد والإفساد !

يبدو مغريا لكل قنوات الإعلام، مرئية أو مسموعة أو مقروءة، الاستجابة لأشواق ورغبات الناس، ولا بأس فى هذه الاستجابة إذا لم يعقبها الندامة..تأتى الندامة حين تتسع الدائرة للاستجابة للغرائز والشهوات، والبحث وتقديم ما يثير، والتوقف والانصراف عما يثرى ويفيد !

فيما عدا الإذاعة والمجلات الأدبية والثقافية والسياسية والنقدية، وبعض صفحات ببعض الصحف تهتم بهذه المجالات، فإن دور الإعلام الخاص والعام فى التنوير والتوجيه والتثقيف قد ضمّر حتى كاد ينطمّر !

المشهد الراهن يورى بأن عقل الأمة ومخصابات تثقيفه وتنويره يكاد يكون ضائعاً فى خريطة معظم القنوات الإعلامية، ولكل منها دوافعه وأسبابه ! فالقنوات القومية وإن برئت من أسلوب الإثارة والبحث عن إشباع الغرائز، إلا أنها مشغولة بتقديم ما يرضى السلطات، اتفق أو اختلف عن الحق والصواب، اقترب أو ابتعد عن تكوين العقل . بينما القنوات الخاصة، مرئية أو مقروءة، مشغولة بالرواج والإيراد، لا يعينها إلا كل

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٢٤

مثير يشبع ويرضى ويساير، ولا تقدم - إلا من باب المواربة ! - ما يوجه ويتقف وينير !

معنى هذا أن عقل الأمة غائب، لا يلتفت إليه أحد، ولا يوليّه حقّه الواجب من الرعاية ! بينما كل مشغول مدفوع - لأسبابه ! - إلى إثارة الغرائز والشهوات، ودغدغة المشاعر بما يرضى لا بما يفيد، وبالإسفاف الذى تعلو لغته وسط هذا الهدير !

قلت سالفا - ولعله فى الأهرام أو مجلة الهلال - إنه وسط هذا الخضم والانفلات الذى لا يحده عرف ولا قانون ولا أخلاق، يبدو دور الإذاعة المسموعة هو القناة البريئة من معظم هذه الأدران .. فهى تخاطب الأذن لا العين، وصافية منقاة من مشاهد إثارة الغرائز .. ثم هى قناة مجانية، متاحة ميسورة فى كل وقت لاستقبال المتلقى فى كل مكان، حتى فى حقله ومصنعه وورشته ودكانه وسيارته ودراجته ومطيقته . يضاف إلى دورها فى التثقيف والتتوير، أنها - باعتمادها على الأذن - تنمى وتخصب المخيلة والخيال.

هذه القدرة على تحريك وتخصيب وإثراء الخيال، لا يمكن أن تضاهيها الوسائل المرئية .. فالصورة التى تبثها المرئيات تشغل العين مباشرة، ولا تترك مساحة لانطلاقات الخيال التى يغذيها فى حالة الإذاعة أن ما تتلقاه الأذن بحاجة إلى رسم صورته على شكل ما فى المخيلة . المشهد المرئى يفرض صورة معينة محددة، بينما يستدعى المسموع ويستحضر خيال المتلقى لرسم صورة لما يسمعه.

ما أردت أن ألفت إليه، أن خدمة العقل مخنوقة أو تكاد فى بر مصر، وأن معظم الهم مشغول إما بإرضاء السلطات، أو بإشباع النزعات . مع شيوع المسابرة لجلب الرضاء أو الرواج والإيراد، وتراجع التتوير والتوجيه، توارت أو تكاد وجبات الثقافة والمعرفة، وشرايين إمداد العقل بما يغذيه ويحركه . نذير سوء أن تغيب عنا موجبات رعاية عقل الأمة !

من

تَراب (١٨٢) عالم الذات ! (*)

الطريق!

فى حياتنا الواعية العادية - يشعر كل منا وباستمرار - بذاته كذات فاعلة مالكة متصرفة مريدة مختارة . وهذا هو طابع عالم اليقظة لكل منا.. هذا العالم الذى يتميز عن النوم وعن الأحلام التى نراها فى المنام .. يتميز بالشعور المستمر بالوعى المريد المختار المتصرف المالك الذى يُبنى ويرتكز عليه كل ما نسميه بالواقع.

فعالمتنا الواقعية هو عالم الذات فيه هى أهم شىء فى عين نفسها، لأن كل شىء آخر خلفها هو بالنسبة لها موضوع لنشاط وبعيها المريد المختار المتصرف المالك - مباشرة أو بطريق غير مباشر.

وكما نقول إن الأمة مصدر السلطات، فإن هذا أكثر واقعية وتعبيراً عن الحقيقة فى عالم الذات .. ففى هذا العالم - الذات هى فعلاً مصدر السلطات ومقر السيادة .. تضرب عملة تعاملها باسمها وتحسب كافة المكاسب والخسائر لها وعليها .. ويمسك الوعى بحساب ذلك كله ابتداء وافتتاحاً وانتهاء وإغلاقاً .. فوعى الذات هو المحاسب والمحاسب .. تقيدته الذات إن قيدته لنفسها دائنة، ومدينة إزاء نفسها !

هذه المحاسبة أيا كان أمدها أو موضوعها أو نتيجتها - تحمل دائماً شيئاً هاماً بل بالغ الأهمية .. هو ابتعاد الوعى والعقل ابتعاداً واضحاً عن طائفة الذات المالكة المتصرفة المريدة المختارة ووقوف الوعى منها موقف المتأمل المراجع الأمر، ووقوفها هى منه موقف الموضوع الذى هو محل

(*) المال ٢٥/١٢/٢٠٠٨

لفعل يقع عليه ويؤثر فيه وينفعل به .. لا موقف الفاعل الذى اعتادت
الذات أن تقصيه !

هذه المحاسبة أيا كان أمدها أو موضوعها أو نتيجتها - فإنها تفتح
وستظل تفتح دائما ثغرات فى أسوار عالم الذات أو سلطان الذات .. منها
نفذ وسيظل ينفذ وعى الإنسان وعقل الإنسان إلى خارج دولة الذات
وعالمها إلى عالم اللا ذات.

والنفاذ من أسوار عالم الذات ليس مشكلة فى ذاته، وإنما المشكلة
الحقيقية هى صعوبة بقاء الحياة الأدمية بقيمها وصورها المعتادة خارج
عالم الذات، أو بعبارة أخرى أن المشكلة هى قدرة الإنسان على البقاء حيا
قويا عاملاً سعيداً فى عالم اللا ذات، مع ما يستلزمه البقاء فى ذلك العالم
الذى يختلف اختلافاً بيناً عن العالم الذى نعرفه - من تكيف شامل وتغيير
كلى فى القيم والعادات العاطفية والفكرية والاجتماعية.

الذين استطاعوا الخروج من عالم الذات، هم فقط الرسل والأنبياء
والقديسون وأفاض وقمم العلم والفن الخالصة المخلصة .. لن تصبح هذه
القمم الرفيعة النادرة أنماطاً شعبية فى أى مستقبل معقول. عسير إن لم يكن
محالاً أن تحاكيها من جهة قدرتها على الحياة خارج عالم الذات - أنماط
شعبية يمكن أن تقع عليها العين فى أى مكان يغشاها آدميون.

من

تراب (١٨٣) تلفيات ومظالم ! (*)

الطريق!

ظاهرة التلفيق ظاهرة قديمة موصولة، من وقت لآخر، ينزاح الستار - وقد لا ينزاح - عن تلفيق اتهام، قد يكون باختلاق الجريمة كما يحدث أحيانا فى دس المخدرات أو الادعاء بما يسمى " الإلقاء " الذى يعقبه تتبع يقال إنه كشف عن تلبس بحيازتها، أو دس السلاح أو نسبته إلى شخص لا علاقة له به إلا الادعاء الملفق !

من صور التلفيق ما تدفعه الرغبة فى غسل اليد من الجرائم التى لا تتفتح مغاليقها، فيبرز التلفيق وسيلة لإغلاق التحقيق ونفض اليدين من القضية، بتقديم متهم وتلفيق الأدلة ضده، والأدهى أن يجبر على الاعتراف بجرم لم يرتكبه، وليس بقليل فى تاريخ البشرية إنزال وتنفيذ عقوبة الإعدام ببريء قبل أن تكشف الأيام عن براءته مما أعدم عليه، أو أن المجنى عليه فى جريمة القتل التى أعدم من أجلها قد ظهر حيا يرزق لم يمسه سوء !

حدث ذلك هنا وهناك فى المسكونة الأرضية، لا يكاد يمضى اكتشاف الخطأ والحزن والندم عليه وعلى إزهاق روح بريئة، إلا ويسدل ستار النسيان كعادة الناس، ويستمر التلفيق بصور وأشكال مختلفة، لا تقصر فى تستيف الأدلة الكاذبة، ودون أن تتورع أحيانا عن انتزاع اعتراف كاذب يقر به المعترف من وطأة التعذيب والإهانة !

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٢٩

التفقيق في مثل هذه الأحوال يظلم بريئا، ويترك المذنب الحقيقي متخفيا بجرمه فاتزا بإفلاته من يد العدالة . إهدار كرامة الإنسان وضربه وتعذيبه وإهانته لإجباره على اعتراف قد يكون بريئا منه .. هذا الإهدار يطيح بكرامة وأمان للناس جميعا لا يقتصر أثره على شخص المعترف كذبا، وإنما يمس أمان الكل في أن يشعروا بالطمأنينة من أن تمسهم ملاحقة على شيء لم يرتكبه ! .. ويمس أمان المجتمع في إفلات المجرمين الحقيقيين من يد العدالة، مع ما في إفلاتهم من احتمالات تكرار الجريمة ووقوع ضحايا قتلوا أو كثروا قبل أن تصل السلطات إلى الفاعل الحقيقي !

فلماذا التفقيق ولكل يدرك - بمن فيهم الملقق - أن عواقبه وخيمة، وقد تصيب الملقق نفسه بملاحقة وعقاب عن التعذيب الذي يجرمه القانون سواء كان لحمل متهم على الاعتراف، أو توقف عند حد إساءة معاملته ؟!

كثيرا ما تكون دوافع الإكراه والتعذيب لانتزاع الاعتراف بغض النظر عن صدقه، مرجعه للرغبة في إيداء القيام بالواجب أو ادعاء الشطارة أو كف إلحاح ولوم الرئاسات على التأخير في فك طلاس جريمة سيما ما يشغل للرأى العام، ولكن المنزلق الأكبر للإقدام على الضغط والتفقيق، راجع إلى نسيج الملقق وتكوينه النفسي والأخلاقي، وإلى قصور إمكانياته وإلمامه بعلوم كشف الجريمة واستقصاء أدلتها بفنون التحقيق وأدواته المشروعة .. وهي تغني الباحث الساعي لفك طلاس الجريمة إذا أدرك هذه الأدوات وألم بها وهي كثيرا ما تغنيه عن التردى في التعذيب الذي يصيب كرامة الإنسان ويؤذى العدالة حين يخطيء هدفه .. وقد يؤذى الباحث إذا ما تردى هو نفسه - وكثيرا ما يحدث - في هاوية جرم وهو يلقى بالتروير أو خلاقه، أو بالتعذيب والإيذاء للحمل على الاعتراف !

الأدهى من التفقيق، أن ينطلى أمره على قضاء الحكم فيقضى بمعاقبة بريء، وكثيرا ما يحدث .. من سبعة أشهر أصدرت أستراليا عفوا عمّن يدعى كولن كامبل بعد (٨٦) عاما من إعدامه على هتك عرض وقتل طفلة .. لحاجت السلطات التي أدلنته في شهر أو شهرين، إلى قرابة قرن

من الزمان قبل أن تكتشف أن الأدلة التي أعدها عليها مغلوطة وكاذبة وملفقة!.. وفي فرنسا مضت سبع سنوات قبل أن تظهر براءة مدام بولين من تهمة قتل زوجها وشقيقها بالسم، ولحسن حظها وحظ العدالة أن العقوبة كانت بالسجن فأمكن تداركها وإن كان بعد سبع سنين!

هناك قد تنشط العدالة لإنصاف مظلوم تعجلت السلطات إدانته بالتلفيق!.. وقد يحدث هذا الإنصاف هنا وهناك أو لا يحدث، ولكن يبقى التلفيق وصمة عار تعصف بالإنسانية وتجلب المظالم وتصادر العدالة نفسها وتتسف أمان الإنسان!

من

تراب (١٨٤)

الطريق!

مسرح

محمد عبد الله محمد ! (*)

مع المسرح الحر، أو مسرح الحياة، بما يحفل به من أعاجيب وتزيينات ومغالطات تبحث عن الغطاء الذى يستر ما لا يريد الإنسان أن يواجهه بصراحة وصدق، ويتفنن بالحيل والتبريرات للإشاحة أو الإعراض عنها، يمضى الأستاذ الجليل المحامى الشاعر الأديب محمد عبد الله محمد فيقول فيما قال فى قصيدته : " المسرح الحر - بديوان العارف :

إِنَّا ظِلَالٌ يَحْوِلُنَا إِلَى كَذِبٍ إِلَى خَدَاعٍ صَغَارُ الْهَمِّ وَاللَّعِبِ
لَسْنَا أَكَاذِبَ فِى الْإِعْيَاءِ نَحْمُلُهَا أَوْ فِى الْمَسِيرِ عَلَى جِسْرِ مِنَ التَّعَبِ
وَقَدْ يُبَارِى إِلَى الْإِعْجَازِ - مَعْجَزَنَا مِنْ الْكِفَاحِ وَعَالَى الْقَصْدِ وَالرَّغْبِ
يَزِيدُ فِى قَدْرِنَا أَنَا نُمَثِّلُهِ مَعَ الْمَخَافِ وَالْأَوْجَاعِ وَالْعَطَبِ

* * *

ظِلُّ الْخَطِيئَةِ ! - هَذَا الدُّورُ صَاحِبُهُ مِنْذُ الْبَدَايَةِ خَطَّاءٌ وَمَسْئُولٌ
لِذَاكَ أَصْبَحَ ذَا جَدٍّ وَمَنْزِلَةٍ بِرَأْيِهَا وَبِرَأْيِ الْغَيْرِ مَشْغُولٌ
وَرَاءَ كَيْفَرِيٍّ - ذَنْبٌ كَانَ - أَلَمْحُهُ وَخَلْفَ ذَنْبِي ذَاكَ السِّيفُ مُسْلُولٌ
تِلْكَ الْكَرَامَةُ - تَمَثِّلُ أُمَثْلُهُ الْمَسْرَحُ الْحُرُّ فِيهِ الْكَيْفَرُ مُقْبُولٌ

* * *

دَغَ الْكَرَاسَى وَالْأَضْوَاءَ مَوْضِعَهَا ضَعَّ الْمَلَابِسَ أُنَى شَتَّى مَنْ سَكَنَ

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٣٠

فليس يُنْشِئُ هذا مَسْرَحًا أَبَدًا مهما تَخَيَّلْتَ مِنْ هَزَلٍ وَمِنْ مِحَنِ
هَاتِ الْمُمَثِّلِ وَالتَّمَثِيلُ عِنْدُنَا يَجِدُ الْمَكَانُ مَعَانِيَهُ مَعَ الزَّمَنِ
وَكُلُّ شَيْءٍ يُرَى فِي الْحَالِ قِيَمَتُهُ وَدَوْرُهُ فِي خِيَالِ الْمَخْرَجِ الْقَطَنِ

* * *

يَا مَنْ يَعْلَلُ حَظِّيهِ لِيَقْبِعَنِي عَلَّيْتُ قَبْلَكَ وَالتَّعْلِيلُ تَمَثِيلُ
هَذَا الْحَوَارِ الْمَسْرَحِيُّ رُفْقِي بِهَا حَيَاتُكَ تَكْثِيرٌ وَتَقْلِيلُ
أَلَا وَإِنَّكَ حَيٌّ صَيِّغٌ مِنْ كُلِّ مِم وَكَمْ تَصَرَّفَ فِيهِ الْقَالُ وَالْقِيلُ
أَنْتَ الْمَقُولُ الَّذِي لَمْ يَذَرِ قَائِلُهُ عَجْزًا وَكُلُّكَ تَرْتِيلٌ وَتَهْلِيلُ

* * *

هَدَى حِمَاسَكَ أَشَقَى الدَّوْرُ لَاعِيَهُ لَقَدْ سَخَطْتَ وَهَذَا السَّخَطُ مَكْبُوتُ
وَذَاكَ " أَنْتَ " قَرِيبٌ مِنْكَ لَامِسُهُ تَوَدُّهُ وَهُوَ فِي عَيْنَيْكَ مَمْقُوتُ
" وَأَنْتَ " هَذَا غَرِيبٌ رَافِضٌ شَكِسٌ مِنَ الْعِنَادِ الَّذِي تَهَوَّاهُ مَنْخُوتُ
يَثُورُ لِلْحَقِّ لَا يَدْرِي مَعَالِمَهُ وَيَقْتَرِي وَهُوَ بِالْإِخْلَاصِ مَنْعُوتُ !

* * *

مِنَ التَّرَابِ الَّذِي يُذَرِّيهِ مَسْرَحُهُ بَنَى الْمُمَثِّلُ وَالْإِعْجَابُ وَالْعَجَبُ
وَكُلٌّ وَصَفٌ لَذِي وَصَفٍ بِمِيزُهُ وَكُلٌّ مَعْنَى لِمَا يَأْتِي وَمَا ذَهَبُ
بِنَاهُ وَالْقِيَمَ اللَّائِي نَعِيشُ لَهَا فَالْعِزُّ وَالذُّلُّ تَمَثِيلُ لِمَنْ غَلَبَا
وَدَوْرُهُ الْأَرْضِ لَا تَحْوِي لَذَاكَ صَدَى لَا يَأْخُذُ الْكُونُ شَيْئًا غَيْرَ مَا وَهَبَا

من

تـراب (١٨٥)

حدود الاحتمال ! (*)

الطريق!

القدرة على تحمل المكاره لها فى جميع الأحوال حدود .. حتى الصبر،
رأينا أم كلثوم تتغنى من نظم الشاعر : " للصبر حدود " .. فإلى أى حد
يتحمل العاقل الصبور خسائر النفس أو خسائر المال ؟

يتحمل العاقل خسائر النفس ومن فى حكمها إذا كانت قضاءً وقدرًا ولم
يكن لديه فرصة لتفاديها بمعونة المال أو ما فى حكمه كالجاء والسلطة .
ولا يتحملها إذا كانت تجعل بقاءه غير ممكن أو غير محتمل !

أما الخسائر التى تقع على الغير خلاف النفس ومن فى حكمها، فهى
قابلة للتحمل ولو كان فى الإمكان تفاديها ببذل مال يؤثر الشخص الاحتفاظ
به فى حسابه للنفع والخسارة !

على أنه لا توجد صعوبة عادة إذا كان المسئول يتولى زعامة أو
رياسة أو قيادة تعطيه على نحو ما سلطة التصرف فى حياة أو سلامة
تابعيه .. فى زمن السلم أو فى زمن الحرب . واستعمال هذه السلطة رهن
بمعقوليته فى ظروف استعماله .

بيد أن التقدير الشخصى لاستعمال السلطة يكون فسيحا جدًا لدى
صاحب السلطة المطلقة .. وكثيرًا ما يؤدى إلى نتائج شديدة التباين . رأينا
الإمبراطور اليابانى هيروهيتو يتحمل الخسائر الهائلة العسكرية والبحرية
والجوية والاقتصادية والمدنية التى تكبدتها بلاده فى الحرب العالمية

(*) المال ٢٠٠٨/١٢/٣١

الثانية، لكنه لم يتحمل الخسائر التي نزلت بهيروشيما ونجازاكي من القنابل الذرية التي أسقطتها الولايات المتحدة الأمريكية، وتصور إمكان تكرارها مع العجز عن منعها أو الرد عليها فكف عن الحرب لأنه رأى الاستمرار فيها جالبا - بلا جدوى - للفناء الشامل !

وتحمل هتلر بإصرار وعناد تراجع وتدمير جيوشه واحتلال بلاده بعد تدميرها وتعطيل مرافقها ومواردها وتشتريد أهلها، إلى أن بات لا يجد من يطيعه ويموت من أجله فقتل نفسه وعشيقتة !

هذان مثالان حديثان لاستعمال السلطة العليا سلطاتها في التصرف في حياة الناس، وكيف أمكن أن تتوقف هذه السلطة العليا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكيف استرسلت في عنادها حتى بعد أن فقدت كل شيء ففقدت نفسها !

أما خسارة المال، فلاحتمالها عند العاقل حد يتوقف عنده عن الاسترسال في المسعى الخاسر .. وهو حد لا صعوبة في الاهتداء إليه بفضل الخبرة والامتنال للحس المشترك . بيد أنه لا حد لاحتمال خسارة المال لدى المصاب بداء المقامرة .. تراه لا يكف عن الخسارة أملاً في التعويض والربح .. بل يسعى للاقتراض حتى لا يكف عن المقامرة رغم خسارته لكل ماله ورغم ضياع ائتمانه في محيطه وانقطاع حيله في الحصول على المال من الغير !

أما الخسارة في المال العام، فتتميز بأن المال العام لا يتحمل خسارته مالكة ذاته، فهو شخصية اعتبارية معنوية، وإنما يتحملها القائمون عليه إن كانت هناك مسئولية بالعمد أو بالإهمال .. فإن انتفت المسئولية الجنائية، فإن الخسارة لا تمس رواتب هؤلاء أو مقرراتهم .. وغالباً ما يموت هذا المال العام الضائع وتموت المطالبة به بمرور الزمن وإمواجه ضمن حساب من الحسابات العامة كعجز يظهر في الحساب الختامي لتطوى صفحة المال العام الضائع، استعوز أم لم يستعوز .. فلا تزال

الميزانيات تكبر وتتضخم وتتوارى فيها الخسائر إن لم تصبها خسائر
جديدة دون أن يتوقف هذا النزيف ما دام القائمون على أموره لا تصيبهم
الخسارة في أنفسهم أو مالهم أو رواتبهم وأجورهم ومكافآتهم وبدلاتهم ..
من أجل ذلك غلظت القوانين عقوباتها على اختلاس الأموال العامة أو
الاستيلاء عليها أو الإضرار بها وإهدارها، فإن قصرت السلطات في
ملاحقة التعدي والمتعدين عليه، صار نهياً مباحاً لكل ناهش يبتلع منه ما
يشاء متى شاء !!

من

تراب (١٨٦)

إباحة الجرم؟! (*)

الطريق!

أعرف أن السلطات لا تكف ولن تكف عن التلصص وعن استراق السمع ومراقبة الاتصالات التليفونية وغيرها .. ولكن لم ينزع أحد، وأقرت أحكام القضاء، أن هذا التتصت عمل باطل غير مشروع .. ويجاوز عدم المشروعية إلى مساعلة الفاعل عن هذه الجريمة التي جرمت المادة (٣٠٩ مكررًا) عقوبات كل صورها وأساليبها وعاقبت بالحبس كل اعتداء على حرمة الحياة الخاصة سواء بالمراقبة أو بالتتصت واستراق السمع أو التصوير أو النقل أو التسجيل، ومدت العقاب إلى حد تغليظه على الموظف العام الذي يرتكب شيئاً من ذلك اعتماداً على سلطة وظيفته، مع مصادرة الأجهزة المستخدمة ومحو أو إعدام التسجيلات المتحصلة منها !

أن يجري التتصت وانتهاك حرمة الحياة الخاصة في الخفاء شيء، وأن يعلن ذلك جهاراً نهاراً - شيء آخر!

لذلك تعجبت ودهشت حتى النخاع من تصريحات قيل بصحيفة البديل، بالعنوان الرئيسي لصفحتها الأولى (٢٥ / ١٢) - إنها صدرت من وزير الاتصالات في أحد لقاءات أندية الروتاري قال فيها " نعم .. نسمح لأجهزة الأمن بالتتصت على مكالمات المواطنين " ! .. وفي تفاصيل إجاباته على أسئلة مندوب الجريدة : " نعم نسمح للأجهزة الأمنية بالتتصت على مكالمات المواطنين الشخصية سواء عبر الهاتف المحمول أو الأرضي وهذا يحدث - على حد تعبيره - في العالم كله " .. مضيفاً :

(*) المال ٢٠٠٩/١/١

" مش معقول هندخل كل الأعداد دى فى خدمة التليفون وهنسيب البلد بدون ضوابط .. إذا لم نسمح بالتتصت فهذا يعنى أن أحدًا من المستثمرين لن يأتى إلينا . أنتم أنفسكم - يقصد الصحفيين - تسألون عندما يحدث شىء فى البلد أين دور الدولة ؟، ونحن نتيج التتصت لأنه لابد أن يكون هناك دور للدولة . التتصت ليس مسألة بسيطة بل تحكمها قواعد ونحتاج إلى إمكانيات وتكنولوجيا خاصة للقيام بهذا الدور . ورغم أن " الوزارة " تسمح لبعض الأجهزة الأمنية بالتتصت على المكالمات إلا أن الحكومة لا تملك القدرة على التتصت على (٤٠) مليون مشترك فى خدمة المحمول " ! ومع أننى لم أفهم، ولم يفصح السيد الوزير، عن لماذا لن يأتى المستثمرون إلى مصر إذا لم تسمح الوزارة بالتتصت على مكالمات المواطنين، ومع محاولات التجميل غير المقنعة فى التصريحات اللاحقة للوزارة، فإننى تعجبت أكثر من قالة إن إباحة التتصت - الذى جرمه القانون - لابد منها لكى يكون هناك دور للدولة !

فهل دور الدولة أن تخالف القانون الذى وضعته وأن تضرب به عرض الحائط ؟! وهل دور الدولة أن تنتهك أو تبيح بإطلاق - وعلى خلاف القانون - انتهاك حرمة الحياة الخاصة لمواطنيها ؟! وهل تفويض الشعب للدولة مطلق بلا حدود ويسمح لها بأن يرد وبالأعلى عليه فتضيع وتنتهك الحرمات ويُعصف بالحريات وتُستباح الحياة الخاصة للمواطنين ؟!

ظنى أن السيد الوزير فات عليه فى هذه التصريحات، أنها تسند إلى موظفى الوزارة السامحين بالتتصت - الاشتراك بالاتفاق والمساعدة فى جرائم تتصت أئمتها قانون العقوبات وفرض لها عقوبات، وأنها بذلك تخرج عن كل مألوف فى وجوب احترام الشرعية، فأن تخالف الشرعية فى الخفاء - فهذه جريمة إذا انكشف عنها الغطاء وقام عليها الدليل، أما الإعلان جهارًا نهارًا عن مخالفة الشرعية علنًا، والتحدى لذلك بأسباب لم يجعلها القانون سببًا لإباحة الجريمة، فإنه - أى هذا الإعلان - سابقة غير مسبوقة وتعصف - ولا أظن أن هذا مقصد السيد الوزير - بمشروعية الدولة

ذاتها وتخلخل كل مبادئ وقواعد الشرعية التي تقوم عليها الدولة وتحكم المجتمع وحقوق المحكومين أمام سلطات الحكومة ! . فهل يبقى لشعب مصر حقوق بعد هذا التصريح المريع ؟!

من

تراب (١٨٧) الرجاء قاطرة الإنسانية ! (*)

الطريق!

يبدو أن الرجاء تطلع ملازم لحياة الأسمى الواعية .. لأن حياته تمتد امتداداً يستهدف الوعي .. له دائماً أحوال أفضل في هذه الدنيا أو في حياة أخرى عند من يرجو قيامه بعد الموت .. حتى المنتحر ينتحر على أمل الراحة من حياة شقية تعسه لم يعد يحتملها، والمريض بمرض قاتل لا ينقطع أمله كلية في تكذيب يأس اليائسين من شفائه، والمحكوم عليه بالإعدام لديه أمل في النجاة من الموت في آخر لحظة، والفدائي في إقدامه على الموت الراجح أو المؤكد يأمل في المجد وحسن الأحدث .. لا يفقد الأسمى كل رجاء في كل اتجاه إلا إذا أيقن أنه قد سدت أمامه كل الأبواب .. عندئذ يمزقه اليأس تماماً ما لم يكن معه بقية من دين!

هذا المعنى العام للأمل ملازم للأسمى منذ وعى وعيه المعروف لنا الآن .. وهو معنى موجود في كل ما نفعله عامدين .. بل في كل ما نفعله غير عامدين، وأيضاً في كل ما أهملناه أو ما لم نقم بفعله مما يمكن أن تكون له نتائج أو آثار علينا أو على أحبائنا .. الأمل موجود دائماً لدى أعلم العلماء ولدى أجهل الجهلاء أياً كان الزمان أو المكان أو الجنس أو اللون .
وجميع ما يسمى بالحقائق العلمية ينطوى على آمال إيجابية أو سلبية في مزيد من البحث والتدقيق في الوسائل والحساب والرصد والمراقبة .. قد يزيد هذه الحقائق وكادة وعمقا وسعة، أو قد يثبت أو يكتشف ما يدعو إلى إدخال تعديل عليها أو على نظريتها أو ما يكذبها أو يدعو إلى العدول

(*) المال ٢٠٠٩/١/٥

عنها .. لا حدود لآمال العلوم فى جدوى المراجعة ودقتها والعودة إلى فحص الحقائق باستمرار .. إذ ليس فى هذه شىء نهائى لا يجوز عليه الفحص أو لا يخضع لإعادة النظر والتصحيح والتطوير .

لا نهاية لميدان العلم والمعرفة لأنه لا نهاية لآمال الآمى فى عقله وسعيه، ولا نهاية لعقل الآمى وسعيه لأنه لا نهاية لآماله فيما هو أفضل مما بين يديه الآن .

إن مستقبلنا هو آملنا وليس إلا آملنا التى نرجو أو نطمع فى تحقيقها .. فحياة الآدميين لا تتكرر فى قوالب وأنماط ثابتة إلا إذا أصبحت آمال الآدميين سلبية محصورة فى إبعاد واستبعاد ما يكذب ما معنا من الحاضر وفى استمرار إقناعنا بأنه ليس فى الإمكان إيجاد شىء أفضل مما كان . كان ذلك الموقف ممكنا فى الماضى لقرون عديدة فى ظل حضارات الرعى والزراعة حين كانت رتابة الزراعة والرعى مطبقة على آفاق الآدميين المادية والمعنوية لتعيش غالبيتهم الغالبة وتموت فى الرعى أو فى الزراعة أو فيهما. تغيرت تلك الحال إلى عكسها فى البلاد المتقدمة وامتد تيار هذا التغير إلى البلاد غير المتقدمة .. فالحضارة الحالية حضارة صناعية تعتمد اعتمادا يكاد يكون كليا على الخدمة الآلية لا على اليد العاملة، وصارت الزراعة نفسها آلية أو تكاد، وتدخل العلم والصناعة بتقلهما فى تربية الماشية والدواجن والحيوان فى البر والبحر، وتخلص وعى الإنسان وآماله فى البلاد المتقدمة من إطباق رتابة طبيعة الزراعة والرعى - فأصبح مستقبل الإنسان هو آماله وآمال الإنسانية المستقبلية لا الحاضرة ولا الماضية، ومن هنا صار الرجاء هو قاطرة الإنسانية الدافعة لها إلى الأمام .

من

تراب (١٨٨) لافتات إنسانية ! (*)

الطريق!

كثيرا ما ننسى أن الملابس وسيلة رئيسية للتعبير بين الأدميين - عما يهمهم في حياتهم الشخصية والاجتماعية .. فهي تعبر عن الصغر والكبر والذكورة والأنوثة والشباب والشيخوخة والمرض والصحة والسفر والإقامة والليل والنهار والجد والتبذل والثناء والصيف والحرب والسلام والحزن والفرح .. وتعبر عن الحالات النفسية صادقة ومفتعلة، وتعبر عن الدين والقومية والجنس، وعن الفن والمهنة والحرفة، وعن الحضر والريف .

وفي كثير من الأحوال تؤكد الملابس معناها بأقوى من تأكيد الأقوال والحركات كملابس الملوك والحكام الرسمية والملابس الخاصة بالكهنة والقسس والمشايخ والرهبان، وملابس الجنود والبحرية والطيران والشرطة، وملابس أصحاب الحرف والمهن وأرباب الفنون في أعمالهم، وملابس البدو والأفارقة وأهل الهند والصين والتتار والتركمان والقران - وحرص أولئك على الظهور بملابسهم تلك في غير مكانهم وأمام الملأ فيه استمساك شديد بدلالاتها على حالهم وما ينتظر منهم .

والثقافات الإنسان إلى استعمال دلالة الملابس الخاصة - قديم أسبق من كل حضارة.. وربما كان أسبق من لغة الكلام نفسها في صورها المعروفة. ووكادة دلالة الملابس وثباتها وقدرتها على الإقناع وعلى تماسك واجتذاب الأتباع - أمر معروف في كل الأزمان وبين كل الجماعات ..

(*) المال ٢٠٠٩/١/٦

وهو شيء قديم فى الأديان الموجودة والمنقضية .. وقد بلغ فى الديانة الكاثوليكية درجة عالية من النظام من قرون .. فهى قد اتخذت أطرزة وألوانا ثابتة للملابس معينة لكل وقت من أوقات السنة الدينية وكل نوع من أنواع العبادات والمراسم وكل مرتبة من مراتب الكهنوت .. كما أن لكل فرقة أو أخوة كاثوليكية ملابس تميزها لا يتغير طرازها الذى يحمل لعيون تابعيها وعيون الناس تمسكها بتاريخها وطريقتها .

ودلالة الملابس المعينة مشهوده أيضا فى البلاد الإسلامية .. فما يقوله الشيخ المعجم - له من القيمة عند الناس أضعاف قيمته إن صدر من غيره . وقد عولت على الملابس الخاصة - النظم الفاشية والنازية وما لف لفهما من الأيديولوجيات السياسية .

ثم إن الأناقة قرينة عند الناس على أن صاحبها أو صاحبها من طبقة خاصة لا من العوام أو السوق .. وهى فى نظر السواد قرينة تعنى توافر الكرامة الاجتماعية فى عين من يراها .. خاصة بالنسبة للإناث .. فقد تجوع الفتاة من أجل ثوب أنيق لحرصها على شراء هذه الكرامة أولا وقبل أى شيء آخر !

إن هذه الملابس مجرد لافتات تشير إلى الصفة العامة التى تشهد بها الملابس على الشخص .. لذلك يجوز ومحتمل أن تكون حقيقة الشخص مكدبة لشهادة ملابسه .. إما لأنه انتحل الملابس دون أن يكون له حق فى ارتدائها، وإما لأنه وإن لم ينتحلها يخفى خلفها نقائص ومخازى فيه - تجعله غير أهل لارتدائها .. وهذا وذاك كثيرا ما يحدثان لأن حياة المجتمعات الجارية سريعة الحركة تعتمد أحكامها فى الغالب - على الظاهر البادى .. ذلك أن القليلين بل النادرين هم من يتوقفون ليتثبتوا قبل أن يحكموا أو قبل أن يختاروا .. فالفرص دائما متاحة للنصابين والفاستدين فى استغلال الأناقة أو استغلال دلالة ارتداء الملابس الخاصة بفئة معينة من الناس . تضيق دائرته وتتسع حسب ازدياد أو نقص هيبة المجتمع فى نظر المنتميين له والموجودين فى إقليمه وظله !

من

تـراب (١٨٩)

من صنـاع المجد؟! (*)

الطريق!

لا يعنى ظهور وبروز أصحاب التيجان ولا حاملى عصى الصولجان، أنهم بالضرورة هم صنـاع المجد .. فواقع الأمر أن صفحات التاريخ من صنع البسطاء فى أغلب الأحوال .. هم الذين يدفعون الثمن بينما القادة هم الذين يضعون أكاليل الغار .. كل ذكر أو سمعة أو مجد بنى ويبنى وسيبنى، إنما كان فى الواقع على أكتاف الآدمى العادى الكثير العدد الموجود فى كل مكان وزمان . الآدمى العادى بالنسبة لذكر المذكور وسمعة المشهور ومجد الماجد - هو الأرض والسما والسماء والماء والهواء والزرع والضرع والكون والوجود والعدم والأولى والآخرة . لأن الذكر هو ذاكرة الناس والسمعة أذان الناس والمجد بمجيد الناس . وكل مجيد أو مذكور أو مشهور بطلا كان أو قديسا أو ملكا أو زعيما أو فاتحا أو قائدا أو عالما أو فنانا - يحيا ويموت فى الناس وبالناس وفى عقول وقلوب الناس .. هؤلاء العاديون العديدون المجهولون فى الغالب الذين يتدفق بهم نهر الحياة والذين يحفرون مجراه ويشكلون أمواجه وتياراته دون أن تكتب أسماؤهم على معابره وجسوره ومرافئه أو على اندفاعاته ودواماته وعربداته !!

الآدمى العادى هو دون أن يشعر - صانع الأمجاد والشهرات والتاريخ .. ولأنه لا يشعر بدوره هذا الهائل لا يفهمه ولا يحاول فهمه .. فىأتى صنعه شأنها فى الغالب الأغلب يعكس أو هام العوام وأحقادهم وأهواءهم وخفة عقولهم وتعصبهم !

(*) المال ٧/١/٢٠٠٩

وطالبو المجد والذكر والشهرة يركبون منذ الأزل على أكتاف الإنسان العادى - ويخاطبون أحلامه وعواطفه وأمانيه ومخاوفه خطابا عاما عن بعد .. لأن خطابه مع آخرين عن بعد - أنشط لخياله وأدعى لتصوراته وأسرع فى الوصول إلى قلبه وإلى استجابته استجابة المصدق المؤمن المعتقد .. ونحن نسمى ونطلق أوصاف اكتساب الشعبية على الاستيلاء على عقول وقلوب الكتل .. ووسائل الإعلام تقوم بهذا كل ساعة فى كل مكان - تمكينا لشهرة سلعة أو شهرة شخص! .. وزيادة طلب وطالبي الذكر والسمعة والمجد فى هذا العصر - أمر طبيعى يساير زيادة نفوذ الكتل وزيادة عدد الناس وزيادة إحساس الأذى العادى بأهمية وزيادة كفاية وسائل الإعلام فضلا عن زيادة العائد المادى للذكر والسمعة والمجد زيادة هائلة لم يكن لها مثيل فى الماضى !

فكرة للتأمل

لا يوجد شئ متعين - يفسر نفسه بنفسه .. وكل ما فى الوجود من الأشياء المتعينة صغرت أو كبرت - يحتاج أمام العقل إلى مفسر خارجه .. يفسرها أى يفسر وجودها على ما هو عليه .. إذ فى طبيعة العقل طلب هذا التفسير أيا كان مستوى العقل!

من

تراب (١٩٠) فكرة الجدوى، والحياة ! (*) الطريق!

كلنا قد ينسى العادى اليومى المألوف الذى يتكرر بلا انقطاع إلا عند المرض أو السجن أو ما شابه ذلك .. لا يتوقف مجرى هذا العادى بسبب الثورة أو الحرب أو الهجرة .. لأن هذا العادى هو أوليات ولبنات الحياة نفسها، والثورة والحرب والهجرة لا تكون إلا من أحياء وبين أحياء .. وهى حالات طارئة تطرأ على حياتهم لا تمحوها ولا يمكن أن تعطلها كلية .. فالكل لابد أن يأكل ويشرب وينام ويضحك ويتكلم ويسعى لعيشه ويفرح ويحزن وينضج ويشيخ ويلتقى الذكور بالإناث وتولد الأولاد ويرى مألوف السن والموت !

ومضى الزمن يبعد عنا الأشياء والأشخاص ويخفى التفاصيل ويعطى الجميع طابعا مجردا أسطوريا غير حقيقى - ويفقدها باستمرار المشابهة بنا وبأشياننا الحاضرة ويجعلها من طراز غير طرازنا الحاضر ! فنحن ندخل فى عالمنا العقلى اليومى ما هو قريب ويسمح لنا بقدر من المعرفة التفصيلية، أما البعيد الذى لا نعرف أو لم نعد نعرف تفصيلاته فإننا لا نحرز منه إلا صورة عامة من تركيب الذاكرة والتصور والخيال أو من التعلم بالمعنى الواسع لهذه الكلمة .. وهذه كلها صور عامة غير واقعية وبيننا وبينها اختلاف الحى المتعين بتفاصيله عن التصور الغامض الذهنى الذى قد يبقى رمزا لمحاسن عامة أو عيوب عامة . ومضى الزمن إذ يأكل

(*) المال ٢٠٠٩/١/٨

تفاصيل الوقائع والأحياء لا يسمح بالدوام والبقاء .. والانتقال بالتواتر لا يحدث إلا بالنسبة لما صار مجرد صورة أو رمزا أو أسطورة حتى حين نصفه بأنه تاريخي وجزء من التاريخ !

وعدم رضانا عما يتعين ويحدث باطراد في حياتنا - قد يبدو أنه شيء يتعارض مع تمسكنا بالحياة وحرصنا عليها، لكن الحال أننا نتمسك بالحياة نفسها كما هي كإمكانيات واستطاعات وآمال ورغبات ومخاوف ولا نتمسك بتعيناها سواء المنسوبة إلينا أو إلى الآخرين أو إلى الطبيعة .. وبيدأ تمسكنا بها يضعف حين يداخلنا شك قوى بأن حياتنا ليس فيها أكثر مما تعين وحدث فعلا .. أى ليس فيها أكثر مما رأينا وراه غيرنا منها .. عندئذ نبدأ فقدان إيماننا الحيواني أو الطفلي بها وبجعبتها التي لا تنفد، ويضممر أو يتلاشى اعتقادنا بأن عندها ما قد يرضينا أو لا بد أن يرضينا بطريقة أو بأخرى رضاء ليس تافها ولا عرضيا ولا وهميا !

ونحن نعيش أغلب الوقت دون أن نهتم بالحكم على حياتنا وقيمتها - تحت فرض أنها قيمة على كل حال مهما كانت .. وهذا قد يفسر إنفاقنا لها كيفما اتفق بلا حساب ولا عناية وترك الآخرين يذفونها إلى إنفاقها بلا عناية ولا احتمال .. كأن فكرة الجدوى غير أصيلة بالنسبة للحياة .. ولكن الخلط بين الجدوى وبين العناية غير معقول بالنسبة للحياة .. فالحياة تستلزم العناية بها .. وإذا كانت الجدوى سؤالاً لا تسأله الحياة الطبيعية، وإنما يسأله عقل الإنسان فقط - فإن العناية تتطلبها الحياة والطبيعة فى أدق الأشياء وأكبرها !

من

تراب (١٩١) لن صارت القيادة؟! (*)

الطريق!

يبدو أن القيادة هذه الأيام قد صارت للقاعدة . لا أقصد تنظيم " القاعدة " الشهير، وإنما أعنى القواعد الشعبية العريضة في كل أقطار وبلاد العرب. معظم الأنظمة والحكومات وآلاتها الإعلامية مشغولون بمهاجمة مصر، مصروفون عن مواجهة إسرائيل وعن بذل أى دعم حقيقى للفلسطينيين ولعون ونجدة الذين يتعرضون للمجزرة الجارية الآن فى غزة! والباقون مشغولون متخاذلون بالقيود والمكبلات التى تشدهم أو تحذرهم وتدعوهم لاصطناع الحكمة مخافة الغضب الأمريكى الذى لا يأمنه نظام عربى على نفسه وكراسيه ومصيره حاضره ومستقبله !!

الغضب والمد الشعبى الذى لا يهدأ، ويتزايد يوما بعد يوم لقاء حرب الإبادة الجارية الآن فى غزة، هو صك إدانة للأنظمة والحكومات والآليات العربية الرسمية . يؤكد أن الأمة لا ولن تموت، وأن وجدانها ورؤيتها وروحها وعزمها وإرادتها هى القياس، ويعكس فى الوقت نفسه " عجز " الأنظمة الرسمية عن القيادة، وتخليها بالخوف والخذلان والنظرة الضيقة عن رؤية ما سوف يحقق بالجميع غدا !

مشاهد تقدم الرؤية والمد الشعبى عديدة هذه الأيام، لا تقتصر على مفارقة الفلق الواسع بين تقدم الشعوب وتراجع الأنظمة والحكومات الرسمية فى الكارثة الجارية الآن فى غزة، وإنما يقدم الجارى الآن فى دمنهور والبحيرة مشهداً آخر لنقدم ريادة القواعد الشعبية العريضة وسبقها

(*) المال ١٢/١/٢٠٠٩

إلى رؤية ما قد لا يراه المنظور الرسمي، تحمل الأنباء والصور مشاهد ولافتات لمسيرة حاشدة لأهالى دمنهور والبحيرة ترفض مجيء الصهاينة للمولد المقتعل لغرض فى نفس يعقوب حول مدفن " أبو حصيرة " . تقول اللافتات الشعبية أن مولد " أبو حصيرة " عار على أهل دمنهور، ويهتف الآلاف الذين تقول الأنباء أنهم أربوا على ثلاثة آلاف : " الصهاينة فى دمنهور، وغزة بتصرخ فى النور " . مولد " أبو حصيرة " هو كمسمار جحا، اصطنعه الصهاينة اصطناعاً لاختلاق وجود لهم فى مصر، ولبت هذا الاختلاق إلى العالم، أما الاجترأ على الاحتفال بمولده هذه الأيام، والإبادة جارية فى غزة على قدم وساق، فهو تتطع وتبجح واجترأ تنبتهت إليه وجدانات القاعدة الشعبية وسبقت الحكومة وأجهزتها الرسمية إلى الاعتراض عليه والتصدى لأغراض الصهاينة فيه !

مشهد آخر للريادة الشعبية، والتراجع الرسمي، نراه فى الدعوى المحموددة للسفير المحامى الأستاذ إبراهيم يسرى، والحكم الضافى لمحكمة القضاء الإدارى الذى قضى بوقف تصدير الغاز المصرى لإسرائيل، وحكمه الثانى الذى قضى فى الإشكالات - بتأييد هذا الوقف وإلزام الحكومة بـ " التنفيذ الفورى وبدون إعلان " !

الأغرب أن يعجز النظر الرسمي عن اغتنام هذه الفرصة التى أتته ساعية - بلا حرج عليه ! - من حكم قضائى واجب النفاذ ويعفى من أى تبعات لمن يخشون التبعات ! .. من المفارقات التى غابت عن النظر الرسمي الضرير مطالبات أعضاء بمجلس الشورى برفع أسعار الغاز الطبيعى على المستثمرين المصريين، مع أنها أغلى أصلاً من أسعار تصدير الغاز لإسرائيل، بينما ترفض الحكومة هدية جاءت من السماء، بحكمين قضائيين، يحلانها من أزمة إمداد إسرائيل بالغاز المصرى فى الوقت الذى تحصد فيه آلة الحرب الإسرائيلية أرواح الفلسطينيين فى غزة .. وفى غير غزة !

ما لا تلتفت إليه الأنظمة العربية الرسمية، أن عجزها إزاء المد
الشعبي، سوف يكرس الخرق ويوسع الفلق الذي طفق يتزايد اتساعاً بين
رؤية وريادة وانتفاضات الشعوب وتراجع وعجز الحكومات . حينذاك
سوف تفقد هذه الأنظمة مشروعية وجودها، وقدرتها على قيادة شعوبها،
وتقدم دون أن تدري أسباب تخطي الهيمنة الأمريكية عنها !!!

من

تراب (١٩٢) المحامى الصديق الشاعر ! (*)

الطريق!

كان من حظى أن تعرفت واقتربت فى السنوات الأخيرة، من المحامى الشاعر الأديب الأستاذ الكبير محمود توفيق .. أهدانى سلفا ديوانى شعر والده الشاعر الكبير محمد توفيق على (١٨٨٢-١٩٣٧)، تمتعت بما قرأته فيهما، ثم أهدانى فى ٢٠٠٦/٣/٦ مختارات من شعره هو .. شعر الابن محمود توفيق، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٦) .. وحسنا فعلت .. ضمنته بعض القصائد التى شملتها دواوينه : أعياد، أنشودة للوادى المقدس، ما بعد الحب، قصائد فى الحب والحزن، دمع على طلل. ولأننى أعرف سيرة الصديق العزيز النجم الأسطع الأستاذ محمود توفيق، فإننى قفزت مباشرة إلى محتوى الأشعار المختارة، أنهل وأتمتع، حتى إذا ما عنّ لى أن أكتب ولو إشارة إلى موهبة وشعر هذا المحامى الشاعر الأديب، وجدتنى أعود إلى الصديق الكبير الذى دعانا يوماً إلى عشاء كبير فى بيته : الشاعر الدكتور حسن فتح الباب . وجدته فى تقديمه الضافى للكتاب - يتوقف فى مقدرة وتمكن عند أكثر مما كان فى ظنى أن أصل إليه . بدأ بالعمومة المعنوية التى أرى أنها تربطنى أنا الآخر بالأستاذ الأكبر محمود توفيق، فهو فى مقدمة رجال القانون والمحاماة الذين لم تعقهم أدوارهم الكبيرة فى أداء رسالة المحاماة، عن الإبداع الشعرى والأدبى . يعقد الشاعر الدكتور حسن فتح الباب مقارنة بين القانون والشعر

(*) المال ١٣/١/٢٠٠٩

ليكشف كيف تقوم بينهما علاقة وثيقة في دفاعهما المشترك عن حق الإنسان في الحياة والحرية والعدالة . وعن شاعرنا محمود توفيق، يقول الدكتور فتح الباب - محققاً - أنه في طليعة الشعراء المعاصرين الذين جمعوا بين الشعر والقانون، راوياً مختارات من مواقفه الساطعة في المحاماة، ومنها رده الاعتبار للبطل يوسف صديق في إقامة تمثال له إلى جوار أعضاء مجلس قيادة ثورة (١٩٥٢) في المتحف الحربى، بعد أن كان قد حال دون ذلك انحيازاه مع زميله المناضل خالد محبى الدين إلى الديمقراطية وإطلاق الحريات.

لم ينس الشاعر الدكتور فتح الباب، الدور السياسى البارز للأستاذ محمود توفيق، سواء فى منظمة الشعوب الأفريقية والآسيوية، واللجنة المصرية للتضامن، أم فى أدائه الوطنى الذى دفع به منذ شبابه إلى الاعتقال والسجن ومطاردة السلطات والمحاكمات، بينما شاعرنا - محمود توفيق - صامد كالطود الشامخ لا ينقطع عطاؤه للمحاماة، مثملاً لم ينقطع نظمته للشعر الذى فيه أجاد وشف عن موهبة أصيلة مبدعة .

لاغرو - كما لغت الدكتور فتح الباب - أن الجينات الوراثية عن والده الشاعر الكبير محمد توفيق على - وراء موهبته الإبداعية التى صقلتها الأحداث والتجارب التى عاشها، مع سحر الطبيعة الريفية التى كانت رافداً غذى موهبته فضلاً عن تأثره بالمذهب الرومانسى .

تمضى مع أشعار محمود توفيق، وتقديم حسن فتح الباب، لتتري كيف تفجرت هذه الموهبة الشعرية الإبداعية منذ ديوانه الأول " أعياد " الذى صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٤ متضمنة أشعاره بين (١٩٤٥) إلى (١٩٥٩) .. ثم الأشعار التى تضمنتها دواوينه " أنشودة للوادي المقدس " (١٩٨٥)، وديوان " مابعد الحب " (١٩٨٦)، وديوان " قصائد فى الحب والحزن " (١٩٩٧)، حتى ديوانه " دمع على طلال " (٢٠٠٠) الذى تضمن ما نظمته من أشعار بين (١٩٩٥) حتى صدور الديوان عام (٢٠٠٠) .

ليس بوسعى المفاضلة بين قصائد المحامى الشاعر الرائع محمود توفيق، فكلها نتاج قريحة سخية وموهبة رائعة، لهذا الشاعر الشائر منذ صباه الباكر، وظلت مصاحبة له حتى الآن فيما يتحفنا به من قصائد بجريدة الأهالى من وقت لآخر، تمتاز فيها الموهبة بالروح الشائرة وبالومضات الفكرية وبالعاطفة الجياشة التى لم تطفئها سنوات العمر المديد إن شاء الله ..

فى عام (١٩٩٨) كتب محمود توفيق فى قصيدته "حان وقت الرحيل ":

حان وقتُ الرحيل .. فلتحملى يا ريحٌ وجدى ولتنتثرى أشواقى
ولتطوفى على مواطن أحبابى ومغدى صحابتى ورفاقى
وداعا يا مشرق الشمس فى الوادى وعُرس الغروب فى الأفق
وفى مايو ٢٠٠٠، تنشر له جريدة الأهالى وداعاً من نوع آخر :
" كانت الدنيا جميلة "، فيقول :

حينما كنا شبابا واعداً نطلب العلم .. ونزهو بالرجولة ..
ونرى فى مصرَ صرخاً شامخاً للمعالى .. والمروءات الأصيلة ..
وسجلاً لتراث خالده وجمالاً لا ترى العين مثيله ..
كان طعم العيش فى أفواهنا سلسبيلاً .. كانت الدنيا جميلة ..
ترى ما الذى أذهب الجمال عن الدنيا التى كانت فى عيون شاعرنا
جميلة؟! يقول فى الختام :

ثم غاصت مصر فى أحزانها وتهاوت تحت أحمال ثقيلة ..
حين غاض الحب من أيامنا واستحال الحلم أشباحاً هزيلة ..
إلى القادر الذى وهبنا الألفاظ الجليلة .. وحبانا بعطايه الجزيلة،
يتجّه إليه محمود توفيق فى ختام القصيدة :

فهو القادرُ أن يلهمنا آية الرشد .. ويهديننا سبيله ..
وهو القادرُ أن يبعثنا بعد أن عزت إلى البعث الوسيلة !

من

تراب (١٩٣)

الطريق!

هل تذكرنا (*)

مصطفى النحاس !

هل تسمع الحكومة ومحافظة القاهرة ؟!. وجدتني أردد لنفسى هذا التساؤل وأنا أقرأ فى عدد جريدة الوفد (٢٠٠٩/١/٨) - أن المجلس التنفيذى لمحافظة السويس وافق على إطلاق اسم الزعيم الجليل مصطفى النحاس على ميدان رئيسى بطريق الكورنيش الجديد . وكان أحد الموظفين قد أمر سالفًا بإزالة الميدان الذى كان يحمل اسم الزعيم الجليل بحى الجناين !

. وكنت قد كتبت مرتين، فى هذا العمود (٢٠٠٨/١/٢٣، ٢٠٠٨/١٢/٤) عن غين هذا الزعيم الجليل صاحب الأيادى الكبيرة فى خدمة مصر والحركة الوطنية، والبخل بإطلاق اسمه على أحد الميادين أو الشوارع بالعاصمة .. لا مراء فى أن إطلاق اسمه على أحد شوارع مدينة نصر علامة طيبة، ولكنك إذا نظرت إلى قلب القاهرة سوف تجد اسم ميدان الإسماعيلية قد تحول إلى ميدان التحرير - ولا بأس .. وأن شارع إبراهيم باشا قد تحول إلى اسم شارع الجمهورية - ولا بأس .. وشارع الملك فؤاد الأول قد تحول إلى شارع ٢٦ يوليو - ولا بأس .. والملكة نازلى إلى رمسيس - ولا بأس .. وأنصفت القاهرة زعماء مصر مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وأحمد ماهر فأقامت تماثيل لهم فى قلب القاهرة والجزيرة، وكذا فعلت فى رد الاعتبار لطلعت حرب حينما أقامت تمثالاً له بدلا من تمثال سليمان باشا الفرنساوى . وبغض النظر عن تواضع التماثيل

(*) المال ٢٠٠٩/١/١٤

التي أقيمت مؤخرًا فإنها أنصفت بنحو ما شخصيات عظيمة كطه حسين وأحمد شوقي ونجيب محفوظ والفريق عبد المنعم رياض، ولكنها لأن لم تقم تمثالاً لزعيم الأمة مصطفى النحاس، ولا أطلقت اسمه على شارع بقلب العاصمة، مع أنها وضعت أسماء موازية أو أقل من قامة مصطفى النحاس .. فمن القامات العالية التي تزين شوارع قلب العاصمة : محمد فريد، وشریف باشا، وطلعت حرب، وعدلى يكن، وضريح سعد .. وقامة النحاس لا تقل عن هذه القامات ..

لا عذر لمحافظة القاهرة وتوجد شوارع وميادين غير مشغولة بأى تسميات تجد حرجًا من رفعها، وإذا كان ميدان التحرير أو باب الحديد محجوزاً لسبب أو لآخر، فإن ميدان الأوبرا صار اسماً بلا مسمى بعد نقل الأوبرا إلى أرض الجزيرة، ولم يعد يحتل مكانها إلا جراج شوه وجه الميدان، وفي قلب القاهرة شارع آخر يليق باسم مصطفى النحاس هو شارع قصر النيل الذى صار بدوره اسماً بلا مسمى .. فقصر النيل لم يعد له أى أثر، ومن حول الشارع توجد ميادين وشوارع باسم مصطفى كامل ومحمد فريد، وشریف باشا، وعدلى يكن، وطلعت حرب، وعبد الخالق ثروت، ومحمود بسيونى، والفلكى، وضريح سعد، والألفى، ويوسف الجندي، وسليمان الحلبي (نوبريه سابقاً)، وصبرى أبو علم، بل وأطلقت أسماء لقامات أقل بكثير من هذه القامات على شوارع بوسط المدينة العاصمة !

فلماذا إذن نحجب اسم مصطفى النحاس، ولماذا لا نرفع اسم " قصر النيل " عن الشارع المسمى به ونطلق بدله اسم الزعيم الوطنى الكبير مصطفى النحاس ؟! هل يقبل العقل أو يسيع التاريخ أن نتجاهل مصطفى النحاس بينما نرى أسماء أنصاف أعلام بل ومجاهيل تزين أسماؤهم شوارع بوسط القاهرة ؟!

ظنى أن قصر النيل الذى لم يعد حتى أثراً بعد عين، يخرج لنا لسانه من العدم ليقول لنا أن خيبتنا قوية حين لم نجرؤ على رفع اسمه من على

لافتات شارع لم يعد له فيه أو على طرفيه أى أثر، بينما نترك صاحب
المقام الرفيع والزعيم الجليل مصطفى النحاس لميدان جديد بالسويس أو
لشارع بأطراف مدينة نصر؟!

قلت ولا أزال أقول إن إطلاق اسم مصطفى النحاس على شارع قصر
النيل هو واجب لا يحتمل التراخي أو التأخير أو الإبطاء . هو يعطى المثل
للحاضر قبل أن يعطى للماضى أن مصر لا تنسى بنيتها ناهيك عن نسيان
زعيم جليل أعطى الكثير للوطن وهضمنا حقه طويلا !

من

تراب (١٩٤) مرآة الحياة ! (*)

الطريق!

وعى آدمى هو مرآته للحياة، ماضيها وحاضرها ومستقبلها. هذا الوعى تختلف سعته وحجمه على قدر إدراكه لما هو عليه ومعه فى ماضيه وحاضره وتصوره واستشرافه لما سيحدث أو يتمنى أو يخشى حدوثه .. هذا الوعى لا حدَ لنموه كما لا حدَ لضيقه أو ضموره .. يبدأ فى كل آدمى عن جهالة تامة لأنه يولد لوالدين أو محيطين محكوم كل منهما بنسبة وعيه، وينمو منذ الميلاد ومع أطوار العمر وما يصادف آدمى فيها، ثم ينتهى بانتهاء حياته على قدر ما بلغه فى رحلتها من النمو والاتساع أو الضيق أو الضمور .

يستحيل ابتداءً وانتهاءً أن يكون وعى أى حى مطابقاً لواقع الحياة أو لتكوين الكون العظيم .. لأن علم آدمى كل آدمى - طارئ غير تام الصحة ! .. وهذا العلم الذاتى ليس إلّا علماً نسبياً راقبه صاحبه وجربه ونجح فيه، فصاغ نجاحه بلغته أو برموزه أو بهما معاً ليتبعه غيره من البشر .. وقد يتكرر نجاحه أو لا يتكرر .. فالنجاح فى حياة البشر مبناها المتبع الغالب لا يستثنى من ذلك إلّا الحتمى اللازم الدائم .

يحدث ذلك برغم أن كل آدمى غارق مستغرق فى نفسه وذاته ثم أهله، اللهم إلّا باستثناء قلة نادرة .. ووعى هذه الكثرة مشغول بما عند كل منها من حاله وصحته ومرضه وصغره وشبابه ورجولته وكهولته وشيخوخته .. حفى بيومه وغده ومأكله ومشربه ويقظته ونومه ومقره وسكنه .. معنى

(٥) المال ٢٠٠٩/١/١٥

بما له وما عليه بالعمل والبطالة وبالمجهود والراحة، وملتفت إلى الإنجاب
والفقد والوفاق والخصام وإلى الهيئة التى يتخذها عن اعتقاد بأنها تقدم
وتمكن له فى عيون الناس ! .. وتسهل له الانتقال والاتصال .. وإلى ما
يمكنه اغترافه من المتعة والتزين والرياضة واللهو واللعب، وإلى الانشغال
بما لديه أو يطمح فى تحقيقه من القوة والنفوذ والثراء، وما يصنّيه من
الأمل أو اليأس، ومن السرور والبهجة أو الحزن والغم والخوف !

ومن العسير على جمهور الناس وإن طالّت أعمارهم واتسعت مسالك
تبصره وتعمقه - من العسير أن يخلص الحى حياته من غمار هذا الإغراق
أو الاستغراق الدائم التدفق والاتساع الذى لم يفلت منه أحد إلا نادر
النادر !!

لقد تفاقمت فى أيامنا متاعب البشر بترديد أعدادهم التى فاقت تصور كل
من سبقونا، وتفاقمت معها الاختناقات والآلام نتيجة اختلال التوازن الأولى
بين المواليد والوفيات، وتفجرت صراعات وصلت إلى حد القوات والغذاء،
واتسعت الأخطار والأوضاع إلى حد تعريض البشرية للخطر والهلاك ! ...
ولم تعد للأدمى وسط هذا الأتون إلا بوصلة وعيه الذى قد تضلله سيئات
العادات والأفكار والاعتقادات ! هذا الوعي هو صفحة رؤية الأدمى
لطريقه، عليه أن يستخلصه ويقطره وينميه ليمتعه ببصيرة نافذة وقدرة
خالصة على تعمق الأشياء والاهتداء إلى الحق والصواب !

من

تراب (١٩٥)

الخيال رحم (*)

الطريق!

العقل الخصب !

يلحظ المراقب المتابع لأحوال الآدمي، أن اللغة قوام حياته، ووعاء تفكيره، وأداة تواصله .. وأنه صار بفضلها كائنًا خلاقًا .. فيها وبمفرداتها القديمة أو المستحدثة يطلق على ما يتصوره أو يخاله أو يتخيله أو يجده أو يوجد - اسمًا أو أسماء، فيصبح للمسمى عند الآدمي أو الآدميين وجود بطول أو يقصر .. يتعامل معه أو ضده أو بناءً عليه أو أخذًا منه أو رجوعاً إليه !

خذ مثلاً كلمة " الكون " .. تطلق على كل موجود في الحاضر أو كان موجوداً في السالف أو ما سيكون موجوداً في المستقبل .. أين وكيف ولماذا ؟ لا تسأل ولا ينبغي لك أن تسأل . البدائيون استعملوا كلمة الكون أو ما في مدلولها طبقاً لفهمهم وزماتهم ومحيطهم، والمتحضرون في كل حضارة استخدموها دون أن يلفت نظرهم قط أنها تغطي أوسع منطقة من الإبهام والغموض والبعد عن اليقين والتحديد والبعد بالتالي عن الوضوح وإمكان الرؤية الكاشفة المفسرة - بالنسبة للعقل البشري .. حتى عقل علماء الفلك والفيزياء والذرة والكيمياء والرياضة البحتة الآن وإلى مستقبل طويل !

ومع ذلك ترى الكل يستعمل كلمة " الكون " بلا أي تردد : الصغار والكبار، النساء والرجال، في الريف والحضر .. نثرًا وشعرًا .. لا يخلو

منها دين ولا دنيا ولا أسطورة أو علم أو فن . هذه الكلمة حقيقية سحرية
تحتوى على كل ما يجله الناس فى كل عصر وقطر، وكل ما يتصورون
أنهم يعرفونه وهم فى الواقع لا يعرفونه، وكل ما يعتقدون أنه فى ظنهم قد
وقع وهو لم يقع قط، وكل ما يقدرون وقوعه مما لن يقع أبدا !!

ضمن هذه الحقيقة السحرية المفعمة بالغموض والمجهول — ولد ويولد
كل آدمى وليس معه إلا عقل مشتاق إلى المعرفة .. يطفى شوقه إليها
بخياله، ويطفئه فى أكثر الأحيان — بما يخلقه من الأسماء التى لا تجهد
خياله، وكلما عمت هذه الأسماء أو اتسع مدلولها - كانت أطول عمراً وأكثر
انتشاراً وأعصى على أن يكتنبها واقع حياة الأدمى القصيرة المليئة بالهموم
والشواغل !

والفارق فى هذا ليس كبيراً جداً بين من يوجد فى مكتبة حافلة
بأمهات الكتب والمراجع وصنوف العلوم، وبين بسيط يعيش فى حقل أو
ورشة، أو بين السوق .. فقد تظهر الكتب كثافة ذلك الغموض وقد
تريدها، وقد تخفف بعض الغموض خشونة الحقل أو ضجة الورشة أو
سكار السوق !

كان من نتج ما درج ويدرج عليه الناس، أن فقد الخطاب بعامة ما
يجب أن يكون له من ضبط وتحديد، وأن فقدت كثير من الكلمات معانيها،
وانفصمت الصلة بين الكلمة والفعل أو السلوك، وجعلت الكلمات تحل شيئاً
فشيئاً محل الأعمال، دون أن يتقطن القائلون أنهم لا يفعلون شيئاً، وإنما
يقيمون تلالاً فوق تلال من كلام يصير مع التراكم وفقدان الفهم إلى لغو
فى لغو، لا يحدث طحناً ولا يقدم ناتجاً ولا حصاداً !!!

الخيال النشط رحم العقل الخصب .. دونه يكون العقل جهازاً عقيماً ..
يخفق صاحبه فى الائتلاف والمحبة وحسن العشرة والجوار .. وهذا حال
كثيرين من المتعلمين، لأن التعليم والتعلم لا يطلب له ولا يقوم على
إنكاء الخيال وتنشيطه .. ومع كثرة المتعلمين عندنا وعند غيرنا نجد

القادة الأكفاء القادرين على إشعال الحماس والتساند وبناء الود والدأب
طويلي الأجل - قليلين جداً .. بينما نجد زيادة هائلة في أعداد الرافضين
الساخطين ضيقى الصدور والأفكار، المولعين باكتشاف أخطاء الغير
ونواقصهم، المتعصبين المنتصرين دائماً لأرائهم، لأن خيالهم الضيق لا
يمكن أن يتسع لرؤية أخرى خلاف ما استصوبوه واعتقوه !!!
وأعجب العجب إنكار أهل الأديان نشاط الخيال عند الأنبياء أصحاب
الرسالات .. مع أن هذه الصفة وتلك القدرة من عناصر اصطفاء السماء
لهم، ومن أسباب ومقومات نجاحهم فى حمل وتبليغ رسالاتهم وبقائها حتى
الآن حية قابلة للحياة !

من

ترباب (١٩٦)

الطريق!

العناية التي (٢)

تطلبها الحياة !

لا يولد أحد ومعه أفكار . بل يولد ومعه استعداد للانتفاع بها ونقلها وتطويرها على درجات مختلفة في هذا الاستعداد، واختلاف درجات هذا الاستعداد ملحوظ في كل جماعة بشرية كانت أو تكون، وإليه يرجع في الغالبية وجود الكتل ككتل وهبوط مستواها الفكري بالقياس إلى سواها من الطبقات في أي جماعة كانت أو تكون !

وكل مولود يلتقط منذ أن يولد ما ينفعه من الأفكار الجارية في محيطه الذي يتسع باستمرار وعلى قدر ما يهيئه ذلك المحيط ويسمح به، لأن المحيط هو أساساً خزانة الأفكار . وحياة الأفكار هي حياتها ووجودها في محيط . إذ هي لا شيء إلا اكتتاب في رأس المال العام الفكري من هذا أو ذاك خلال انتفاعه بما يلتقطه من الأفكار الجارية في محيطه وأياً كان هذا الانتفاع تأكيداً أو تطويراً أو تنفيذاً أو تعديلاً أو إلغاءً .. بناءً أو هدماً تقدماً أو تأخراً .. صواباً أو خطأ، صدقاً أو كذباً، حلالاً أو حراماً، ذكاءً أو غباءً، علماً أو خرافة !!

وقد يبدو من الرضيع أو الصبي أنه يأخذ ولا يعطي، لكنه بوجوده والتفات الكبار إليه يكتب - في رأس المال العام الفكري، ثم لا يلبث أن يشب ويحاول بدوره أن يفكر مستعملاً ما التقطه وعالجه أو عامله في استخدامه وتجاربه وفهمه .. ويعرض ذلك على من حوله مدفوعاً

(٢) المال ٢٠٠٩/١/٢٠

بالخاصية الأساسية للأفكار وهي حرصها على الانتشار والإذاعة أى على ملء خزانة المحيط .

وفيما يبدو أن الاستعداد الذى يولد مع آدمى لالتقاط الأفكار والانتفاع بها وتطويرها - ليس استعداداً ثابتاً .. إذ ليس فى حياة الأحياء شىء ثابت . ولا أعرف شخصياً إن كان هذا الاستعداد قد أخضع لقياس ما كما أخضع الذكاء أو الغذاء الكافى أو معدل الأعمار أو الاستعداد لبعض الأمراض . فالحديث عنه ما زال حديثاً عاماً غامضاً قليل الجدوى والنفع لواقع آدمى . ولكن ربما كان من الخير أن نلتفت إلى وجود ذلك الاستعداد، وأنه وجود لإمكانية فقط من إمكانيات الحياة الآدمية يحتاج تحققها إلى الوجود فى محيط كافٍ لوقت كافٍ يسمح بالاستمرار والنمو والتطور بعد خروج من الرحم إلى العالم الذى تستعمل فيه الحواس ويتبادل فيه آدمى مع محيطه الأخذ والعطاء إلى آخر عمره ويترك فى محيطه بعد أن يغادره أشياء اكتتب بها وانضافت دون أن يشعر فى الغالب - إلى رأس المال العام الفكرى فى مجتمعه .

لذلك ينبغى حين نحتفى بالأصالة والإبداع والنبوغ والعبقريّة وسعة العلم وفیض الحكمة وندرة الذكاء واجتماع الكفايات - أن ننتبه إلى أننا إنما نصف درجات فى ذلك الاستعداد لالتقاط الأفكار والانتفاع بها وتطويرها وأننا جميعاً نسقى من ماء واحد ويختلف بعضنا عن بعض فى الأكل وأننا جميعاً أحياء وماؤنا الواحد حى يتغير ويتطور كما يتغير ويتطور كل حى وسقايانا منه هى الأخرى تتغير وتتطور أيضاً وباستمرار إلى الأمام أو إلى الخلف !

وعدم رضانا بما يتعين ويحدث باطراد فى حياتنا - قد يبدو أنه شىء يتعارض مع تمسكنا بالحياة وحرصنا عليه، لكن واقع الحال أننا نتمسك بالحياة نفسها كما هى كإمكانيات واستطاعات وآمال ورغبات ومخاوف ولا نتمسك بحوادثها وتعييناتها سواء المنسوبة إلينا أو المعزوة إلى

الآخرين أو الطبيعة .. ويبدأ تمسكنا بها يضعف حين يداخلنا شك قوى
بأن حياتنا ليس فيها أكثر مما تعين وحدث فعلا ورأينا ورآه غيرنا منها
.. عندئذ نبدأ نفقد إيماننا الفطري أو الطفلى بها وبجعبتها التى لا تنفد
وتخبو ثقتنا بأن عندها ما قد يرضينا أو لا بد أن يرضينا بطريقة أو
بأخرى رضا ليس تافها ولا عرضيا ولا وهميا !

ونحن نعيش أغلب الوقت دون أن نهتم بالحكم على حياتنا وقيمتها -
وهى قيمة على كل حال مهما كانت، وهذا قد يفسر إنفاقنا وبعثرتنا وتبديدنا
لها كيفما اتفق بلا حساب ولا غاية وترك الآخرين يدفعوننا إلى إنفاقها
وتبديدها بلا عناية ولا احتفال كأن فكرة الجدوى غير أصيلة بالنسبة للحياة
.. ولكن الخلط بين الجدوى وبين العناية غير معقول بالنسبة للحياة ..
فالحياة تستلزم العناية بها، وإذا كانت الجدوى سؤالاً لا تسأله الحياة
الطبيعية وإنما يسأله عقل الإنسان فقط - فإن العناية تتطلبها الحياة والطبيعة
وتلاحظانها فى أدق الأشياء وأكبرها !

من

تراب (١٩٧) هل التفتنا إلى ذواتنا ! (*)

الطريق!

منذ أن وجدنا على هذه الأرض - يبدو أنه لم يكف بعضنا عن بعض نقداً أو لوماً أو عتاباً أو عقاباً بشأن وجه أو آخر من وجوه ذلك الاستغراق .. لكنه نقد موجه دائماً إلى الغير .. لا يشمل قط نقد الناقد لذاته أو لمن هم في حكم ذاته .. ولذا بقى هذا النقد الذى لا ينقطع - قليل الجدوى عديم الأثر !

لم نحاول حتى الآن صرف أو تركيز هذا النقد إلى ذواتنا .. لأننا نخشى أن نتعرى أمام أنفسنا أو فى عيون الناس فتسقط قيمتنا ومهابتنا فى نظر مجتمعنا .. وقد نخشاه ونتجنبه خوفاً على ما لا يزال معنا مما اغتتمناه أو نأمل فى اغتنامه مما يستوجب ذلك النقد المر !!.. أو لأننا لم نعد نؤمن بالنقد ونرى أن حياة العاقل ليست إلا مهارة وشطارة بعيدة عن القيم التى نعتبر الاحتياج إليها سذاجة وغفلة !.. وهذا يؤس نهائى من إنسانية الإنسان ومستقبل البشرية .. لم تعد الجماعات والأفراد يحسون بضياعه إحساساً كاملاً !.. إذ يغلب الغيظ والتشاؤم والقلق وإساءة الظن والحقْد وضيق الصدر مع عدم القدرة على الالتزام بالاتفاقات أو المبالاة بالتعهدات!

وقد جرى البشر مع عامة الأحياء على بدء كل شىء من البدايات إلى النهايات، ولم يتصوروا قط أن يكون البدء من النهايات انحداراً منها إلى البدايات ثم الانقلاب إلى العكس . لم يتصور البشر هذا التبادل المطرد مما حسبه بداية إلى نهاية أخيرة رغم أن النهاية قد يعقبها عودة إلى بداية ..

(*) المال ٢١/١/٢٠٠٩

يحدث هذا دواليك فى الكون العظيم حيث يسقط فيه دائما معنى الزمان
والمكان الذى ننشئ به نحن الأدميين الفانين الذين لم نفهم بعد ما هى
الأبدية والألوهية كما لم نفهم حقيقة دنيانا !

والجهل لايفارق الأحياء فى هزل أو جد .. ولولا الجهل ما عاش
الأحياء على الأرض حتى الآن .. ولا غرو فإن كل حى كبر أو ضؤل يبدأ
حياته من جهل شامل مطبق يتحسس طريقه ليتعرف على استعداداته فيها
تدرجياً .. يستمر حياً إلى النهاية المكتوبة له .. واستعداداتنا أكثر مما لدى
غيرنا من باقى ما نعرفه من الأحياء الأخرى .. فنحن برغم طفولتنا
العارية البكماء - أوسع حيلة وأقوى إدراكاً وذكاءً وأشد تعقيداً فى
الاختيارات والإرادات والملاذ والشهوات، وأبعد نظراً فيما نحب ونكره
ونريد ونرفض ونبنى ونهدم ونصدق ونكذب، وأفسح مجالاً ونطاقاً فى
التصور والتطلع والأحلام والآمال وفى عكسها .. معنا ماضٍ وحاضر
ومستقبل، ومعنا أيضاً مذى لأعمار واحتمالات لحظوظ لا حد لحسنها أو
سوءها ربما بقيت امتداداتها وآثارها بعد زوال صاحبها !

فأياً كان رصيد الأدمى من علم أو طبقة أو سن أو قوة بدنية أو عقلية
أو ميل جارف أو متزن، فإن رصيده من هذا أو ذاك فيه جانب ضخم من
الأوهام والمعتقدات والمنحيات والمقربات والطارادات والتعلق الذى لا يهدأ
والأرواح والشياطين والقراءات والأدعية والكتابات والزيارات والنذور
والأماكن والبقاع المباركة فى محيطه وفى تصوره أو المؤثرة المجدية
عنده لأغراضه .

وحين يفيق أى منا إذا أفاق إلى كمية هذا الوسط الجاهل وإلى آثاره
فى الصغير والكبير وغير المتعلم والمتعلم - تهوله صلابة ومرونة الحياة
التي زود بها الأحياء بلا تفريق، كما يهوله بقاء البشر حتى الآن بأنواعهم
وألوانهم يتبدلون ويتغيرون دون تمنع أو اعتراض . الكل يختلف ويأثلف
باستمرار - حضراً وريفاً غنى وفقراً قوة وضعفاً ذكورة وأنوثة تحضراً
وتأخراً !

من

تراب (١٩٨) الخداع الضير! (*)

الطريق!

من الظواهر المؤسفة أن يقع الأفراد أسرى جدوى الأكاذيب والخداع .. وأن يظنوا أن المهام والأعمال والإنجازات والحقائق والأدوار تتجزز بالدعوى والمخادعات مهما بلغت من التفاهة والتهافت والتنافر والافتضاح . تابعت من أيام مشهدا غريبا إدعى فيه متقول لم يدرك أن الناس تفهم وتعى، أنه لا بأس من اختيار وانتقاء وترسية بالأمر المباشر لجهة وحيدة فى عطاء كبير لجهة أموالها أموال عامة، وشأنها شأن عام، وأن البأس لم يأت هذا التصرف الجانح من قريب أو بعيد مادامت الشركة المختارة المنتقاة بالأمر المباشر هى فى نظره فوق مستوى الشبهات لأنهم تتبع فيما يرى جهازاً حساساً كبيراً من أجهزة الدولة !

وفات هذا المنطق المخادع الضير، أن أولى شبهات التريب للنفس تأتى من هذا المنطق، فجريمة التريب التى أتمتها المادة /١١٥ عقوبات تعاقب على كل ربح أو منفعة للنفس أو للغير، وللمنفعة معنى يجاوز الربح المادى إلى كل منفعة قد تكون مادية أو معنوية أو أدبية، أو جالبة لمكانة أو لنفوذ أو لمزايا وتقدير وصلات ومكانات ومحبات، ولذلك لا يوجد فى مكانة الشركة المختارة المنتقاة المكلفة بالأمر المباشر - بفرض هذه المكانة - ما يدرأ الشكوك فى قصد الاستفادة الشخصية من الترسية أو يحجب أغراض التريب للنفس بالحصول على المنافع الأدبية والمعنوية فى مثل هذه الأحوال !

(*) المال ٢٠٠٩/١/٢٢

هذه واحدة !!

والثانية أنه فى مقابل التبرج للنفس أو للغير، يوجد احتمال الإضرار بالمال العام .. فاستقامة الترسية بالأمر المباشر، وهذا غير جائز مادامت مخالفة للقواعد والأصول، لا يدرأ بذاته احتمالات الإضرار بالمال العام .. فتعدد العطاءات الذى تتيحه المناقصات أو المزايدات حسب الأحوال، هو الذى يحقق المنافسة الجادة الحقيقية بين العطاءات، فيصب فى صالح الترسية بأفضل الأسعار وأقلها فى حالة المناقصة وأزيدها فى حالة المزايدة . والاختيار بالأمر المباشر مهما كانت عناصره، هو حجب غير مشروع ومؤثم للتناضل والتنافس الحر بين أكثر من عطاء فى إطار إجراءات شفافه تضمن تحقيق أكبر العوائد للمال العام وتقيه من الإضرار الذى يتسبب فيه بالتأكيد أسلوب الاختيار والانتقاء والترسية الانفرادية بالأمر المباشر !

أغرب الغرابة أن يجرى هذا الحديث الطائش من رجل قانون أو يقال لرجال قانون، ظنا أن الدنيا قد ساد فيها وماج حوار الطرشان ولم يعد أحد يبالى بما يقال ولا كيف يقال ولا بأى أسلوب ومنطق يقال ويجدف به تجديفا مؤسفا فى المنتديات وعلى شاشات الفضائيات لتعم ثقافة الجهالة والخداع، ويضيع الفهم والوقار وسط الضجيج والصخب والشعارات !!

من

تراب (١٩٩)

منطق النعامة ! (*)

الطريق!

صار أسلوب النعامة فى إخفاء رأسها فى الرمال، دالاً فى جميع الأحوال على خيبة تصور أن محاولة الخفاء تتطلى على الكافة مهما كانت محاولتها فاشلة مفضوحة ! كنت أحاجى على الهواء نصاً معيباً شارداً أعطاه من لا يملك تطوعاً من وراء ظهر أصحاب الدار إلى السلطة التنفيذية مانحاً إياها فى شخص السيد وزير العدل سلطة الترخيص للمحامين الأجانب بالعمل فى مصر، وفى سابقة غير مسبوقة سحبت السلطة من مجلس نقابة المحامين الذى عليه أن يوازن مصالح وحقوق المحامين المصريين قبل أن يرخص لمحام أجنبى بالعمل فى مصر، ليعطى المعطى هذه السلطة بالترخيص لوزير العدل شاملة كل الأجانب بلا قيد ولا استثناء !! وتشمل بذلك المحامى الإسرائيلى والأمريكى والإنجليزى والفرنسى !!

ولكن المتطوع من وراء المحامين بإعطاء نص لا يملك إعطاءه ولا التفريط فى حقوق النقابة والمحامين، تؤهم أن المكابرة بمنطق النعامة تجدى .. فادعى على خلاف النص والحقيقة الواضحة فيه أن ترخيص الوزير مشروط " بموافقة " النقابة، وكانت هذه كذبة نكراء، فالنص البذى كنت أحمل الجريدة الرسمية التى تضمنته لم يورد بتاتاً شرط " الموافقة "، ولم يتفضل إلا بلفظ هلامى مطاط عن " تنسيق " يطلق دوماً من باب " السبوبة " وإبراء الذمة لتمرير ما لا يجوز تمريره !!

(*) المال ٢٠٠٨/١/٢٦

ترى ما الذى يدعو أحداً أن يتصور أن الناس بدورها ستساير مراده ولا ترى ما يريد إخفائه ولا يريد أن يراه الناس؟! لقد رأى المحامون والمتلقون أن اللفظ المستخدم فى النص غير-الادعاء المزعوم، ثم تابعوا بعدها محاولة أخرى لإخفاء المصيبة الثانية والأدهى على منطق النعامة! فالمتطوع بغير حق قام بإعطاء سلطة الترخيص - بمشروعه الانفرادى! - للسلطة التنفيذية التى تختلف مفرداتها وتوجهاتها بالتأكيد عن نقابة المحامين .. فالحكومة ملتزمة بالتطبيع، ونقابة المحامين والمحامون يرفضون التطبيع!!.. والسيد المتطوع المانح يتجاهل ثانية أن سلطة الترخيص التى أعطاها - وهو لا يملك! - للسلطة التنفيذية ممثلة فى السيد وزير العدل، لا قيد عليها ولا تخصيص، تشمل المحامى الإسرائيلى كما تشمل غيره من المحامين الأجانب، ولكن صاحب منطق النعامة يتوهم للمرة الثانية أن الناس والمتلقين والسامعين لن يسمعوا إلا صوته المتهدج عن الأمريكى والإنجليزى، ولن يتنبهوا إلى الإسرائيلى!!.. لم يكن هناك بدّ أمامى من أن أردد وأكرر لفظ "الإسرائيلى" لسمع الناس كلمة إسرائيلى التى يريد الفاعل ألا يستمعوا إليها ويريد أن يطمس عليها .. لأن انكشافه يعرى كذب المواقف العنصرية التى يفتعلها ضد التطبيع!! بينما يعطى سلطة الترخيص للمحامين الإسرائيليين بالعمل فى مصر، وضارباً عرض الحائط بموقف نقابة المحامين وقراراتها وحقوقها ومصالحها وتوجهاتها ورفضها للتطبيع وممارسة الإسرائيليين عمل المحاماة فى مصر!!!

فهل أجدها مسلك أو منطق النعامة؟!

ظنى أن خيبة محاولة الإخفاء، جاءت بمردودين عكسيين آخرين .. خيبة المحاولة، واقتضاح أمرها وارتدادها سلباً موجعاً على صاحبها الساعى للمغالطة والتخفى والإخفاء!!

من

تراب (٢٠٠) ومع ذلك فإنها تُدْفَع؟! (*)

الطريق!

من شهور كتبت هنا، وفي الدستور على ما أذكر، تعقيبا على من أنكروا أن حقوق الإنسان في مصرنا مهیضة، مقولة جاليليو الذى جعل يتم بها وهو خارج من قاعة محاكمته بتهمة الهرطقة بعد أن أجبروه أن ينكر دوران الأرض والشمس .. فطفق يقول : " ومع ذلك فإنها تدور " ! الذين يهددوننى بمحاكمتى عن القذف لأنى كثفت ما لا يباح، أقول لهم إن ما كشفتته يعلمه القاصى والدانى ويعرفه الآن جميع محامى مصر .. لم أكشف به سرا، ولم أدع كذبا، وسوف يضحك المحامون ملء أفواههم وأكمامهم حين يقرأون التصريح العنترى عن العدول عن اتهامنا بالقذف لأن الكبير كبير أو لأن الآخر مترفع عن مقاضاتنا ! .. عن ماذا يأسادة !!!

ألا يعرف المتفاصحون أن ما تناولته صحيح يعرف جميع المحامين وأهل القانون أنه يدخل فى دائرة الإباحة بل والواجب .. ومن أوسع الأبواب !؟

هل يظن المتفاصحون أننى أخاف ؟! . لو خفت ما قلت ! .. وسأظل أقول ما أراه ويلمسه ويقبضه القاصى والدانى ويأسون به على حال المحامين والمحاماة المروم أخذهما إلى بعيد بعيد !!

(*) المال ٢٧/١/٢٠٠٩

ما منظر المنكر أمام المحامين حين حاول وأنكر الحق الأبلج
الواضح المعلوم للكافة ؟! .. هل أدى تصريحه العنتري المخيف المرهب
إلى إرهابي ؟! هب أنه أرهبنى، فهل نال قبولا وتصديقا من المحامين
الذين يعرفون برغم إنكاره العنتري أن الواقع يكذبه وأن سداد الاشتراكات
والتهينة والضغط لاختيار وفرض المراد - جاريان على قدم وساق ؟!

كان الأجدر بالمتسمى بلقب مسئول الملف، أن يقتصد قليلاً فى إبداء
عواطفه وهواه أو هوى من يريد، فهو قد أوضحه، وموقفه وصاحبه
وزميله بالقائمة المراد فرضهما معروف، ولم يسأله أحد عن عواطف
أخرى قريبة أو غير قريبة إلى قلبه يتفضل بها على من ينعم سيادته عليه
من عباد الله !

إن المكابرة بنفى الثابت المحقق المعروف، تنسف المصادقية تماماً
ولا تجدى المكابر بل تتقلب عليه ! .. وهكذا فعل المنكر بنفسه وبمن معه
وبمن وراءه دون أن يدري !

للمهدين بمحاكمتى أو الترفع عنها عن القذف لقاء ما كشفته عن
سداد الاشتراكات واقترائه بالوعد والوعيد والضغط لانتخاب وفرض
النقيب المطلوب فرضه . أقول لهما " يا ألف ميت مرحبا " ..! سيري
القاصى والدانى فى مصر المحروسة أننى ما انفعلت إلا غيرة ومحبة
وأمانة وإخلاصاً من أجل الحق والمحاماة والمحامين ونقابة المحامين !! ..
وسيري القاصى والدانى - وهم يرون الآن ما كشفته - ويضحكون ملء
أفواههم وأكمامهم من التهديدات العنترية ويتابعون سداد الاشتراكات
ولقاءات الوعد والفرض جارية على قدم وساق .. يرون ويضحكون ملء
المرارة التى نضحك ونأسى لها جميعاً، ولسان حالهم وحالى يقول عن
سداد الاشتراكات للوعد والضغط .. مقالة جاليليو : " ومع ذلك فإنها تسدد
وتدفع " !!!

من

تراب (٢٠١)

من المتسبب؟! (*)

الطريق!

الحديث الدائر الآن عما وجد بجداول وكشوف الجمعية العامة للمحاميين في مصر، ليس حديث دعوى قضائية رفعت، فالدعاوى ترفع وتقبل أو ترفض، ولا عبرة لها ولا قيمة ولا جدوى منها إذا رفضت، وتذهب برفضها إلى زوايا النسيان، فلا هي قدمت طحنا، ولا حققت غاية أو غرضا !

فإذا قبلت الدعوى، انعقدت القيمة والحجية والأثر في " الحكم " الصادر بقبولها . الحكم يكون هو عنوان الحقيقة وحجتها، وهو المحك والمحز والسند والقوة . ترك الحكم لتوجيه ملامة إلى دعوى يقرر الدستور حق استعمالها، تماحك ومغالطة وتشويش وعبث أشد من العبث والتلاعب المؤسف الذي وجدته محكمة القضاء الإداري بنفسها في الجداول والكشوف . المحكمة لم تقض بوقف القرار المطعون فيه مجاملة لدعوى أو رافعيها ! وإنما إقراراً لواجب رأت من واقع بحثها القضائي النزيه أنه لازم لحماية انتخابات المحامين من العبث والتلاعب والتزوير !

تقول مدونات الحكم الذي أصدرته محكمة القضاء الإداري في ٢٠٠٩/١/١٥ في الدعويين ٤٣٦٩، ٦٣/٨٧٠٤ق إنها شكلت منها وبرئاستها لجنة قامت بنفسها بالانتقال إلى نقابة المحامين، وبحثت وناظرت بنفسها ما وجدته بالجداول والكشوف، وبالهول ما رأت وأثبتت في تقريرها الأول ٢٠٠٧/١٢/٢٧ أن القيد من رقم ٣٨٣٩٧٢ حتى ٣٩٠٥٣٣ لا يزال

(*) المال ٢٨ ، ٢٩/١/٢٠٠٨

قائما رغم حكم بطلان انتخابات مارس ٢٠٠٥ الصادر بجلسة ٢٠٠٨/٢/١٠، وأن الجداول لم يتم تنقيحها أو تصويبها أو تصحيحها عن أخطاء كثيرة مثل : (أ) كثيرون - مقيدون بجداول نقابات فرعية لا تقع في دائرتها محال أعمالهم (ب) كثيرون - مقيدون لم يسددوا اشتراكات عن الأعوام السابقة لعام ٢٠٠٨ (جـ) متوفون توفوا دون أن يتم حذف أسمائهم ! (د) كثيرون - ما زالوا مقيدين دون أن يتم حذفهم برغم زوال عضويتهم !

على أن اللجنة - المحكمة ذاتها - لم تغادر النقابة إلا ومعها كما سجلت في مدونات حكمها وتقريرها - معها إقرار قضائي صادر من المختصين بالنقابة العامة، أقروا فيه كتابة ونصا بأن : " هناك أخطاء واردة في كشوف جداول قيد السادة المحامين سواء في عناوين أماكن أعمالهم أو في النقابات الفرعية التي ينتمون إليها وآخرون توفوا إلى رحمة الله برغم بقاء أسمائهم مقيدة " !!

ختمت اللجنة - المحكمة ذاتها - مهمتها في ٢٧/١٢/٢٠٠٨ بأن أثبتت :
١ - أنه لم يتم للآن إعداد كشوف الناخبين " أعضاء الجمعية العمومية " الذين لهم الحق في الإدلاء بأصواتهم في انتخابات النقابة العامة للمحامين المقررة يوم الأحد ١٨/١/٢٠٠٩ .
٢ - أنه لم يتم تنقية أو تصويب أو تصحيح جداول القيد بالنقابة العامة للمحامين حتى تاريخه .

هذا الحديث حديث حكم ومحكمة، وليس حديث دعوى . وما فجرته المحكمة في مدونات حكمها وتقريرها هذا الأول (٢٧/١٢/٢٠٠٨) - يطرح وسيظل يطرح سؤالاً فحواه : " ما الذي إذن كان يجرى في جداول وكشوف نقابة المحامين منذ فبراير ٢٠٠١ حتى آخر يونيو ٢٠٠٨ " ؟!
وهل كان القائم القاعد بالنقابة ينتظر عام ٢٠٠٨ لجنة قضائية مؤقتة لمهمة عارضة في خلال ستين يوما لتقوم هي بتنقية وتصويب وتصحيح ما تراكم

بفعل فاعل على مدار ثماني سنوات ؟!

دعونا ننتظر ماذا قالت محكمة القضاء الإداري في مدونات حكمها

كما كشفه تقريرها الثاني !!

* * *

في تقريرها التكميلي الثاني (٢٠٠٩/١/١١) برئاسة رئيس المحكمة التي أحالت عليه في حكمها الصادر ٢٠٠٩/١/١٥، أضاف الحكم للتقرير الأول : (أولا) وجود القيود الخاطئة سالفة البيان بالتقرير الأول. (ثانيا) عدم وجود جدول مستقل لمحامى الإدارات القانونية الخاضعين للقانون ١٩٧٣/٤٧ طبقا لحكم المادة / ١٠ من قانون المحاماة ١٩٨٣/١٧ . (ثالثا) أن هذه الكشوف لم يتم إعدادها بمعرفة اللجنة التي توجبها نصوص المادتين ١٢، ١٦ من قانون المحاماة ١٩٨٣/١٧ والمادة / ٦ من القانون ١٩٩٣/١٠٠ - وإنما من خلال لجنة إدارية بتشكيل مغاير لما يوجبه القانون، وغير معتمدة . (رابعا) أن هناك عددا من المحامين بالقاهرة والإسكندرية لهم محل عمل معلوم قد تم قيدهم بكشوف الناخبين بصورة مجهولة دون تحديد المركز الانتخابي . وذكرت المحكمة في تقريرها الذى اعتنقته مدونات حكمها أمثلة لهذا على سبيل المثال لا الحصر : بعضها فى محافظة القاهرة وبعضها فى محافظة الإسكندرية . (خامسا) بعض المحامين الخاضعين لقانون الإدارات القانونية ١٩٧٣ / ٤٧ لهم مكان معلوم ومع ذلك تم قيدهم بمحافظات أخرى (؟!!!) مغايرة لمقار عملهم بحجة أنهم خاضعون للإدارة العامة للشئون القانونية بالفرع الرئيسى (؟!!!) وذكرت المحكمة أمثلة لذلك على سبيل المثال لا الحصر . (سادسا) تم تغيير الموطن الانتخابي لمحامين برغم أنهم لم يتقدموا لتغيير محال أعمالهم، وذكرت المحكمة أمثلة لذلك على سبيل المثال لا الحصر، وبعضها فى صورة صانخة من المحال بتبريرها واقعا أو قانونا !!

إن ما سجلته المحكمة - وليس الدعوى - في مدونات تقريرها الذى اعتنقه حكمها، أن " كشوف الناخبين " - وليس محض جداول القيد ! - أعضاء الجمعية العمومية وجدت " غير منقحة " على النحو الذى حدده القانون رغم إقرار الحاضر عن النقابة بأن تلك الكشوف قد تم تنقيتها وتنقيحها !

الحكم إذن، وهو عنوان الحقيقة، هو الذى رصد وحكم على مقتضى ما رصده من كوارث بجداول القيد وكشوف الناخبين أعضاء الجمعية العمومية للمحاميين، ومن ثم كان الحكم بوقف قرار الانتخاب المطعون فيه حكماً لازماً وضرورياً وواجباً توجبه أحكام القانون ومقتضيات نزاهة وشفافية الانتخابات التى كان مروماً ومديراً أخذها لجولة أخرى على الأوسع مما تم التزوير به وفيه وأبطله حكم محكمة القضاء الإدارى الصادر ٢٠٠٨/٢/١٠ .

هذا القضاء هو إذن قضاء حكم ومحكمة، وليس محض حديث دعوى كانت ستفرض لولا ما استبان للمحكمة وسجلته فى حكمها ! وتبعت صدور فاكسات تأتى تباعاً من الفرعيات عن وفيات لا تزال بالكشوف، وأخرى لمن تركوا المحاماة، وثالثة لمن يعملون بخارج البلاد !

والسؤال :

ماذا كان يجرى ؟ ضبط للجداول والكشوف - أم عبث وتلاعب فيها ! - على مدار ثماني سنوات من أول ٢٠٠١ حتى يونيه ٢٠٠٨، بينما التعامل مع جداول القيد وما يتبعها من كشوف تعامل يومى يستوجب المبادرة وفوراً برفع الوفيات وتاركى العمل بالمحاماة وغيرهم ممن يوجب القانون رفع أسمائهم . هذه واحدة، والثانية : ما هى علة تغيير العناوين رغم تأثير ذلك على العملية الانتخابية برمتها وعلى أنصبه الجمعيات العمومية للفرعيات ونصيب كل منها من العضوية الممثلة فى المجلس تبعا لتعدادها

الذى جاء به التعديل الكارثى الرقيم ١٩٧/٢٠٠٨، ثم ما هو أثر هذا العبث بالآلاف بنقل ١٦ ٠٠٠ صوت إلى محال مجهولة غير محالهم المعلومة؟! أليس هذا العدد هو الجارى التباهى المغلوط به عن انتخابات ٢٠٠٥؟!؟

ماذا إذن كان يفعل القابع لثمانى سنوات بالنقابة العامة التى أهدرت كل حقوقها .. وهل كان منذ أول ٢٠٠١ ينتظر من يسند فى ٦٠ يوما خانات ما تراكم من عبث وتلاعب على مدار ثمانى سنوات لايعرف أسرارهِ إلاّ صانعوه؟!؟

من الذى يتحمل إذن هذه الأوزار؟!؟

ومن الذى أخذ ويأخذ نقابة المحامين إلى النفق المظلم؟!؟

من المسئول عن كل هذا الركام يا سادة ياكرام؟!؟

من

تراب (٢٠٢) تطيرز الكوارث بالقانون ! (*) الطريق!

ابتدع القانون ٢٠٠٨/١٩٧ الذى قدمه واحد بعينه من وراء ظهر المحامين - ابتدع بمقتضى المادة ٤٦ مكرراً المضافة، وفقرة أضيفت للمادة/٧١ من قانون المحاماة ١٩٨٣/١٧ - ابتدع ما يسمى ترخيص مزاولة للمحاماة، يمنحه أو يحجبه مجلس نقابة المحامين للمحامى، فإن أعطاه إياه - حدد فيه مدته، والتي لا تجدد إلا بمنحة أخرى من مجلس النقابة الذى يملك المنح والحجب وميقات المدة، وعلى المتضرر أن يلجأ إلى القضاء ويتوقف عمله ويغلق مكتبه ويدمر عمله ويتبعثر عملاؤه وموكلاه وتتساقط قضاياه حتى ينصفه القضاء من سيف المجلس ومن السيف الذى اتخذته النصاب للذان أعطيا لقاضى الأمور الوقتية - بناء على اقتراح مجلس النقابة - سلطة الأمر بغلق مكتب المحامى ونزع وإزالة لافتاته ومنع تداول أوراقه أمام المحاكم ومكاتب الشهر العقارى وما شابه !!

المصيبة الأكبر، أن مقدم هذا التعديل الكارثى لقانون المحاماة، قد عدل فيه أيضا نص المادة ٢٢٧ محاماة وفرض فيه عقوبة الحبس شهرا وغرامة من ألف إلى ألفى جنيه على المحامى إذا زاول أى عمل من أعمال المحاماة خلافا للأمر الفرمانى الذى يصدره قاضى الأمور الوقتية بناء على اقتراح مجلس النقابة . فلو أصدر قاضى الأمور الوقتية - مثالا لا حصرا -

(*) المال ٢٠٠٩/٢/٢

أمرًا بالغلق ومنع تداول أوراق المحامى، وكان فى عهدة المحامى طعن بالنقض يلتزم بتقديم أسبابه ولم يبق فى مدتها إلا ثلاثة أو أربعة أيام، فإن عليه أن يمتنع عن تقديم أسباب الطعن ويعرض مصالح موكله للضياع والدمار والرجوع عليه هو بالتعويض - وإلا تعرض للحبس والغرامة لأنه قدم الطعن بعد يوم أو يومين أو ثلاثة أو أربعة من صدور أمر قاضى الأمور الوقتية بغلق مكتبه بناءً على اقتراح مجلس النقابة تطبيقاً للنصين الكارثيين اللذين تقدم بهما شخص بعينه ومن وراء ظهر المحامين وخلفاً لكل الأصول والقواعد والأعراف !!

هذه النصوص التى تأخذ المحامى إلى غيابة السجن، لا تخدم المحاماة ولا المحامين، وإنما تبغى تعقيمهم وإخضاعهم لمجلس النقابة قضاءً على " حرية " المحامى والمحاماة، والأدهى أن هذا الباب مفتوح أيضاً لكافة السلطات وغيرها التى قد تريد ملاحقة المحامى جزاءً أو كيداً أو انتقاماً . فالمحاماة تحمل المحامى بخصومات، فيتعرض إذا أخلص وأتقن فى دفاعه - لعداء وملاحقة خصوم موكله، فيتعبه الظالم إذا دافع عن مظلوم، ويلحقه الأقوياء إذا دافع عن الضعفاء والمقهورين، وتتربص به السلطات الأمنية إذا كشف عدم مشروعية إجراءات القبض والتفتيش أو أفعال الإهانة والتعذيب . وقد يكون التعقب أوسع وأعرض وأثقل لو أبدى المحامى دفاعاً مخلصاً صادقاً فى قضية سياسية تكره السلطات كشف وبيان ما شاب إجراءاتها من تجاوزات !

لا سبيل لكل هؤلاء الخصوم الراغبين فى ملاحقة المحامى بكيدهم أو انتقامهم - لا سبيل لهم لتحقيق أغراضهم بالسبل القضائية إذا التزم المحامى حدود الدفاع التى نصت عليها المادة / ٣٠٩ عقوبات، أما ترخيص المزاولة فهو باب هلامى مطاط مفتوح على الواسع بلا ضوابط، وتكون المصيبة حين يستعمله مجلس النقابة نفسه لتتبع المحامين وتحكيم هواه ومحباته وكرهاته وخصوماته، وتكون هذه المصيبة أكبر وأدهى حين يطاءى مجلس ما فى وقت ما للسلطات ولذوى الجاه والنفوذ والمال

والشوكة الراغبين فى إيذاء المحامى جزاءً لإخلاصه فى أداء واجب الدفاع عن موكله !

لا محل لإساعة أو قياس هذا الترخيص الكارثى بعواقبه المدمرة - على ترخيصات المزاولة فى الطب والجراحة . فحامل بكالوريوس الطب يقيد بنقابة الأطباء، ولكن مزاولة الطب والجراحة تستلزم تَمْضية فترة امتياز ثم فترة نيابة بضوابط وشروط، ولا سبيل لممارسة التخصصات الدقيقة كجراحات القلب أو العيون أو الأنف والأذن والحنجرة أو المخ والأعصاب أو المسالك البولية أو الكبد أو العظام - إلا بشهادات وتدريبات عليا أخرى خلاف البكالوريوس وفترة الامتياز . أما المحامى فيندمج ترخيص المزاولة مع درجة القيد، فيكون مرخصا للمحامى المقيد أمام المحاكم الابتدائية فى مزاولة المحاماة أمامها وما يعادلها، وهكذا فى الاستئناف وفى النقض الذى يرخّص للمحامى المقيد به بمزاولة المحاماة أمام محكمة النقض وما يعادلها من دستورية عليا أو إدارية عليا أو قيم عليا . وهكذا.

ترخيص المزاولة حيلة شيطانية لإخضاع المحامين والسيطرة عليهم ونسف حريتهم وجعلهم فئة من التابعين يشار إليهم بالمراد فيأتمرون ويطيعون، وإلا كان حجب ترخيص المزاولة ونسف عملهم ومصدر رزقهم هو جزاؤهم، وكانت مخالفته منزلقاً لحبسهم وتغريمهم بنصوص المواد الشيطانية : ٤٦ مكرراً، والفقرة الأخيرة للمادة /٧١، والمادة ٢٢٧ للقانون ٢٠٠٨/١٩٧ الذى قدمه من انفراد بتقديمه من وراء ظهر المحامين نسفاً وتدميراً لحقوقهم وللمحاماة !

ألا هل بلغت . اللهم فاشهد !

من

تـرـاب (٢٠٣) سـمـك لـبن تـمـر هـنـدى ! (*)

الطريق!

سمك لبن تمر هندي، مقولة يوصف بها كل تصرف ناب عن المؤلف أو مغرق في الخلط والتخليط أو بعيد عن العقل والمنطق وبدائه الأمور ! كان ظني أن هذه الوصفة يمكن أن تصدق على أى شيء إلا التشريع. فالتشريع له أصول ومبادئ وقواعد وضوابط لا يتقنها إلا رجال القانون العارفون بلغته وأحكامه المخلصون في مقاصدهم وتوجهاتهم، فإذا ترك التشريع للهواة أو أصحاب الأغراض، أمكن أن يطوله شر مستطير وأن تقع عناصره في هاوية : سمك لبن تمر هندي !

كنت أعرى خيبة وهوى وأغراض إقحام البطاقة الضريبية على قانون ونظم الحمامة لتكون شرطا تعسفا للقيد والعلاج والمعاش والخدمات، فادعى صاحب النص الذى قدمه بليل من وراء المحامين أن المقصود به صد غير الممارسين عن التمتع بالمزايا والخدمات، وأنه أراد أيضا أن يحمى المحامين من التهرب الضريبى الذى لا سبيل للتهرب منه، خالطاً بين البطاقة الضريبية والملف الضريبى من ناحية، وبين أيهما وبين المحاسبة الضريبية التى لا تتعلق لزوماً بالبطاقة الضريبية التى فرض تقديمها وجوباً للقيد الابتدائى للعلاج والمعاش والخدمات !

وهذا التعلل ظاهر الكذب والبهتان، فبقانون الحمامة آليات تمنع دخول غير المستوفى الشروط، وتستبعد وتشطب من يجنح أو يعمل بغير

(*) المال ٢٠٠٩/٢/٣

المحاماة، وهذا يحقق الغرض المتذرع به دون حاجة لفرض البطاقة الضريبية فى القيد والعلاج والمعاش والخدمات !

هذه واحدة، والثانية أن المحامى وشأنه فى إدارة عمله وضرائبه، لا وصاية عليه من أحد، ومنطق " الوصاية " يأباه المحامون وتأباه المحاماة ذاتها .. الوصاية على المحامى مرفوضة ناهيك عن أن تستغل أسوأ استغلال للتضييق عليه فى حياته وعمله ومرضه وعلاجه ومعاشه وحقوقه وخدماته . والثالثة أنه ليس صحيحا أن المحامى مدع فى كل الأحوال مطالب بإبراز البطاقة الضريبية، فقد يكون وكىلا عن مدعى عليه أو عن متهم، وطلب البطاقة الضريبية هو شأن الجهة الإدارية وليس شأن نقابة المحامين لتقرضه على المحامى فى القيد والعلاج والمعاش والخدمات . أما الرابعة فإن آليات النقابة وقانون المحاماة تغنى عن أن تفرض النقابة ما ليس لها، والخامسة أن حمل البطاقة الضريبية ليس دليلا بذاته على الممارسة، فقد يجنح جانح بل ويتردى فى الإجرام ويستمسك بحمل بطاقة ضريبية تنسبه إلى المحاماة ليستعيد بها للإقلاات من جرمه كما يفعل تجار المخدرات الذين يحتفظون بعقود ويمستخلصات صورية للتساند إليها فى نفى الإتجار بالمخدرات أو الآثار أو السلاح !!

هذه هى الخامسة، والسادسة أن هذا المنطق الكسبح يعرض المحامى للموت بلا إنقاذ إذا لم يكن معه بطاقة ضريبية وتعرض لحادث طريق أو انهيار مبنى أو حادث قطار أو أزمة قلبية أو دماغية، ويعرض حقوق وراثته ومستحقه فى معاشه للضياع !

بقيت خيبة قوية أخرى فى فرض البطاقة الضريبية شرطا للقيد الابتدائى المستحق بعد سنتى تمرين . هذا الفرض الذى أورده المادة ٣١ التى عدلها صاحب القانون ١٩٧ / ٢٠٠٨ . فصاحب النص يبدو أنه لم يقرأ " الإعفاءات الضريبية " المقررة فى الفقرة (٥) للمادة (٣٦) من قانون الضرائب الجديد ٢٠٠٥/٩١، فهى بصريح نصها **تعفى** : " إيرادات

أصحاب المهن الحرة المقيدون كأعضاء عاملين في نقابات مهنية في مجال تخصصهم، وذلك لمدة ثلاث سنوات من تاريخ مزاولة المهنة الحرة، ولا يلزمون بالضريبة إلا اعتباراً من أول الشهر التالي لانقضاء مدة الإعفاء سالف الذكر **مضافاً إليها مدة التمرين** التي يتطلبها قانون مزاولة المهنة". معنى هذا أن مدة الإعفاء الضريبي للمحامى البادئ بالمحاماة حدها الأدنى **خمس سنوات**، فكيف تفرض المادة المضافة بليل تقديم بطاقة ضريبية على من أمضى سنتين ليس إلا - بينما هو غير مطالب أصلاً بعمل بطاقة ضريبية - إذ لا يزال في فترة الإعفاء؟! ألم أقل إن قالة : سمك لبن تمر هندي، قد صارت سنة متبعة في مشروعات القوانين التي تقدم بليل من وراء ظهر المحامين !!؟

من

تراب (٢٠٤)

قل ما يعجب، (*)

واصنع ما شئت !

الطريق !

من العادات التي استشرت بين بعض الناس في مصرنا المحروسة، عادة تقول : " قل ما يعجب الناس، واصنع ما شئت " ! .. فالتناس ذاكرتها ضعيفة فلا تقارن ما يحدث على ما سبق أن قيل وأعجبها وأرضاها، وغالبا ما يفتش القائل - لو التفت الناس إلى ما سبق أن قيل - عن ذرائع تبرر ترك ما قيل وجرت به الوعود، إلى عكسه ونقيضه الذي جرت به الأفعال والأعمال ! .. إلى هذه العادة المقيتة ترجع ظاهرة " الفصام " المرضي بين الكلمة وبين الفعل والعمل والسلوك !

تذكرت هذه الآفة الضاربة بالسلب في حياتنا وأنا أناقش على الهواء غياب الشرعية واستمرار الحراسة على نقابة المحامين بالقاهرة لمدة طويلة، وهي تشكل أكثر من نصف الجمعية العمومية لمحامي مصر، واستمرار بقائها تحت الحراسة في الثماني سنوات الأخيرة، بينما كان بالنقابة مجلس منتخب من واجب نقيبه إعادة الشرعية إلى نقابة القاهرة التي ظلت تحت الحراسة دون أن ينتفض أحد لرفع هذه الحراسة عنها !

رد من رد، بأن النصاب لم يكتمل، مع أن عدم الاكتمال حصاد تزوير كشفت جذوره مدونات وتقريراً حكم محكمة القضاء الإداري الصادر ٢٠٠٩/١/١٥، وما قيل بعده وقدم في بعض الصحف والفضائيات عن العبث الذي طال ١٦ ألف صوت بنقلها إلى مكان آخر غير مكان عمل

أصحابها وبغير علمهم من بعض محافظات الصعيد إلى الساحل والزيتون بالقاهرة، كما يرتفع بها نصاب انعقاد جمعية نقابة القاهرة، ويتخلف تصويت المنقولين بغير علمهم، فلا يكتمل النصاب ظاهراً، بينما السر فى عدم اكتماله هو فى هذا العبث الذى تم من وراء ظهر المحامين !

فإذا كان يمكن للمتعلل التعلل بأن ما حدث ليس عبثاً أو تزويراً، أو افتعال المبررات والذرائع له - فإن الذى لا يفوت أن عدم اكتمال النصاب كان ولا يزال يستوجب إعادة الدعوة إلى الانتخاب لنقابة القاهرة كل ستة أشهر - وهكذا دواليك !!

بالورقة والقلم يبين أنه كان فى ذمة القائل، بفرض عدم اكتمال النصب فى كل مرة جدلاً، اتخاذ إجراءات الدعوة للانتخاب نحو (١٤) مرة طوال قرابة ثمانى سنوات . ولكنه لم يفعل، ولم يحرك ساكناً لاتخاذ الإجراءات اللازمة لدعوة اللجنة القضائية المختصة للقيام بواجبه وواجبها فى تكرار الدعوة لانتخاب نقابة القاهرة كل ستة أشهر !!!

الأعجب أن القائل المتقول بُهت من هذه الحجة، فلم يجد ما يقوله إلا التعلل بأنه كان لا بد ليكتمل النصاب من انتظار - هكذا يصادر ! - إنشاء النقابات الثلاث تبعاً لإنشاء محافظات حلوان و٦ أكتوبر والبحر الأحمر، وسكت عن وجوب إنشاء نقابة شمال القاهرة التى كان واجبا إنشاؤها من سنوات تبعاً لنصوص القانون وحكم القضاء الذى مضى عليه ربح من الزمان !؟

كانت الذريعة زاعقة المغالطة، تستخف بعقول جميع المتلقين !.. فهل يجوز فى عقل عاقل هذا التذرع لهذا القعود منذ عام ٢٠٠١ عن تكرار الدعوة كل ستة أشهر لإجراء الانتخابات لنقابة القاهرة، وهل كان المتذرع يعلم منذ سنة ٢٠٠١ أنه سيصدر فى منتصف عام ٢٠٠٨ قرار بإنشاء ثلاث محافظات - منها البحر الأحمر ! - حتى يوقف مسار ومصير نقابة القاهرة ويبقيها تحت الحراسة بسكوته بل بمباركته وآخرين هو يعلمهم -

بسكوته عن تكرار الدعوة كل ستة أشهر منذ سنة ٢٠٠١ لإجراء الانتخابات؟!، وهل يمكن لمتنبئ أيا كانت قدراته التنبؤية أن يتكهن مقدما بأن النصاب لن يكتمل (١٤) مرة على مدى ثمانى سنوات، وأن يتكهن بأنه سيصدر قرار بإنشاء ثلاث محافظات فى منتصف عام ٢٠٠٨؟! ثلاث مرات يُطالب القائل المتقول المتنزع بالرد، ولكنه أفحم وبُهِت ولم ينطق بحرف واحد للرد على هذه الحجة الدامغة!!

حتى العبارة الجارية مجرى العادة : " قل ما يعجب الناس واصنع ما شئت " . لم تسعف فى استيجاد حرف يساعد على الخروج من هذا المأزق .. هناك حكمة تقول : من الصعب بل من المحال الكذب على كل الناس طول الوقت !!

من تراب (٢٠٥) يقظة مرجوة! (١) الطريق!

لم يقلل انتشار العلم الوضعي وآثاره التي لا تحصى في الاختيارات والأذواق والأعمار والأجناس - من المبالغة في السطحية والخفة في حياة البشر منذ النصف الأخير من القرن الماضي .. بل ضاعف هذه الخفة وهذه السطحية إلى حدود قل فيها الأمان مع الأنفس والمرافق والأموال .

يجرى ذلك في المجتمعات كلها .. ما تسمى منها بالرقى والتقدم والتحضر، وما يدعى منها أنه في طريقه إلى ذلك، وما يوصف بأنه متأخر متخلف . فلم يعد عالما كله يشعر إلا بالتشاؤم والقلق في كل مكان .. كأنه قد فقد اتزانه إلى غير رجعة .. ولم يعد يجد القادرين على إعادته إلى أمانه واتزانه .. ولا عاد يرى ما يبث فيه الثقة والعزم على التماسك للاستمرار في النجاح ككل .. بل لم يعد له ما يحمله على التماسك للمحافظة على ما وصل إليه، ولم يعد بغيثه ما نراه من الانتشار الهائل لوسائل وأدوات الإذاعة والصحافة والطبع والنشر والكثرة الغريبة للمؤتمرات والاجتماعات الدولية والمحلية والاتفاقات والقرارات التي لا طائل وراءها إلا الخلافات والانتهاكات والانهيارات .. ما أكثر الأقوال اليوم وما أقل الأفعال المثمرة، وما أكثر الخسائر وأقل المكاسب، وما أكثر الحماقات والخبائث وأقل الحكمة والتبصر !!

يبدو أننا نعيش الآن - حسب الأعم الأغلب - حياة ليست لها أعماق وجذور .. حياة غير سليمة بدنياً أو فكرياً أو عاطفياً على أرض دائمة الاهتزاز بنا .. فى جماعات مفككة وظروف قلقه مزعجه .. حياة هشة واهية العزائم والآمال تتهددها زوابع وأعاصير وفواجع هنا وهناك !! ونحن فى يقظتنا البليدة المألوفة .. نصف النائمة - لا نرغب أن يكمل ويتم صحنونا كأننا يزعجنا أن نفيق ونشهد ما لا نطيق أن نشهده ! - ومع ذلك فما زال السؤال يجيء ويذهب لدى بعضنا يزلزل داخله : هل نقدر على الإفاقة ونتحمل مواجهة مصاعبها بعيون وعقول صاحبة فنتمكن من مواجهتها؟ أم سنمضى فى الاستغراق فيما نحن عليه الآن إلى نهايته - نلوذ باللغو واللجاج والتراحم عليهما - تحركاً وتنقلاً مع الإنصات للإذاعات والاتصاق بقنوات التليفزيون وبأقوابيل الصحف والنشرات وفتاوى المتطفلين ومن هبّ ودبّ وما لا حد له ولا طعم من المطبوعات ثم إنفاق الزمن فى المجالس والاجتماعات وإضاعة الأعمار فى اللقاءات الفارغة لترديد الإشاعات والانتقادات فى النوادي وأحياناً كثيرة فى الزيارات. ذلك الباطل الذى يبدو عامّاً شاملاً، الملون بكافة ألوان التغرير الخبيثة والساذجة - خليق بالتعجيل فى طرده وإزالته. فهل فيما بيننا من هو مستعد لمقاومته بكل ما لديه آملاً أن يجمع أو يتسبب فى جمع من يقومون بإزالته ؟!

ينبغي ألا ننسى أن كلاً منا معه ثقته بنفسه وإن احتاج فجأة إلى مشورة سواء، وقد يصيب فى ذلك أو لا يصيب . وهى دائماً ثقة غير متماثلة فى القوة أو فى الكم - متغيرة مع تغير الظروف والأطوار والأعمار، لكن لا بد من وجودها وعلى أية صورة لدى آدمى سليم العقل .. بها يقدر ويوصى وينصح ويوافق ويساعد، وبها أيضاً يرفض ويمتنع ويخالف ويعارض ويعادى، وعليها تبنى الارتباطات والعلاقات والقربات والمودات، كما عليها يحصل الابتعاد والبغض والقطيعة والحقْد. وكل منا دون أن يشعر - قد تقوى ثقته فى اتجاه أو تضعف - تبعاً لما يعتقد أنه تحقق - بناءً على ما يجربه أو رآه أو عرفه أو ذاع فى محيطه أو سمعه أو قرأه.

برغم ذلك كله لا يزال فينا حتى اليوم من يأمل - جاداً كل الجد - فى أن تزداد يقظة البشر كبشر إلى الحد الذى يفضلونها هى فيه على كل ما يطمع فى الحصول عليه سواد البشر الآن. وهو اتجاه إذا انطوى على تصميم وإصرار - قد يجد فرصاً للانتشار فيبعد هذا القنوط الذى يسود عالمنا اليوم لأن البشر معرضون للعدوى سلباً وإيجاباً .. فما عَرَضْنَا للقنوط الذى بتنا فيه، قد يعرضنا عكسه - غذا - لتلك اليقظة المرجوة !

من

تراب (٢٠٦)

الشجاع! (٢٠)

الطريق!

لا تدري حين تطالع قصيدة : " الشجاع " بديوانه " العارف " لشاعرنا
المحامى الفقيه العالم الأديب محمد عبد الله محمد - لا تدري ماذا يريد هذا
الشاعر المفكر أن يقول إلا إذا تمعنت مفرداته وتراكيبه وتعمقت مبانيه
ومعانيه .. يستهلها بقوله :

عَدَائِرُ الحُورِ لَا خُضْرَ وَلَا خُصْلُ	لولا عيونَ تَرَى أو ناطقٌ يَصِفُ
لقد أَشَاعَ جمالَ الروضِ واصِفُهُ	من ضاحكِ الزهراءِ من وابلِ يكِفُ
وَأَيَّظَ القَيْحَ من نَوْمٍ وَحَرَكَهُ	ذا خائفٌ فزع أو غاضبٌ أَسَفُ
كَسَا الوجودَ وجوداً مَنْ تَصَوَّرَهُ	بالظلمِ فيه ومنهُ العدلُ ينتصفُ

* * *

مَلَأَ القَدَاسَةَ بالأوصافِ صاحِبُهَا	ولم يجاوزَ بها الأسماعِ والحدَقَا
لم يَنخُلِ الرَبُّ جُؤَاهُ فغَيَّرَهُ	فهما وذوقا على ما فيه أو خَلَقَا
الرَّيْحُ تَنقُلُ كَثَابَنَا وتَرْكُهَا	ولا تَبْدُلُ فى صَحرائِهَا أَفْقَا
وربما طَمَرَتْ نَبْعاً تَصَادِفُهُ	وربما قَتَلَتْ طَيْراً إذا انطَلَقَا

فى موضع آخر بقصيدة " الشجاع " - يقول محمد عبد الله محمد :

غالى بعقليَ عرفانى بقيمته	فليس يُرْخِصُهُ يأسٌ ولا أَمَلُ
لا يشربُ ابْنى من نَهْرى ويرفضُهُ	ويستقَى غيرُهُ مِنى وينتهلُ

(٢٠) المال ٢٠٠٩/٢/٩

تَصُدُّ عَقْلِيَّيَ بَيْتِي وَتُبْعِدُهُ عَنِّي وَأُخْزِنُ أَحْيَانًا وَأُمْتَسِلُ
أَقُولُ مَا قَالَهُ قَبْلِي آخِرُ شَجَرِن "وَدَّعْ هَرِيرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَحُ"

* * *

كَمْ خَمَنَ الْخَائِرُ الْمُسْكِينُ أَجُوبَةً أَجَابَ فِيهَا عَلَى الْغَازِ مَاضِينَا
وَقَسَمَ الزَّمَنُ الْمَاضِي إِلَى حَقِّب مَا بَاشَرْتُ بَشْرًا أَوْ دَوَّنتُ دِينَا
لَكُنْهَا مَلَكْتَنَا مَا مَضَى فَعْدَا إِرْتَا لَنَا وَتَلَاقَتْ فِيهِ أَيْدِينَا
وَصَارَ مِنَّا وَمِنْ أَجْزَاءِ حَاضِرِنَا نَسِيرُ فِي ظِلِّهِ يَعْشُو وَيَهْدِينَا

* * *

لَيْسَ الْغَمُوضُ عَذْوًا لِلْحَيَاةِ وَلَا يَعُوقُ عَاطِفَةً فِينَا وَلَا عَمَلًا
وَلَيْسَ فَهْمُكَ شَرْطًا لَانْفِتَاحِ فَمِ وَلَا زِيَادَةَ ضَيْفٍ جَاءَ أَوْ رَحَلَا
وَلَوْ فَهَمْتَ لِمَاذَا؟ مَا أَتَيْتَ هُنَا وَمَا تَضَاحَكَ مَقْتُولٌ وَلَا امْتَلَا
مِنَ الْغَمُوضِ دَخَلْنَاهَا فَلَا عَجَبٌ إِذَا خَرَجْنَا وَلَمْ نَفْهَمْ لَهَا عِلَلَا
فِي نَسْبِيَةِ أَحْكَامِنَا وَرَوَانَا وَتَبْعِهَا أَفْكَارِنَا، يَسْتَشْهَدُ الشَّاعِرُ الْمَفْكَرَ
بِالشَّمْسِ الَّتِي هِيَ لَا تَتَغَيَّرُ، وَلَكِنَّا نَتَغَيَّرُ فِي أَنْظَارِنَا تَبْعًا لِأَوْضَاعِهَا فِي
مَسَارِهَا وَأَوْضَاعِ رُؤْيَيْنَا لَهَا، فِي ذَلِكَ يَقُولُ شَاعِرُنَا :

لَكُمْ تَغْيِيرٌ مَعْنَى الشَّمْسِ مُذْ نُظِرْتُمْ لِأَنَّ نَاطِرَهَا يَنْأَى وَيَقْتَرِبُ
وَكَمْ تَعَدَّدْتَ الْأَشْكَالَ وَاخْتَلَفْتُمْ مِنْ حَيْثُ تُشْرِقُ أَوْ مِنْ حَيْثُ تَغْرُبُ
لَوْحَدَةِ الشَّمْسِ أَغْرَاضٌ تَفَرِّقُهَا عَلَى مَصَالِحٍ تُسْتَصْقَى وَتُنْتَخَبُ
زَيْدٌ يَرَى فِكْرَهُ - فِيمَا يَشَاهِدُهُ كَمْ أَخَفَّتْ الشَّمْسُ فِي حِسَابِنَا سُحُبُ

من

تراب (٢٠٧) هبة سماوية للإنقاذ ! (*)

الطريق!

حدث أرضى، ولكنه هبة من السماء، أنقذت اتحاد كرة القدم المصرى من ورطة هائلة لا مثيل لها فى كل بقاع الأرض، ولم يكن لها مثيل فى مصر حتى وقوع الطامة غير المسبوقة حين انكشف بعد مباراة فى قبل نهائى كأس مصر، بين فريقى إنبى وبتروجيت، وينتميان إلى قطاع البترول، أن نادى إنبى قد كان بفريقه لاعب أفريقى على ما أظن، استبان بعد المباراة أنه لعب فى ذات الموسم إلى ثلاثة أندية، وهذا غير جائز بالنسبة للوائح والنظم التى تحكم فيما تحكم اتحاد الكرة المصرى . الحل بسيط، هو شطب نتيجة المباراة، واعتبار نادى بتروجيت هو الفائز الواجب تصعيده إلى نهائى الكأس، فضلا عن توقيع العقوبة المناسبة على النادى وعلى من قيده له باتحاد الكرة.

ولكن كيف ؟ إن الأمور تدار بمنطق النكاي والعزب والإقطاعيات، والناديان: بتروجيت وإنبى ينتميان إلى قطاع واحد هو قطاع البترول، وقطاع البترول يحكمه السيد وزير البترول . والسيد الوزير ارتأى أن يحل المشكل بمنطق قعدات العرب وكبير العائلة الذى لم نعد نسمع به منذ رحل المرحوم الرئيس السادات . فأصدر السيد الوزير فرماناً بحكم شوكة منصبه يقضى على نادى بتروجيت التابع لأحد قطاعاته - أو إقطاعياته - فلا فرق، بأن يمثل لما وقع عليه، وأن يمتنع عن الشكاية أو التظلم إلى

(*) المال ٢٠٠٩/٢/١٠

اتحاد الكرة، فالناديان ينتميان إلى قطاع البترول، ولا يريد حاكم القطاع أن يتحمل نأديه إنبنى مغبة ما كان، ويريده أن يصعد إلى الدور النهائى ولتذهب القواعد والنظم والأسس ومعها الروح الرياضية إلى الجحيم !!

إلى هنا وقطاع البترول ووزيره وشأنه فيما يرى أو لا يحب أن يرى، فالأمر كله معقود لاتحاد كرة القدم الذى عليه أن يصدر فى الواقعة قراراً يتفق مع القواعد والنظم واللوائح . ولكن الاتحاد لم يشأ أن يفعل ويصدر القرار الواجب عليه إصداره، وشاء أن يبارك ما أراده كبير العائلة البترولية، فاتخذ لذلك ذريعة لا سابقة لها ولا يمكن أن تكون لها لاحقة فى دولة مؤسسات قوامها احترام القانون وأحكام اللوائح والنظام العام . تذرع الاتحاد بأنه لم يتقدم إليه أحد بشكاية، وهى تعلّة خائبة لأن الاتحاد ذاته جازى عاملين به عن ذات الواقعة التى ساهم خطوهم بقيد اللاعب، فى وقوع الخطأ الموجب لشطب نتيجة نادى إنبنى .. إذن فالواقعة برمتها بكافة أبعادها قد وصلت إلى علم الاتحاد واتخذ فيها قراراً ولكنه " أحول "، لأنه اتجه وجهة وترك أخرى، وفاته فى تعلّته بأنه لم يتلق شكوى، أن أنظمة الدول وهياكلها ومؤسساتها ووحدات المجتمع المدنى والرياضى، تقوم على ما يسمى "بالنظام العام"، وهو مجموع ما تدلى به القوانين واللوائح والموروث الدينى والمجتمعى والثقافى وغيرها من أسس عليها تحكم المجتمع برمته، وتكون واجبة التطبيق احتراماً للنظام العام للمجتمع، ولأنها مبادئ عليها فإن القضاء ذاته استقر استقراراً لا شذوذ عنه على وجوب الحكم على مقتضاها من تلقاء نفسه، ودون أن يتوقف ذلك على طلب الخصوم، لأن النظام العام الذى خولف يتعلق بحق الدولة ولا يقتصر على حقوق أفرادها الطبيعيين أو المعنويين . تباع المخردرات أو مديونيات القمار أو تراضى الدعارة أو الفعل الفاضح فى علانية أو مخالفة القواعد الأمرة، أو الاتفاق على ما يخالف القانون - كلها وغيرها مما يدخل فى دائرة النظام العام - لايمكن إقراره أو قبوله أو التغاضى عنه .

وقاعدة ألا يلعب لاعب لثلاثة أندية فى موسم واحد، هى قاعدة من

قواعد النظام العام للأسرة الكروية، كانت ولا تزال تستلزم شطب نتيجة نادى إنبى، وعدم تصعيده إلى الدور النهائى للكأس.

وتصعيد إنبى بدلاً من بتروجيت، كانت ستكون له عوادم وتداعيات لا تنتهى، وهى كفيلة بهز أركان اتحاد كرة القدم ومنطق الحلول القبلية التى قبل إعمالها بدلاً من النظام العام الكروى وما يستوجبه لزوما لايجوز فيه الترخص أو الالتفاف، مما وضع اتحاد الكرة فى مأزق حقيقى لا مجال للخروج منه !

لذلك كان خروج نادى إنبى فى الدور النهائى للكأس، هبة وهدية من السماء، أنقذت اتحاد كرة القدم المصرى من وهدة الورطة الهائلة التى أوقع نفسه فيها، وليذهب النظام العام ومعه الأسس والروح الرياضية - إلى حيث أُلقت !!!

من

تراب (٢٠٨) باسمك اللهم (*)

الطريق!

فى القرآن الحكيم، استلفات لتذكر الخالق جلّ شأنه، ودعوة إلى الدعاء والابتهال له، فتقول الآية الكريمة : " وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ " (غفر/ ٦٠، ٦١) .

* * *

اللهم نحمدك ونستغفرك ونتوب إليك، ونعوذ بك يا أرحم الراحمين أن نكون من المنكرين الجاحدين غير الشاكرين .. فأنت سبحانه خالقنا وفاطرنا، ونعمك علينا لا نعدّها ولا نحصيها .. هى ملء أسمعا وأبصارنا وحواسنا فى ليلنا ونهارنا .. فى كل ركن من حولنا ..
اللهم فتقبل شكرنا وحمدنا لك على وارف فضلك وجزيل خيرك ..
وزد اللهم من يقينا الذى تقسمه سبحانه لنا، وباركه .. واملأ بالقناعة به نفوسنا .. يا سميع .. يا بصير يا مجيب ...

ربنا .. يا من تجيب دعوة المضطر إذا دعاك، وتكفك برحمتك عن المكلومين، وتملأ نفوس من تريد بالإشراق والنور المبين ..
نسألك بحق قيامنا إليك ذاكرين قانتين مسبحين .. نسألك أن تخفف عنا، وأن تشفى مريضنا، وتكلاً أسقام أجسادنا ونفوسنا، وتعافينا فى أبداننا

(*) المال ٢٠٠٩/٢/١١

وأفندتنا .. أن تشفينا من الغل والحسد .. من الحقد والغيرة .. من الكذب
والرياء .. من النفاق والشح والبغضاء .. أن تعافينا من الأمراض والأسقام
.. ومن الهموم والأحزان ..

ونضرع إليك يا ملبى الدعوات أن تبدلنا عن ذلك كله عافية وطمأنينة
وسكينة وصفاء .. يارب .

فى الحديث الشريف الذى رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما :
" من فُتِحَ له باب الدعاء فُتِحَتْ له أبواب الرحمة، وما سئل الله تعالى
شيئاً أحب إليه من أن يُسأل العافية، وإن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم
ينزل، ولا يرد القضاء إلا الدعاء .. فعليكم بالدعاء " . صدق رسول الله .

اللهم إنا قد دعوناك بألسنتنا ومهجنا .. بأرواحنا وقلوبنا .. فافتح يا
إلهى لنا أبواب رحمتك التى وسعت كل شىء .. وامسح يا رءوف
أحزاننا، وخفف أحمالنا .. يا رحمن يا رحيم .

ربنا .. أنت مولانا وناصرنا .. إليك دعونا، فلا تخيب رجاءنا .. يا
نعم المولى ويا نعم النصير ..

ربنا .. يا سلام يا قدوس، يا مهيمن يا عزيز .. قد أتيناك بأعمالنا
وحصادنا .. بآلامنا ومتاعبنا .. بآمالنا وأمانينا .. نرتجى برك وعطفك
ورحمتك ..

اللهم فطهر بهداك قلوبنا، واغسل برحيق المحبة أفئدتنا، واتشر الأمن
والسلام فى ربوعنا، وأنزل السكينة فى نفوسنا ومهجنا، وأسبغ علينا هداك
ورحمتك، واملأ بينابيع الحب حياتنا ..

اللهم وافتح لدعائنا أبواب سمائك .. ولرجائنا رحاب رحمتك ..
ولآمالنا كنوز خيراتك .. اللهم واقطر على الرحمة والسلام والعطاء
قلوبنا، واحفز إلى الخير خطانا، وافتح أمامنا السبل إلى مثوبتك
ورضوانك .. سبحانه أنت مولانا وناصرنا، وإنيك يا الله لا تخلف
الميعاد .. يارب ...

من

تراب (٢٠٩) جوار غريب (*)

الطريق!

لا يركب الراكب سيارة أو قطاراً في بر مصر، إلا ويلفته خليط عجيب، حاضر أحياناً في تجاور وربما في التصاق، بين فرط الترف وفرط الفاقة .. بين جمال وأناقة الجزيرة والمُنزل في الدقي القديم ما يكاد يكون مرمى حجر، وبين عشش الترجمان (سابقاً) وقلب القاهرة ما يحسب بالأمتار، فإن قيض لك أن تنتظر من نافذة القطار القادم من صعيد مصر، على مشارف الجزيرة، رأيت على الجانبين علامات الفاقة والقدارة والعشوائية، فإذا رفعت نظرك قليلاً رأيت على الجانب الآخر من النيل العمارات الشاهقة والمباني والقصور الأنيقة، يكفيك أن تمر بمنيل شيحة لتجد القصور المنيفة إلى جوار العشش والمباني الضئيلة، وفي تجاور مدهش تجد العشوائيات تكاد تلاصق في كل مكان معالم الترف والتنعيم !

ترى ماذا يكون شعور المعدم وهو يخرج من العشوائيات، أو من مساكن القبور، حين يجد نفسه مطلاً بعد أمتار قليلة على مظاهر الثراء والترف يتنعم فيها المتنعمون !

في تجاور مدهش تجد الفاقة تكشف عن وجهها على الأرصفة، وفي ظاهر وبطن العشوائيات، وفي مشارف أحياء بكاملها مبنية بالطين .. شتان بين المركبات والكارو وما شابه على كوبرى إمبابة، وبين السيارات

(*) المال ٢٠٠٩/٢/١٢

الجارية على مرمى البصر على كبارى الزمالك وأكتوبر والجلاء وقصر النيل !

حتى التسكع فى الطرقات، وهو داء وبيل يأخذ معظم المصريين من مراكز العمل والإنتاج، إلى الأرصفة وأنهار الطرق والميادين، تتجاور فيه أحدث الأزياء الغربية، مع الملاية اللف والجلباب، مثلما يتجاور كسل القادر المكتفى بثرائه، مع تنبلة الفقير القانع بفقره ! .. ترى هل يمكن لهذه المعادلة الغربية أن تستمر فى سلام، وأن يمضى تجاور فرط الترف وفرط الفاقة بلا أخطار أو محاذير ؟! تورى الفطنة بأن فرط الفاقة بدأ يسلس إلى الجوع، والجوع كافر فيما يقول المتبصرون .. إن مشاهد الترف مرئية فى كل مكان لضحايا الفقر والإملاق، والأدهش من هذا أننا درجنا على ألا نعرض فى مرئيات التلفاز الأرضى والفضائى، وهى تُعرض فى المقاهى، إلا مشاهد الثراء المستفز، وبذخ الأفراح الأكثر استغزازاً .. يرقبها المعدم بعين جوعه وحاجته وإملاقه، ولا يجد أمامه إلا اجترار الحقد ! .. ففرص العمل تكاد تكون معدومة، والبطالة مستشرية، ومع ذلك لا تستطيع أن تفسر عدد السيارات الهائل الذى يجرى ليل نهار فى شوارع القاهرة والإسكندرية وعواصم المحافظات .. من أين وإلى أين؟ لا أحد يدري أو يفهم !! .. بات تسكع السيارات ينافس تسكع المارّة، وسادت ثقافة البطالة والراحة وتوارت ثقافة العمل والإنتاج، وانكفأ كل على ذاته، الثرى هانىء بثرائه وترفه وتنعمه، والفقير مغلوب بفاقته وإملاقه، وبين هذا وذاك نتنامى تلألؤ من التراككات النفسية مع الأيام لا يدرك أحد محاذير تناميها ولا مخاطر انفجاراتها إذا تركت على حالها!!

لا يمكن لفرط الترف أن يأمن على نفسه وعلى المترفين، ما لم يقدم إلى فرط الفاقة مشروعات وفرص عمل تعوض مرارة وذل الفقر والحاجة، وتصرف بالعمل وشواغله عن تصاعد تعاسة سوف تأتى - إذا انفجرت - على الأخضر واليابس فى بلادنا !!

من

تراب (٢١٠) سبحان من بيده الملك (٢)

الطريق!

باسمك اللهم .. يا حي يا قيوم .. أصبحنا، وأصبح كل طير على
غصن، وكل كائن فى رُبع أو فى بطن بحر .. نُسَبِّحُ يا إلهى لك، ونذكرك
ذِكْرَ العارفين بك، ونلتمس منك الهدى والبركة .. الفلاح والنجاح ..
التوفيق والرشاد .. فأجبتنا يا إلهى إلى ما دعوناك، وحقق لنا ما أملناه،
واهدهنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت .. وهبى لنا من أمرنا رشدا ..

باسمك اللهم .. نخرج إلى يوم عمل على طريق الحياة .. مع كل
من حملته قدم، أو طار به جناح، أو زحفت به بطن .. مع كل كائن يبتغى
رزقه بالحلال على أديم أرضك أو فى كنوز بحارك وخيرات فضائك .. مع
كل مؤمن يتوكل عليك ويسعى، يُنِيبُ إِلَيْكَ وَيَبْذُلُ، يؤمن بأنك الوهاب
ولكنه يعطى .. يعطى الحياة لأنها لا تُعطى إلا لمن يُعطيها .. يعطى الجهد
لأن لكل على قدر سعيه .. يعطى المودة من نفسه ليجنى المحبة من
الآخرين .. مع كل هؤلاء وأولاء يا إلهى نخرج .. نخرج كما خرجوا،
ونعطى كما يعطون .. ونلتمس منك الرزق كما يلتمسون .. يا رزاق ..
يا وهاب .. يا فتاح .. يا عليم ...

سبحاتك القائل : " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *
الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْعَفُورُ " .

(٢) المال ٢٠٠٩/٢/١٦

اللهم.. اجعل لنا فى رسولنا الكريم والسابقين الأولين مثلاً وقدوة .. فى صفيك البشير الذى كان يكذُ ويعمل، ولا يأكل إلا من عمل يده .. فى صحابته الأبرار الذين رضيت سبحانه عنهم ورضوا عنك .. فى أيديهم المعروقة من كد العمل، وفى قلوبهم الصافية النقية من غمق الإيمان .. ألهمنا يا إلهى إيمانهم لنزداد تبتلاً وخشوعاً، وعزمهم لنزدك مضاءً، وعلى العطاء متابرة وصبراً .. واحشرنا يا رحمن فى زمريهم، واقبل شفاعتهم فينا على ما قصر جهدنا عنه، أو فرط منا بغير قصد .. إنيك يا إلهى لا ترد دعوة الداعى إذا دعاك ...

اللهم.. توج سعيينا بالفلاح، ولا تجعله كذاً بغير ثمر.. وإمنحنا الصفاء يارب لنسعد بما نجنه، ونعطى مما نفوز به .. وقنا يا الله شح نفوسنا، وافطرننا على الرحمة والمودة .. واجعلنا فى ربوع أرضك رُسل سلام ومحبة.. ندعو للبر ونقبل على الخيرات ونستبق المعروف.. نعين المحتاج ونساعد الضعيف ونجهد لمسح أنات المرضى والمجوعين.. نتقارب بالمودة .. ونتألف بالتراحم والمحبة، ونحيل أيماننا إلى ربيع سعد وإشراق

...

سبحان القائل فى كتابه العزيز : " لَأَخَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا " .

اللهم .. افتح لنا أبواب الخير الذى نتلمسه وترضاه سبحانه لنا .. وقربنا إلى المعروف وقربه منا .. واجعلنا من المتصدقين بالمال والعمل .. بالعطاء وبالكلمة الطيبة .. بالبذل وبالعطف والرحمة .. واحشرنا فى زمرة المصلحين، وأتينا يا إلهى بما وعدت .. إنيك لا تخلف الميعاد ...

من

تراب (٢١١) المثقف والسلطة (*)

الطريق!

(١)

من أياى الأستاذ الدكتور محمد عنانى على الترجمة، أنه ترجم إلى العربية مؤلفات للمفكر العربى الكبير إدوارد سعيد، كتبها المؤلف بالإنجليزية راميا إلى خطاب القارئ الغربى، ونقلها إلينا بالعربية الدكتور عنانى . من الكتب النفيسة التى ترجمها لهذا المفكر العريض، كتاب Representations of the Intellectual .. أو " المثقف والسلطة " طبقا لعنوان الترجمة العربية .

الدكتور عنانى كدأبه فى كل ما ترجمه، يعطى جانباً من التقديم لفنون وإشكاليات الترجمة، وما صادفه منها فيما يترجمه، وهو يشير إلى ما لاقاه فى هذه الترجمة من تداخل دلالات الألفاظ بين العربية والإنجليزية، وكيف اجتازه حتى فى عنوان الكتاب، أما موضوعه فقد تبين له بعد طول قراءة أن " المحور الرئيسى " الذى تنور حوله هذه الدلالات جميعاً، هو علاقة المثقف - بالمعنى العربى - بالسلطة، وهو محور يتشعب ويتفرع عند تناول الجوانب المختلفة لهذه الدلالات الكثيرة المتشابهة .

وسط الشعاب وفروعها، يخرج القارئ بالفكرة التى يرمى الدكتور إدوارد سعيد إلى إبرازها، ألا وهى ضرورة استقلال المثقف - أيا كان تعريفه - عن السلطة .. بمعنى عدم الارتباط بقيود تحد من تفكيره أو تقيد أو توجه مساره .. والمثقف الذى يعنيه سعيد هو ذلك المتمسك بقيم عليا

(*) المال ٢٠٠٩/٢/١٧

كالحرية والعدالة، المهتم بنقلها للغير بشتى الوسائل، والذي لا يقبل بالحللول الوسط التى تتبهم وتتماع فيها الحدود بين الصواب والخطأ !

هذا المثقف هو الذى يقع على عاتقه عبء " تمثيل " العامة فى مقاومة أشكال السلطة الجانحة أو المخادعة أو المستبدّة . هذا المثقف لا يدفعه إلا ما يؤمن به من قيم ومبادئ إنسانية عامة، لا تنحصر فى الحزبية الضيقة، أو الفئوية المتعصبة، أو المذهبية المتجمدة .. تسيره الهواية الصادقة ولا يقيده احتراف !

وأصل الكتاب الذى ترجمه الدكتور محمد عنانى للمفكر العربى إدوارد سعيد - كان محاضرات ألقاها تباعا على موجات الأثير ضمن سلسلة " محاضرات ريث " التى تقدمها الإذاعة البريطانية B.B.C وتناوب عليها مفكرون كبار أمثال برتراند راسل، وأوبنهايمر، وجون كينيث جالبريث، وجون سيرل، وتوينبى .. بدأ إدوارد سعيد فى إلقائها برغم جوقه ارتفعت صرخاتها بالاحتجاج على اختيار هيئة الإذاعة البريطانية للدكتور سعيد بدعوى أنه من المناضلين النشطاء فى سبيل الحقوق الفلسطينية، مدفوعة بأكاذيب أن صفة الفلسطينى - المغتصب وطنه الجارى اغتيال شعبه ! - مرادفة للعنف والتعصب وقتل اليهود !!

حول دور " اللا منتمى " الذى يلعبه المثقف أو المفكر، ينوه الدكتور سعيد فى مقدمته إلى أنه نشأ من إدراكه لمدى العجز الذى كثيرا ما يشعر به المرء إزاء شبكة قوية غالبة من " السلطات الاجتماعية " .. هذه السلطات التى تسد المنافذ أمام إمكان تحقيق تغيير مباشر . وهذا يستحضر " روح المعارضة " فى توجه المثقف - لا القبول والتناغم . هذه الروح هى القادرة على مواجهة وكبح التحديات وأخطرها آفة الاعتیاد والاستسلام للوضع الراهن !

وكما تزداد الهوة بين الأغنياء والفقراء، تتسع أيضا بين المثقفين أصحاب الرغبة فى التغيير، وبين المستمسكين حتى الرمق الأخير بالحال

الراهن !.. يغلب على هؤلاء المفكرين المتصدين لآفات الوجود، أنهم بلا مكاتب أو مناصب، ويواجهون موجات مصرة على مقاومة دورهم وعزلهم . ولكن هذه " العزلة " خير للمثقف الحقيقي من الصحبة التي تعنى قبول الأوضاع الحالية على ما هي عليه !

فى ستة فصول تدور محاور الكتاب : صور تمثيل المثقف، استبعاد الأمم والتقاليد، منفى المثقفين : المغتربون والهامشيون، محترفون وهواة، قول الحقيقة للسلطة، أرباب دائبة الخذلان !

قد يقال إن صور تمثيل المثقف تتعدد بتعدد قنوات التغيير والنشر والبت .. ولكن الصعوبة تكمن فى أن المثقف يتحمل مقاومة الوجود للجديد الراغب فى التغيير، ثم هو منحاز للفقراء والضعفاء الذين لا يمثلهم أحد فى مراقي السلطة التى تتيح المنافذ وتهيمن عليها . زاد المثقف هو " إصراره " على أداء دوره، ورفضه " للصيغ السهلة " والتوفيقات الجاهزة المبثثة . مهمة المثقف والمفكر تتطلب البقطة والانتباه على الدوام، ورفض الانسياق وراء أنصاف الحقائق .. من شأن هذا التحرر أن يتيح للمثقف واقعية مطردة ثابتة، وطاقة عقلانية مؤثرة، ومكافحة تحفظ توازن الفرد أمام متطلبات النشر والإفصاح التى غالبا ما تصدر على منح الفرصة والمساحات لأصحاب الفكر والرأى !

من

تراب (٢١٢)

المتقف والسلطة (٢)

(٢)

الطريق!

فى الفصل الثانى من كتاب المفكر العربى الكبير إدوارد سعيد الذى ترجمه الدكتور محمد عنانى إلى العربية من الإنجليزية تحت عنوان : المتقف والسلطة - يتحدث الكتاب عن " استبعاد الأمم والتقاليد " .. والأمم فى المقاييس الحالية لم تعد فقط الأمم الأوروبية، فقد أدى تفكيك الإمبراطوريات الاستعمارية العظمى، ونشأة العالم الثالث، والتحرر العالمى، والسرعة المذهلة فى الانتقال والاتصال، إلى إيجاد وعى جديد فى رقعة أوسع، وإلى أمم حاضرة غير الأمم الأوروبية، مما صار معه التعميم فى الحديث عن المتقفين والمفكرين - لا يعبر عن التنوعات التى يحفل بها عالم اليوم خلاف الأمس الذى كان محصوراً فى أوروبا .

ذلك كله، مع اختلاف القوميات والأديان واللغات والثقافات والحضارات فى قارات الأرض، أدى إلى شحوب صورة المفهوم العالمى لمعنى المتقف أو المفكر، ومع ما يفرضه ذلك من تعددية تتضح على المتقف تبعاً لمحيطه، فإن أخطر ما وقعت فيه الثقافة أو الحضارة الغربية، أنها اختزلت العالم الإسلامى فى مصطلح واحد لا يحيط بأن عدد المسلمين يزيد الآن على ١,٥ مليار مسلم، فى قارات مختلفة، يتحدثون بست لغات كبرى من بينها العربية والتركية والفارسية .

ومن ثم يكون تعميم الغرب في الحديث عن هذا العالم الكبير - اختزالاً لا يغطي ما فيه من تنوع، ويستبعد أمماً وتقاليداً من الفهم الغربي للعالم الإسلامي، وهلم جرا .

يتوقف الدكتور إدوارد سعيد، عند مآشيه في عدد كبير من بلدان العالم الثالث من تصاعد أصوات العداة والتناقض بين سلطات الدولة القومية التي تحرص على الوضع الراهن، وبين السكان المستضعفين " المحبوسين " داخلها .. فهي لا تمثلهم بل تكتم أصواتهم، الأمر الذي يفرض على المتقف ويتيح له في نفس الوقت فرصة حقيقية لمقاومة استمرار الغالبين . نرى في العالم الإسلامي وضعاً أشد تعقيداً من ذلك، استشرت فيه الشللية وجماعات المصالح التي اتخذت السلطة شوكة لها مما أضاف إلى المتقفين أعباءً متزايدة في التبصير ومقاومة هذا التحوصل الذي يضرب حريات ومصالح الشعوب !

هذا الاستبعاد لأمم بأسرها، أو لطوائف أو أقليات أو لمغلوبين على أمرهم، يوازيه ما أسماه الفصل الثالث من الكتاب : مَنفى المتقفين : المغتربون والهامشيون . يشبه هذا الفصل اغتراب المتقفين وتهميشهم وتهميش أدوارهم بأنه يوازي النفي في أثره، لأنه يعزل المتقف أو المفكر عن المحيط، ويقلص أثره، ويجعله كالحاضر الغائب، أشبه بمن يعيش في منفى بخارج بلاده، انزاله وإن كان معنواً، إلا أنه أمرٌ وأمضٌ من العزل المادى بخارج الديار . الاغتراب واليأس والسقوط في وهدة الإحباط واللا جدوى، هو كالنفي وأكثر في اغتراب المتقفين أو المفكرين وتهميش أى أثر لهم في النقد والتبصير والإصلاح !

إلى جانب هذا الاغتراب أو التهميش، شهد العالم في النصف الثانى من القرن الماضى "إعادة ترتيب" لأقاليم بل لأوطان ودول العالم، أدت إلى تفريغ وانتقال شعوب إلى خارج أوطانها . أظهر الأمثلة على ذلك تَشَتيت الفلسطينيين أو إبادةهم، لتفريغ الأرض لإنشاء إسرائيل وإفساح المجال لموجات المهاجرين اليهود القادمين من أوروبا وآسيا . وقد أدت هذه

التحولات بدورها إلى أشكال " مهجنة " من الصيغ السياسية نرى آثارها الآن فيما يجرى على الساحة من حولنا !

ترى ما هو مجال حركة المنقّف فى التعامل مع هذا الواقع ؟! .. للإجابة عن هذا التساؤل يفتح الدكتور إدوارد سعيد قِصَتَيْن : قضية المراوغة السياسية، وهى فن مريب يكفل عدم اتخاذ موقف واضح لضمان البقاء والازدهار فى الوقت نفسه، والقضية المعاكسة التى تبلور ما يجب على المنقّف الذى لا يقبل التكيف بسبب المنفى، ويختار أن يظل خارج التيار الرئيسى، مدافعا عن مقاومته وحاميا لها من الاستقطاب الذى يفرغ مضمونها ويعوق أثرها ! .. وهنا يحذر الدكتور إدوارد سعيد من وقوع المنقّف - تحت ضغط ما يواجهه - فى براثن عرض مرضى مظهره أن فكرة الشقاء تسعده، وهنا ربما تحول المنقّف إلى جعجاع هائج أو إلى ظاهرة كلامية صوتية خالية من المضمون والفعل !

المزية المقابلة لوجود المنقّف فى المنفى المجازى، أنه يكون أقرب إلى تبصر الأمور .. هذا هو الذى يقيه من اتخاذ موقف " هامشى " وغير " مستوعب " فى بيئته فيصير كالذى يقيم فعليا فى المنفى، ويحدوه إيثار المخاطرة والتغيير على المعتاد المألوف، وإلى التجديد والتجريب لا إلى الوضع الذى تملّيه السلطة .. محفوزا متحليا بالشجاعة والجسارة اللتين تدفعانه إلى الأمام !

من

تراب (٢١٣)

المتقف والسلطة (٢)

الطريق!

(٣)

يقصد المفكر العبقري، إدوارد سعيد، بالمحترفين الهواة، الذى اتخذه عنواناً للفصل الرابع من كتابه : " المتقف والسلطة " - يقصد تصنيف المتقفين تصنيفاً يعرف بالفارق بين المتقف المحترف الذى قد يدفعه أو يحكمه أو يؤثر فيه احترافه ودواعيه، وبين المتقف الهاوى الذى لا يفيدته شىء من الاعتبار التى تحوط بالمحترف ..

يبدأ إدوارد سعيد هذا الفصل باستعراض كتاب بعنوان " معلمون وكتاب ومشاهير : المتقفون فى فرنسا الحديثة " للمفكر الفرنسى ريجيس ديبراى . فكرته أن المتقفين الباريسيين فيما بين عام ١٨٨٠ و ١٩٣٠، كانوا مرتبطين أساساً بجامعة السوربون، لاجئين علمانيين فارين من بطش الكنيسة والنزعة البونابرتية، وفى حماية لقب الأستاذ والعمل فى قاعات الدرس والمختبرات والمكتبات، يستطيعون إحراز المراتب للمعرفة الإنسانية فى ظل هذا الاحتراف، بيد أن السوربون بدأت تفقد سلطاتها تدريجياً بعد عام ١٩٣٠، وانتقل مركز الثقل إلى دور النشر الجديدة التى وفرت " مأوى " لهذه " الأسرة الروحية " من المتقفين المحترفين أمثال : سارتر، وسيمون دى بوفوار، وألبير كامى، ومورياك، وأندريه جيد، وأندريه مالرو وغيرهم ممن صاروا يمتلكون الفئة المتقفة التى حلت محل فئة الأساتذة الجامعيين . ثم منذ نحو عام ١٩٦٨ طفق المتقفون

(٢) المال ٢٠٠٩/٢/١٩

يتركون " حظيرة " دور النشر إلى أجهزة الإعلام الجماهيرية كالإذاعة والتلفزيون، والتي أحاطت طبقة المثقفين المحترفين بالجماهير التي صارت بدوائرها الواسعة المصدر المؤثر للشرعية الفكرية.

والوضع الذي تحدث عنه ديبراى فى كتابه، مصبوغ بالصبغة المحلية فى فرنسا، ولا ينطبق بالضرورة على غيرها من البلدان، فماذا يريد إدوارد سعيد ؟ . نراه ينتقل إلى محوره الرئيسى فى رسم صورة وتصنيف المثقف، وينبه إلى أن التركيز فى رسم الصورة ينبغى أن يميز بين صورة المثقف الفرد من ناحية فرديته، وبين المجموعة أو الطبقة التى ينتمى إليها الفرد . هذا التمييز هو الذى يعطى المؤشر الحقيقى فى توقعاتنا لخطاب المثقف، هل هو رأى مستقل صادر عن الفرد، أم يمثل حكومة أو تنظيمًا أو حزبًا أو قضية أو جماعة من جماعات الضغط .

تتصل بهذه القضية، مساحة حرية المثقف ومقدار استقلال رأيه وبعده عن أى ألوان للضغوط . لذلك فهى تستغرق مساحة كبيرة من تجوال إدوارد سعيد الممزوج بأمثلة واقعية فى الحاضر وفى الماضى القريب .. تتجلى فيها ثقافة الكاتب الأدبية والنقدية، وقوة عارضته، وكثرة اطلاعاته.

أحب أن أتوقف معه ومعك عند ما نقله الفيلسوف الإنجليزى الشهير برتراند راسل، فى اللحظة التى نادى فيها سارتر بأن يتمتع كل فرد بحرية اختيار مصيره، فإن الأوضاع الحالية تحول دون الممارسة الكاملة لهذه الحرية . على أنه يستدرك بقوله إنه من الخطأ - رغم هذا - القول بأن البيئة والأوضاع هى التى تحدد وحدها مصير الكاتب أو المثقف .

على أن سارتر لم يقل فى كتابه " ما الأدب " الذى يقتطف إدوارد سعيد بعض عباراته - لم يقل إن المفكر أو المثقف فى منزلة الفيلسوف الملك المنعزل، بل هو على العكس يخضع دائما لمطالب مجتمعه، ويتفاعل ويتجاوب معها.

والضغوط التي تحاصر المثقف أو المفكر أو الكاتب بعامة، هي ضغوط متنوعة الأسباب والظروف ما بين التخصص والمهنة، وضغوط الإحتراف، وضغوط السلطات، وقيود النشر ومساحاته وإطار المسموح وغير المسموح فيه .. وعلى هذا فإن المشكلة التي يواجهها المثقف أو المفكر متعددة الوجوه ومتنوعة الأبعاد، واجبه أن يحاول التعامل معها بما يحفظ له حريته إزاء ما يلقاه من ضغوط وحصار! .. لاغناء للمثقف عن الصدق مع نفسه ومع الآخرين في خطابه، وعن أن يحفظ لنفسه حريتها في مواقفه وفي خطابه للسلطة !

من

تراب (٢١٤)

الطريق!

المتقف والسلطة (*)

(٤)

قول الحقيقة للسلطة، هو عنوان الفصل الخامس لكتاب المفكر العربى الكبير إدوارد سعيد . وفى هذا الفصل يفتح المؤلف قضية بالغة الأهمية، مدخلها أنه كالمعتاد فى أى مهمة فردية أو جماعية أو مجتمعية، فإن الموكله إليه أو إليهم، يختار أو يختارون للمعاونة من يشاركون فى الولاء وفى الآراء وفى اللغة نفسها، وهو مايجرى وربما بمقاييس أكثر صرامة فى عالم السلطة والسلطان . فماذا يفعل المتقف إن جاء احترافه المهنى وسط هذه المنظومة التى تودى بمقاييس الولاء للسلطة، وتلتزم بأرائها وتوجهاتها وسياستها ولغتها .

لا مشكلة إذا تخلى المحترف عن عطاء المتقف، فهو سينضوى وبلا حرج فى المحيط الذى وضع فيه، يعزف ذات الألحان ويتكلم ذات اللغة، فماذا لو أراد أن يستمسك بصفات المتقف الحقيقى؟! . إن الإغراء بتعطيل الحاسة الأخلاقية والانحصار فى التخصص الدقيق، وفوائد مجارة التيار - إغراء كبير، يضمن السلامة والصعود والترقى، ويغلق أبواباً تحمل رياح المتاعب! والكثير من المتقفين يخضعون خضوعاً تاماً لهذه الإغراءات؟ ربما كانت الإجابة القريبة، وتواصلاً مع ما سبق أن أبداه الدكتور إدوارد سعيد عن الهوية والاحتراف، هى إثثار الهوية وحرياتها على الاحتراف وقيوده . ولكن الاحتراف فى العمل والوظيفة وما شابه - يكاد

(*) المال ٢٠٠٩/٢/٢٣

يكون أحيانا من ضرورات الحياة ! هنا يطرح الدكتور سعيد تجربته الشخصية العملية، وكيف رفض أن يعمل مستشاراً يتقاضى أجراً تحاشياً أن يقتصر على من استوظفه وعلى لغته السياسية المستخدمة، وكيف أمكنه لحماية أفكاره وآرائه أن يفضل المحاضرات الجامعية على ما عداها، وأن يقبل الحديث في المناسبات للجماعات الفلسطينية أو الجامعات في جنوب أفريقيا المناهضة للفصل العنصري والمناصرة للحرية الأكاديمية، وكيف ارتأى أن دراسته " المهنية " للأدب، لا تلزمه بالابتعاد عن شئون السياسات العامة، وكيف أن "هوايته" للشأن العام حفزته دوماً على تجاوز حياته العملية المهنية إلى الرحاب العامة التي يدلى فيها بما يشاء متخففاً من قيود الاحتراف.

هذا بالبداية مجرد مثل، انطبق على حياة الدكتور إدوارد سعيد وإمكانياته الحرفية والعامة، والمحيط الذي عاش فيه، واتساعه لهذه وتلك، وعدم خلطه بين حق الفرد في تناول الشأن العام بلا تقييد أو مصادرة عليه في حرفته أو انتقام يلاحقه بأشكال مرئية أو خفية، ولكن ذلك قد لا يتاح في حرف أو مهن أخرى، وقد يأباه المحيط، وقد تضيق السلطة الخناق عليه !إن الحرية والمناقشة العميقة العنيدة هما جوهر نشاط المثقف، فكيف الحفاظ عليهما في محيط يضيق بالمصارحة وبكل رأى آخر؟!

هل هي حيرة أم مأزق يواجهه المثقف المحترف، وما هو السبيل للخروج ؟! هنا تطفو ثقافة الدكتور إدوارد سعيد الموسوعية، فيطوف مع كتاب ضخّم للمؤرخ الأمريكى بيتر نوفيك أصدره عام ١٩٨٨ بعنوان : " الحلم النبيل "، تناول فيما تناوله فيه كيف أن البحث عن المثل الأعلى للموسوعية، قد بات يعترضه الآن مستتق موحل من المزاعم والمزاعم المضادة !

إن التفرعات العديدة الموجودة فيما جرت به المذاهب والأيدولوجيات، قد أدت إلى غياب شبه كامل للقيم العالمية، والمشكلة

الأساسية تتمثل فى كيفية التوفيق بين هوية المرء الخاصة وحقائق ثقافته ومجتمعه وتاريخه من ناحية، وبين حقائق الهويات والثقافات والشعوب الأخرى . وفيما بين المثقف والسلطة فى وطنه، فإنه مع الإقرار بأنه لا يستطيع أن يرفع صوته للتعليق طول الوقت على جميع القضايا، إلا أن أمامه واجباً خاصاً يتمثل فى مخاطبة السلطات المسؤولة عن إدارة شئون الوطن، بما يتوجب صدقاً وحقاً مخاطبتها به، والغاية من ذكر الحقيقة فى مجتمع يعتمد على الإدارة الجماعية، هى فى المقام الأول تقديم صورة أفضل لما ينبغى أن يكون عليه الواقع، وبحيث تقترب هذه الصورة اقتراباً أكبر من تجسيد القيم والمبادئ الخلقية، كالحرية والعدل والسلام والمساواة. سوف يستطيع المثقف أن يؤدى هذه الرسالة إذا لم يقع فى براثن "التوافق" أو "التفادى" أو "الخوف" .. وأيضاً إذا فارق الانتهازية والوصولية.. إن قول الحقيقة للسلطة، ليس ضرباً من المثالية الخيالية، بل إنه يعنى إجراء موازنة دقيقة بين جميع البدائل المتاحة، واختيار البديل الصحيح وتقديمه بذكاء فى المكان الذى يحدث التغيير الصائب.

من

تراب (٢١٥) المثقف والسلطة (*)

الطريق! (٥)

عن دائمى الخذلان، اختار إدوارد سعيد موضوع الفصل السادس والأخير من كتابه "المثقف والسلطة"، اختار مثلاً لمن أسماهم "أرباب دائبة الخذلان". المثل المختار مفكر إيراني لماع الفصاحة ذو شخصية جذابة، تعرف عليه عام ١٩٧٨. كان صاحب دور مهم فى التعريف بسلبيات حكم الشاه، وسرعان ما انخرط فى الشخصيات الجديدة التى برزت والتفت حول الخومينى. صورته التى انطبعت فى ذهن الدكتور سعيد أنه رجل مهذب ألزم نفسه بالنظام الجديد وجعل يدافع عنه بل "ويخدمه" باعتباره مبعوثاً مخلصاً من الخارج. وفضلاً عن أنه مسلم ملتزم وغير متعصب، فإنه كان بارعاً فى الرد على المتشككين الذين يهاجمون حكومته الجديدة.. كان يفعل ذلك باقتناع وحرارة مبدية القدرة على التمييز بين ما ينبغى وما لا ينبغى، ولكن دون أن يترك ذرة شك فى أن الإمام الخومينى كان ويجب أن يكون صاحب السلطة فى إيران، وبلغ من درجة ولائه أن رفض فى زيارة لبيروت مصافحة أحد القادة الفلسطينيين لأنه كان قد انتقد الإمام!

أتت الدائرة الدوارة، عبر استقالته من منصب السفير لدى مدينة مهمة، ليعود إلى إيران مساعداً خاصاً للرئيس بنى صدر الذى خسر فى النهاية معركته مع الإمام الخومينى الذى طرده فلجأ إلى المنفى، ولحق به السفير المفكر الإيرانى اللماع، ولكنه لم يلبث بعد مدة وجيزة أن انقلب انقلاباً حاداً

(*) المال ٢٠٠٩/٢/٢٤

فجعل ينتقد أحوال إيران في ظل الخوميني علنا وبصوت مدوّ، ويهاجم الحكومة والرجل الذي كان يخدمه على ذات المنصات في لندن ونيويورك التي سبق أن دافع عنه من عليها !! ولكن دون أن يفقد موقفه الناقد للدور والإمبريالية الأمريكية !

وفجأة، في انقلاب أشد، بدأ الرجل بعد حرب الخليج ١٩٩١ بعدة شهور، يدافع هذه المرة عن الحرب الأمريكية ضد العراق، زاعما مثل ما يقوله أرباب اليسار الأوروبي إنه إذا نشب الصراع بين الإمبريالية والفاشية فينبغي الانحياز للإمبريالية .

هذه الأقصوصة، فيما يفصله الدكتور إدوارد سعيد، تلخص إحدى المعضلات التي تواجه المثقف أو المفكر المعاصر الذي لا يقتصر اهتمامه بالحياة العامة على الجانب النظري أو الأكاديمي، بل يتضمن المشاركة المباشرة أيضا . فإلى أي مدى ينبغي للمثقف أن يمضي في هذه المشاركة ؟! وماهى الحدود والأطر والأهداف ؟ .. كيف يكفل المثقف لنفسه المساهمة ويتجنب ألم التعرض فيما بعد للخيانة وخيبة الأمل ؟! . هل يستطيع المرء أن يحتفظ باستقلال فكره وأن يتجنب في الوقت نفسه التعرض للآلام المبرحة التي تصاحب الإقرار علنا بارتداده واعترافه بذلك ؟!

يحذر الدكتور سعيد من عبادة الأبطال، بل ومن فكرة البطولة ذاتها عندما تضافى على الزعماء السياسيين .. يروى المؤلف تجربته الخاصة كفلسطيني يحمل الجنسية الأمريكية، وكيف وقد شغل موقع العضو المستقل في البرلمان الفلسطيني في المنفى، وهو المجلس الوطنى الفلسطينى - كيف ظل يعتبر عن التضامن بل والتحدى، ويرتبط بالكفاح الذى يقاوم السياسات الإسرائيلية ويدعم حق الفلسطينيين فى حق تقرير المصير، دون أن يتخلى عن الفكرة والمبدأ انحيازاً أو عبادةً لشخص أو أشخاص ! .. لم يتردد فى أن ينتمى إلى الأقلية الضئيلة عدداً حين رأى أن الصفقة التي أبرمت فى أغسطس ١٩٩٣ بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية - لا تعدو أن

تكون استسلاماً لإسرائيل ! وهو قد أخذ نفسه على معارضة عبادة 'ي'
رب سياسى، فذلك سلوك لا يليق بالمتقف أو المفكر .. وهذا لا يعنى أن
على المفكر أن يظل واقفاً على حافة الماء بحيث لا يصيبه البلل، أو أن
يتذرع باحترافه الثقافة للابتعاد والانفصال بسبب مهنته، وإنما عليه أن
يتمسك بالهوية التى لا يحفزها مكافأة أو فائدة، بل يدفعها " الاشبك "

الملتزم بالأفكار والقيم فى الحياة العامة .

إن المثل الأعلى للمتقف أو المفكر هو أن يمثل التحرر والتنوير، لا فى
المطلق من المجردات أو من الأرباب النائية ذات اللون الشاحب، بل فى
ارتباط دائم بحياة المجتمع، وكعنصر حى من عناصرها يعبر عن حياة
الفقراء والمحرومين ومن لا يمثلهم أحد أو يسمع أصواتهم أحد فى أروغة
السلطة .. هنالك يغدو المتقف أو المفكر تعبيراً صادقاً حياً عن المجتمع، لا
يقع فى براثن مغريات السلطة أو أسر عبادة أربابها تحت وهم البطولة
والأبطال !

من

تسابيح ! (٢)

تراب (٢١٦)

الطريق!

باسمك اللهم .. نُسَبِّحُ بملء الفم والفراد مع كل نفس فينا يتردد، وكل نبض يخفق .. نحمدك اللهم أنْ أحييتنا بعد ما أمتنا .. وإليك النشور .. نحمدك إن رددت علينا أرواحنا وعافيتنا في أجسامنا وأذنت لنا بذكرك .. فأعنا اللهم على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .. وثبت اللهم قلوبنا على دينك، وعزائمتنا على صراطك ..

* * *

باسمك اللهم .. توكلنا عليك ولا حول ولا قوة إلا بك .. فاجعل اللهم في قلوبنا نوراً، وفي أبصارنا وأسماعنا نوراً .. واشرح لنا صدورنا وطهر قلوبنا، وصنّف نفوسنا، وأزير بسراج الهدى بصائرنا ..

باسمك اللهم .. ندعوك يا سابع النعم ودافع النقم أن تجعل لنا في كل ضائقة فرجاً، وأن تيسر لنا بقدرتك من الصعاب مخرجاً .. ونسألك يا حي يا قيوم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أن تجعل قرآنك المبين ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء حزنا وذهاب همومنا .. وأن تقطر أخلاقنا وسجاياتنا وفعالنا على ما أودعته بها سبحانه من عظيم الحكم وبليغ البيان .. ونضرع إليك يا رحمن يا رحيم بحق نبيك المصطفى عليه أكرم الصلاة والسلام، أن تعافينا من المحن وعوارض الفتن .. وأن توسع لنا في أرزاقنا، وتصل بيننا وبين نعمك بالحلال الذي ترضاه لنا .. يا واسع يا عليم ...

* * *

(٢) المال ٢٥/٢/٢٠٠٩

باسمك اللهم .. نضرب في بقاع أرضك، نحمل معنا أحلامنا وآمالنا .. وعزائمنا أيضاً .. نبذل بالعزيمة، ونرنو إلى آمال طويلا عليها القلب .. نتوسل إليها بالكذب والعرق .. عرق العاملين .. ونقترب منها بالدأب والإصرار .. تاج المكافحين ..

قد استودعنا لديك يا إلهي كل عزيز لنا، وكل أمل راود الفؤاد منّا .. وندعوك يا ربنا أن تيسر لنا سبيلنا، فلا سهل إلا ما جعلته سبحانه سهلاً .. ونسألك أن توازننا بيدك، وتسدننا بقوتك، وتسخر لنا من الأسباب ما يصلنا بآمالنا ..

* * *

اللهم .. ولا تدعنا لضعفنا، ولا تترك نجاحاً يُدير رؤوسنا ويُدخل الغرور المقيت إلينا .. ووطنُ اللهم نفوسنا على العرفان بك، والتواضع لخلقك .. كل خلقك .. وادراً عنا يا إلهي همزات الشيطان، وخمر العجب، حتى لا تُفسد نفوسنا، وتتقطع صلاتنا، ويُصيب الفشل أعمالنا ..

وهبنا اللهم حكمة نعرف بها أن كل حبة عرق في لحظة عمل هي إكليل غار على رؤوسنا .. وإننا مهما علا شأننا ضعاف إليك، عائدون بقوتك ورحمتك ...

* * *

باسمك اللهم .. نعوذ بعلمك من جهلنا، وبغناك من فقرنا، وبعزك من ذلنا، وبحولك وقوت من عجزنا وضعفنا .. ونعوذ اللهم بمغفرتك من عقابك .. وبرضاك من سخطك .. ونعوذ بك منك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك .. ونعوذ اللهم بك من مُنكرات الأخلاق والأعمال والأهواء .. ونسألك اللهم أن تصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودينانا التي فيها معاشنا، وآخرتنا التي فيها معادنا .. ونتوسل النعم إليك ألا تجعل عيشنا كدأً بغير ثمر .. ولا تدع دعاءنا نداءً بغير جواب .. نضرع إليك بحق نبيك الكريم أن تقبل ما سألناك وتُجيبنا إلى ما دعوناك ...

* * *

اللهم .. اقض عنا التبعات .. وأسكننا أعلى الجنات واسقنا من كوثر

المعرفة بربوبيتك .. يا أول يا آخر، يا باطن، يا ظاهر، شريعتك
مقنسة، ومعجزاتك باهرة .. أنت الأول في النظام والآخر في الختام
والباطن في الأسرار والظاهر في الأنوار .. أنت سبحانك جامع الفصل
وخطيب الوصل وصاحب الجمال والجلال والإكرام ...

من

تراب (٢١٧) كيفية امتطاء جواد الحياة ؟! (*)

الطريق!

لا يكف الأدمى عن التفكير فى غده ومستقبله، ماذا ينتظره أو ماذا يخبئ له، أو ماذا يرجوه فيه أو منه .. والتفكير فى المستقبل والتبصر له قديم جداً كدافع فردى ربما نراه وراء إنشاء الأسرة واستئناس الحيوان وتربيته، واختيار الموطن، وممارسة الزراعة والدفاع عن الحيازة والملكية.

أما تفكير الناس فى مستقبل الجماعة كجماعة، والتفطن المستمر إلى أهمية مستقبل الجماعة وأثره وانعكاسه على مستقبل الفرد - فشىء حديث نسبياً لم يصبح عادة شائعة أو خلقاً أو سلوكاً معتاداً أو سمة متبعة فى تربية الأفراد وتعليمهم .. ولم يحصل بعد على اعتراف المجتمع بقيمته كفضيلة أو مزية خاصة ترفع من شأن صاحبها فى البيئة والمحيط، ولا يزال هذا التفكير مبهماً غير حاضر بوضوح، أو قل إنه محمول على معنى المصلحة العامة أو على معنى الوطنية.

لم يع الناس بعد، وعياً كافياً، واقع وطابع حياتهم " الفردية " فى هذا العصر، وأن حياتهم عملاً - لم تعد " فردية " بالمعنى الذى كان لها فى العصور الماضية .. لأنها صارت فى عصرنا تعتمد اعتماداً كلياً حتى فى الماء والهواء - على نوع وكفاية حياتهم المشتركة كجماعة تعيش فى بيئة .. وهذا الاعتماد الشامل لن يتناقض بل سيزداد بازدياد اعتماد الجماعات والبيئات على بعضها البعض فى منات الحاجات والأغراض.

(*) المال ٢٠٠٩/٢/٢٦

فكل تفكير من جانب الفرد فى مستقبل نفسه ومن هم فى حكم نفسه -
يجب فى هذا العصر - أن يبدأ من التفكير فى مستقبل الجماعة والبيئة
اللّتين يعيش الفرد فيهما .. فهو مهما اشدت عوده، أو قويت إرادته
وإمكانياته، أو تنوعت أساليبه ووسائله - جزء من هذه الجماعة وبيئتها،
يتأثر بها - وقد يؤثر فيها - شاء أم لم يشأ، وهى لابد منعكسة بإيجابياتها
وسلبياتها ونجاحاتها وعثراتها عليه .. هذا الواقع يفرض أن
لا يجتزئ الفرد نفسه أو تفكيره من الجماعة أو المحيط، وهذه الغاية
تستلزم أن يتابع مسار الجماعة وأن يحصل على المعلومات الكافية
والانضباط الكافى فى الجماعة والبيئة .

لم يعد فى مقدور أحد أن ينفرد بذاته مهما قويت ومهما بلغت ثقته فيها،
ولم يعد فى وسع أحد أن يعود بحياته إلى طابع الفردية الذى كان موجوداً
فى العصور الماضية، إلا أن يكون بقية شاردة من بقايا جماعة فى طريقها
إلى الانقراض تعيش فى صحراء أو غابة استوائية مقطوعة الصلات
بالعالم المعاصر .. لا يفكر فيها العالم ولا يُعنى بها لأنه لا يجد مصلحة له
عندها تستدعى اهتمامه أو تشد انتباهه .. لذلك فوجودها موقوت محدود
بمقدار المدة التى يسمح بها إهمال العالم لها وعدم النفاذ إليها .

والدول قريبة بشكل ما من مصير هذه الجماعات إذا خرجت عن دائرة
العصر وعاشت معزولة فى الماضى عن الواقع المحيط، فيتآكل تأثيرها
والتأثير فيها، وتبitt معزولة عن العالم انعزالاً ضريراً كشأن اليابانى
الذى ظهر فى إحدى الغابات بعد أكثر من عشرين عاماً من نهاية الحرب
العالمية الثانية، لا يعرف شيئاً فى عزلته عن العالم مما جرى وكان فى
هذه الأعوام الطوال، وعلى اعتقاده الذى نام عليه - يوم العزل - فى
الإمبراطور الذى كان على رأس الدولة وفرضت عليه قنبلتا هيروشيما
ونجازاكى أن يرفع راية التسليم بلا قيد ولا شرط !

لا حياة لمن ينعزل عن واقع الحياة، وحركة التاريخ .. الحياة فى
صيرورة دائمة، يخسر ويتخلف من لا يمتطى جوادها ويسير بصيراً
متقنطاً فى موكبها الذى لا يكف عن الحركة !

من

نراب (٢١٨) تقرير الخارجية الأمريكية ! (٢)

الطريق!

(١)

خرجت علينا الخارجية الأمريكية، كعادتها كل عام، بتقريرها السنوى عن حقوق الإنسان فى العالم باستثناء الولايات المتحدة ذاتها، فالكى تحت الرقابة والمتابعة عداها، فهى من طبقة فوق الطبقات، وما يجرى فيها فى معتقلاتها - وليس معتقل جوانتانامو أشهرها - فلا شأن لأحد به، وكيف وهى حاكمة العالم ومالكة مقاديره ومقادير دوله وشعوبه وكل من دب على الأرض أو حملته بطن أو طار به جناح أو اختفى تحت أمواج البحر !

وكعادة التقرير اختص مصر بعنايته ونقده وتعقيباته .. فقانون الطوارئ لا يزال ساريا، وقوات الأمن استخدمت عنفا مميتا غير مبرر، وعذبت وأساءت معاملة المسجونين والمعتقلين دون مساءلة، وانخفض احترام الحكومة لحرىات الصحافة وتكوين الجمعيات والحرىات الدينية، وزدت قيود الإعلام بما فى ذلك المدونون، وتراجعت حقوق الإنسان خلال عام ٢٠٠٨ عما سبقه، مع ارتكاب قوات الأمن لكثير من انتهاكات حقوق الإنسان، وفى الوقت الذى انتقد التقرير ما أسماه بتدخلات للسلطة التنفيذية فى شئون القضاء، فإنه تفضل بالثناء على ما بذلته الحكومة المصرية من جهود كبيرة وفعالة لمكافحة ختان الإناث، وإصدارها وتنفيذها تشريعات تجرمه، بالإضافة إلى صدور أول حكمين فى جرائم التحرش الجنسى !

(٢) المال ٢٠٠٩/٣/٢

ولا يستطيع المرء أن يخفى اندهاشه من هذه للفاعلية الأمريكية المتعدية، ولا ما يكشفه النقد والثاء من تدخل مستمر فى صميم شئوننا الداخلية، حتى فى مسألة حساسة ك شأن ختان الإناث الذى ينبو من الإطراء أن أمريكا كانت طرفاً حاضراً فى تجريمه !.. ف نحن فى بلدنا نقول هذا كله وزيادة عن حقوق الإنسان المهيضة فى بر مصر، ولكنه حقنا لا حق صاحبة المقام الرفيع الولايات المتحدة الأمريكية، ونحن من قديم نواجه عادة " ختان الإناث " بما تستأله واضعين فى اعتيننا كثيراً مما لا يستطيع غيرنا أن يقدره كتقدير أهل مكة الأثرى بشعبها، ونحن نحب أن نعاتب حكومتنا وسلطاننا عن أى تجاوزات تمس الحريات وحقوق الإنسان، ولكننا لا نسيغ ولا نقبل الرقابة الأمريكية المتطفة علينا سواء بالنقد أو بالحمد والثاء كما فعلت بالنسبة للختان !

لا يمارى عاقل فى أن التقرير صائف الواقع فى أمور كثيرة، منها: الاعتقالات والانتهاكات وملاحقة الصحافة فيما لا يرضى، ونحن مالم يقله أو يرصده التقرير، أن هناك جنوحات فى بعض الممارسات الصحفية عن ميثاقها، بلغت أحياناً الترويج لبراءة مطلوبة لا تصنف محنية .. يلحظ المراقبون أنه جارى الترويج لها على أصعدة مختلفة وبأساليب لا تفقد التنسيق .. شارك فيها - ربما لأسباب أخرى - بعض الصحف الخاصة !

ظنى أيضاً أن مالم يقله التقرير أن هناك إسرفاً لا يصنف محنه فى حظر النشر على قضايا ربما كان الأجدر ليعتد الجميع - أن تترك البحيوحة للنشر ليعرف الناس كيف يجمع بعض الأغنياء وكيف شجعت الثروات الفلكية على الاستهانة بكل شىء حتى بأرواح الناس !

من

تـرـاب (٢١٩) تقرير الخارجية الأمريكية ! (٢)

الطريق!

لا أعتقد أن تقرير الخارجية الأمريكية صادف الحقيقة فيما أورده عن وجود تراجع في الحريات الدينية في مصر .. فيستطيع المراقب أن يلمح ارتفاعاً ملحوظاً جاوز الاعتدال أحياناً في سقف الحريات الدينية، ولست بهذا أعنى الطقوس والشعائر، فهي كانت ولا تزال محل احترام وتتمتع بحرية واسعة لجميع الأديان بلا أى قيود، وإنما أعنى حرية التناول والتقارع والاحتجاج أحياناً والمقاضاة والضغط حتى كادت بعض الممارسات تؤدي - وقد أدت أحياناً - إلى احتقانات طائفية لسوء أو عدم توفيق التناول فيما قد يثير أطرافاً ويؤدي إلى مشاكل أو انعطافات لا يمكن معها أن يقال إن سقف الحريات الدينية قد انخفض في مصر !

ولا يمارى أحد في أن هناك اعتقالات لا يقرها القانون، وملاحقات لبعض النشطاء، ولكن ليس صحيحاً ما ورد في الأجندة الأمريكية التي تصنف في هذا المضمار أشخاصاً بعينهم تربطهم بها أو تربطها بهم علاقات وصلات ومصالح محل نظر في الشارع الوطني المصري، وليس صحيحاً تصنيف هذه الأجندة الأمريكية لقضايا جنائية بحثة في قالب سياسي، وهي مغالطات لا تفوت على أحد مهما صاحبها من صخب عال وإعلام أكثر لغطاً قاصداً كان أو مخدوعاً، سيما حين تكون الوقائع جنائية صرفاً تدخل في باب الجنايات ولها سوابق ظهرت في مناسبات ووقائع أخرى سابقة، وهذا يطرح وسيظل يطرح آفة صناعة النجوم، ولا بأس من

(*) المال ٢٠٠٩/٣/٣

صناعة النجم التي تصادف محلها، ولكن الملحوظ أن هناك صناعات مشبوهة الغرض لصناعة نجومية غير مستحقة، تشارك فيها أمريكا ذاتها وتشارك فيها بغير تبصر السلطات المحلية وتركيبها رغبات الطبل والزمير عمال على بطل .. حتى مل العقلاء من افتعال تضخيم أقزام .. وربما ما دون ذلك من ناحية المصداقية والسلوك .. حتى صار الطفو إلى السطح صدى غير واقعى لصناعات بعضها خبيث وبعضها ضرير !!

ولا يمارى عاقل فى أن حالة الطوارئ أو ما يسمى بالأحكام العرفية قد باتت حالة مزمنة من سنوات بعيدة لم ترفع فيها إلا فى مايو ١٩٨٠ حتى ٦ أكتوبر ١٩٨١، واستغلت الحكومة رفعها لسن قانون محاكم أمن الدولة ١٩٨٠/١٠٥ بحجة ملء الفراغ الناجم عن إلغائها، واستغلتها أيضا فى إضافة مواد دائمة إلى المدونة العقابية وإلى قانون الإجراءات الجنائية ظلت سارية بالطبع ولم يفكر أحد فى إلغائها حين أعيدت حالة الطوارئ فى أكتوبر ١٩٨١، ومن ثم صارت مصر محكومة بقانونى محاكم أمن الدولة، أحدهما الأصلى المسمى بقانون الطوارئ والذى عاد بإعلان حالة الطوارئ فى أكتوبر ١٩٨١، وثانيهما قانون محاكم أمن الدولة البديل (١٠٥ / ١٩٨٠) الذى ظل ساريا مع مواد ملء الفراغ حتى ألغى عام ٢٠٠٣، ولكن أعيد استغلال إلغائه مثلما حدث عند وضعه بمناسبة إلغاء حالة الطوارئ - أعيد استغلال إلغائه فى فرض حزمة أخرى من القوانين العقابية والإجراءات الجنائية المقيدة للحريات والمفتتة عليها وعلى الضمانات، وهو ما يعاد طرحه الآن وللمرة الثالثة بحجة أو ذريعة ما سوف ينجم عن إلغاء حالة الطوارئ من فراغ !!

على أن الغريب هو هذا الاهتمام أو قل الوصاية الأمريكية التى تعطيها الولايات المتحدة لنفسها على دول العالم - فإذا كنا لا نعترض على أى كشف أو تعقيب على ما يئن المصرى من وطأته ومخالفته للشرعية والقانون وحقوق الإنسان، إلا أن ذات هذه المواطنة هى التى تدعو للحفاظ على أى وصاية خارجية أو عقد الأمل على الآخرين فى إصلاح أحوالنا،

فلا أهدافهم أهدافنا، ولا غاياتهم غاياتنا، ومع التسليم بصعوبة ما نواجهه
فى بلادنا، إلا أن مصر أكبر من أن تقر للولايات المتحدة أو غيرها بأى
قوامة أو وصاية رقابية أو إصلاحية!

من

نراب (٢٢٠) خطرات ! (١)

الطريق!

قليل بل من النادر جدا أن يتأمل أحد في خطوات وعيه وتوالد أفكاره واختياراته وقراراته قبل ظهورها - إن ظهرت - إلى حيز التنفيذ. ويبدو لى من تأمل طويل أن جميع الأنشطة الواعية - عاطفية أو فكرية .. مثالية أو نفعية - ليست فى الواقع إلا خطوات وعي .. تسبق وتجهز لعمليات حيوية غير واعية .. تتحقق أو لا تتحقق فعلا.

وهذه العمليات الحيوية لا شأن للوعي بها .. ولا بتحققها أو بفشلها .. لأنها من صميم النشاط الآلى فى الكائن الحى .. هذا النشاط الآلى الذى لا يتوقف على الرغبة والإرادة، بل يتحرك آليا بتوافر الشروط اللازمة لتحركه .. وافقت مراد الكائن أو لم توافقه .. إذ هو لا يحس بتوافر هذه الشروط .. وقد يتوقع أو يتمنى أو يعتقد أنها لا تتوافر أو لا يمكن أن تتوافر !

نجد هذا فيما يتعلق بما نسميه نشاط الأكل أو الشرب أو الجنس أو العمل أو الاتصالات والصلات الاجتماعية .. بل فيما نسميه الصحة وما نسميه القرابة أو ما نسميه الدار والأسرة والوطن، وما نسميه المدنية والحضارة والدين والإنسانية .

فجميع الأنشطة الواعية تعتمد اعتماداً رئيسياً على المخييلة والتقدير المعرضين للصدق والكنب، والتخمين والمجازفة، وحسن الظن وسوءه ..

(١) المال ٢٠٠٩/٣/٤

وفيهما دائما قدر من المبالغة والتطرف .. فى الإمكان تلطيفه بسالئهم والعزيمة، ولكن ليس فى إمكان أحد التخلص من ذلك كلية ..

وقد احتاجت الجماعات البشرية بلا انقطاع - احتاجت لتخفيف احتمالات الحيرة والنزق والإفراط والتفريط - إلى الأعراف والعادات والقيم والأدواق واللباقات وكل ما يندرج تحت كلمة الأصول فى اللغة العامية !

* * *

والآدمى كائن معقد التركيب إلى حد بعيد، وهو لا يعلم اللهم إلا بصورة غامضة - كيف تعمل أجهزته .. وليس لديه وسيلة مأمونة أو مضمونة لمراقبة عملها .. غالبية هذه الأجهزة تعمل آليا وفى الخفاء دون أن يشعر الآدمى بعملها، ولا يتدخل عقله أو إرادته فى عملها أو تعثرها أو توقفها .. ولا سلطان له على شئ من ذلك ..

ويبدو أن القوة العاملة فى الكائن الحى تتوخى الاقتصاد وتقادى الضياع يحكمها قانون " أقل مجهود " .. وتفضل الطريق القصير . وهذه " الآلية " فيها من الانضباط والاقتصاد ما لا يمكن أن توفره علوم وحكمة البشر ولو اجتمعت على ذلك منذ آدم إلى اليوم !

كذلك يبدو أن عقل الآدمى جهاز إضافى لمساعدة أجهزته الآلية على التوافق مع المحيط وتزويدها بامتدادات تجعل حياته أقوى وأغنى على صورة آليات إضافية، أو على صورة تطوير فى آلياته المزود بها خلفاً وأصلاً . ونحن نسمى هذه الآليات الإضافية عادات فردية أو جماعية أو جنسية يشترك فيها النوع بأسره .

* * *

وما نسميه بالعقل - لم يكن له هذا المضمون السائد الآن بين المثقفين، وربما اختلف مضمونه باختلاف الوسط والبلد فى ذات العصر . وإذا اخترنا التعقل المنطقى المتبع فى البحث العلمى - كمضمون للعقل، استبعدنا النظرة الأسطورية أو البدائية أو الميتافيزيقية .

ويبدو أن كلمة " العقلية " أوسع من كلمة " العقل " .. فهى تتصرف إلى

مجموعة القيم والمصدقات والأذواق والمعتقدات فى بيئة معينة فى عصر معين .. منها يستمد الآدمى مقدمات تفكيره وينطلق إلى غاياته، وفى مسالكها وقوالبها وقنواتها تمر أشواقه ورغباته ونوازعه ويعمل جهازه النفسى كله .

ومن هنا كان مضمون كلمة " العقل " عرضة للمغالاة .. ليس فقط فى التحديد، بل وفى الدور الذى يُعزَى إلى العقل فى حياة الأدميين وتاريخهم .. فالعقل أيا كان مضمونه، ومع التسليم بأهميته فى حياتنا، إلا أنه لم يكن قط العامل الواضح أو الوحيد أو الرئيسى فى نشأة النظم وتغييرها وتطورها !

من

تراب (٢٢١)

ألفاظ ومعان ! (*)

الطريق!

من الألفاظ التي كثيرا ما نستخدمها وكثيرا أيضا ما نخلط في معانيها أو أغراض استخدامها - لفظ أو كلمة " المشيئة " .. وكلمة المشيئة أيا كان موضوعها فلسفة أو ديناً أو علماً أو فناً - لا تشير بصفة أصلية أساسية إلا إلى " المشيئة " التي قد تتغير اتجاهاتها وموضوعها بالروية والتفكير

أما ما لا تأثير فيه بناتاً للتفكير والروية - فهو خارج عن " المشيئة " .. وهذه المشيئة هي المقصود الأول المباشر لما نسميه المخاطبة والحدل والإقناع والأمر والنهي والقرار والحكم .. وأيضاً جميع ما يندرج تحت ذلك وما يستعمل لذلك أو في ذلك - من براهين منطقية أو خطابية ووسائل للتبليغ أو للتوصيل أو الفحص أو الدفاع أو الهجوم .. فجميع ذلك موجه أساساً إلى تلك المشيئة البشرية الواعية التي قد تتغير اتجاهاتها وموضوعاتها بالروية والتفكير .

ولذلك يصح في خطاب هذه المشيئة، الاحتجاج بمشيئة الخالق عز وجل أو علمه أو قدرته .. يتكرر ذلك كثيراً في خطاب الدعاة والوعاظ، ولكن يطيب استخدام واحتجاج أحاد الناس بها بنحو أو بآخر .. يحدث ذلك بقصد التأثير في المشيئة البشرية أو المصادرة عليها أو رفضها أو تحويلها أو محاجاتها أو تغييرها أو تقليل قيمتها أو تسيفيه جدواها .. فالقول في مشيئة الخالق عز وجل أو قدرته بقول الآدمي لأي آدمي .. مؤمناً كان أو غير

(*) المال ٢٠٠٩/٣/٥

مؤمن .. فقط كحجة للتأثير فى مشيئة آدمية وفى قرار لمشيئة آدمية عن طريق الفكر والتأثير عليه أو فيه !

* * *

وكما تصيب الأنيميا الدم ومحتوياته، فإنها تصيب التعبير نتيجةً لأنيميا الروح والعاطفة .. ومثل هذه الأنيميا أنيميا خبيثة تجعل معانى الأشياء كلها غامضة شاحبة هزيلة .. وهذه الأنيميا فى التعبير تصيب أيضا معانى الثروة والسلطة والدين والأخلاق والقانون .. حتى معانى الخير والشر واللذة والألم والجمال والقبح والإنسانية والهمجية والسعادة والتعاسة والراحة والشقاء والنافع والضار !

فى هذه الأنيميا قد ينسى آدمى تماماً - أن حياته " معانٍ " تتوقف على " معانٍ " برغم أصلها الحيوانى .. وقد ينسى تماماً أيضا أنه لم يعد يستطيع أن يحيا بدون معانيه وأن يعود إلى حيوانيته الأولى مكتفياً بها بل ومستغنياً بها أحياناً عن إنسانيته استغناء تاماً .. ويغفل لذلك عن أنه فقد نهائياً القدرة على العودة حيا !!

إن الإنسانية هى أولاً وأخيراً تعبير آدمى عما هو مشترك فى الروح والعاطفة .. إذا اختل وضعف - ضعفت الروح والعاطفة، وإذا اختنق مات الإنسان كإنسان !!

* * *

الأديان تنشأ وتتشر بتحرك عواطف الناس وتحريك عقولهم إلى مثل معينة، فإذا استغنت الأديان - بقوة الدفع والاستمرار - عن تحريك العواطف والعقول نحو هذه المثل العليا، صارت سياسة وليست ديناً .. لا تعتنى بالدين ومثله ومعانيه، وإنما تعتنى بما تريده وتتغياه .. وهى وإن كانت سياسة وقبلتها وغرضها سياسى، إلا أن سداد فواتيرها يأتى فى هذه الحالة على حساب الدين نفسه !

* * *

والمخيلة الفعالة التي تجسد نفسها في الفعل وفي آثار الفعل التي
أشواقها أفعال وطاقاتها أفعال وإمكاناتها أفعال - هي أشرف ما في آدمي
وأخطر ما فيه على حياته ووجوده وحياة وجود ما ومن يتصل به .. هي
الخير والشر والبناء والهدم والإبداع والضمور .. هي الخلق والبقاء
والاستمرار والقيم والحضارات والمعرفة والفن والعلم والأخلاق والدين ..
هي وراء كل حركة واعية وكل سلوك وعادة وعرف وقانون .. ووراء
كل قصد ونية وكل إرادة وكل تحقق وإنجاز .

من

تراب (٢٢٢) الهوان الحقيقي ! (*)

الطريق!

يخطئ من يبحث أو يفش عن " العدل " كفكرة أو كقيمة فى قرار المحكمة الجنائية الدولية بتوقيف الرئيس السودانى عمر البشير .. ذلك أنه إذا كان العدل البشرى نسبياً، إلا أنه فى المجال الدولى أبعد ما يكون عن توجهات وتطبيقات وآليات أشخاص القانون الدولى ومجالسه ومنظّماته ومحاكمه . لو كان العدل حاضراً فى كل ما يصدر عن هذه المنظّمات، لاختلفت المشاهد والصور المعروضة اختلافاً كبيراً وأساسياً وجذرياً !

خذ عندك " مقاومة الإرهاب " والمساءلة عنه . من ناحية المبدأ لا يختلف على ذلك أحد، ولا يجافيه عاقل، ولكن آليات المقاومة والمساءلة تفرق وتميز وتفرض قبضتها على من تريد وتترك من تشاء، ولا تطبق فيما تختار وفيما تدع - المعايير المتعارف عليها فى مبادئ وقواعد المسئولية بكل صورها، وإنما تضع لنفسها معاييرها الخاصة، فتجد الولايات المتحدة مثلاً، فى ملاحقتها للإرهاب، تستخدم وسائل إرهابية تشف عنها إجراءاتها التعسفية ومعتقلاتها وسجونها وما يجرى فيها من إرهاب وتعديات صارخة على حقوق الإنسان، وتجدها فى ملاحقتها التى تخطط خطأ لا يقبله عقل بين مقاومة الاحتلال - وهى حق مشروع لا يوصف ولا يجوز وصفه بالإرهاب، وبين إرهاب الدولة الذى تمارسه إسرائيل على الواسع وترتكب به كل يوم جرائم حرب وإبادة وجرائم ضد

(*) المال ٢٠٠٩/٣/٩

الإنسانية، متمتعة بحماية أمريكية / دولية لا تقترب من هذا الكيان
العدواني البشع بل وتخلق له الأسباب والتعلّات والمعاذير !

لذلك فالمشهد الراهن الذى تصدره مذكرة التوقيف الصادرة بحق
الرئيس السودانى، ليس مشهد عدل ولا حق ولا إنصاف، ولا محل بنتاً
لمناقشته بفكرة أو مبدأ العدالة والحق، فلو انتمى إلى هذه القيم لرأينا
مذكرات توقيف صادرة عن المحكمة الجنائية الدولية ضد رؤساء وقادة
ومسنولى إسرائيل المخضبة أيديهم كل يوم بدماء الشهداء الفلسطينيين، من
النساء والأطفال والشيوخ والعزل - فى جرائم حرب وإبادة وضد
الإنسانية !

لو انتمى هذا القرار أو مذكرة التوقيف إلى قيم العدالة والحق
والإنصاف، لرأينا مذكرات أو قرارات توقيف صادرة بحق الرئيس
الأمريكى جورج بوش الابن وكثير من معاونيه وأركان إدارته الذين
تورطوا على مدار أعوام، فى أفغانستان ثم العراق، فى جرائم حرب وإبادة
ضد الإنسانية، واستخدموا أبشع أنواع الإرهاب بزعم أنهم يقاومون
الإرهاب، ودمروا بلداً كالعراق تدميراً شاملاً بحجج وذرائع انكشف للعام
أنها كاذبة، واستباحوا شفق رئيس العراق فى مشهد مأساوى ليكون "
الضحية " فى أول أيام عيد الأضحى المبارك !!

فى الوقت الذى تتغنى الولايات المتحدة بالحرية ورفض الإرهاب،
تبيح لنفسها وتبيح لربيبتها إسرائيل أبشع وأشنع صور الاعتداء على
الحيات والأرواح والكرامات الإنسانية، ويشهد على ذلك ما تسرب عما
يجرى فى سجن أبوغريب ومعتقلات جوانتانامو وغيرها - من تعذيب
وجرائم ضد الإنسانية وتحقير للأديان وكتبتها السماوية، حتّى التقطت
الصور لجنودها وهم يذنبسون القرآن الكريم الذى يدين به ويقدسه ما يزيب
على مليار ونصف مليار مسلم يملأون قارات الدنيا !

لقد صَدَّرت الولايات المتحدة " ازدواجية " المعايير للنظام الدولى ومنظّماته وآلياته، فباتت فيه الحصانة شاملة الأمريكان والإسرائيليين ومن يجرى فى فلكهما، ولم تتجرأ القرارات والملاحقات إلّا على الرؤساء العرب ! .. رأينا أحدهم مشنوقا، والآخر يُتابع ويُلاحق كل يوم بشتى السبل والأساليب لجره إلى ساحة المساءلة بزعم التحريض أو المشاركة فى اغتيال الحريرى الذى صارت أمريكا أكثر غيرة عليه من لبنان، ثم ها نحن نرى ملاحقة وقرار المحكمة الجنائية الدولية بتوقيف الرئيس السودانى عمر البشير !

لو شئتم مناقشة هذا المشهد، فلا تناقشوه من زاوية " العدالة " وهل حدّث أم لم يحدث ما ينسب إلى الرئيس السودانى، فليست العدالة هى القيمة التى تحرك آليات المجتمع الدولى، وإنما فتشوا فى أسباب " الهوان " العربى .. هذا الهوان هو البطل الحقيقى للمشهد الراهن، لو عرفتم أسبابه لوفرتم الحماية والأمان والاحترام ليس فقط للملوك والرؤساء، وإنما للشعب العربى كله من المحيط إلى الخليج !!

من

تصريح دبلوماسى بلا (٢٢٢) **ترباب**
دبلوماسية ! (١) **الطريق!**

تعجبت كثيراً وأنا أطلع تصريح المتحدث الرسمى باسم وزارة الخارجية المصرية أن إيران والإيرانيين محبطون من نجاحاتنا، وأن إلى ذلك الإحباط تُعزى تصريحات نائب وزير الخارجية الإيراني حسين شيخ الإسلام التى قال فيها إن بلاده سوف ترد إذا استضافت مصر أعضاء من منظمة مجاهدى خلق الإيرانية المعارضة .

وعجبنى يأتى من حكاية " نجاحاتنا " التى أثارت الإحباط الإيراني أو غير الإيراني . فنحن نعيش فى مصر كما يعيش السيد المتحدث الرسمى للخارجية المصرية، ونرى فيها ما يراه، ونرقب ما يرقبه، فلا نرى نجاحات تثير أو لا تثير إحباطات إيران أو غير إيران !

ما نراه هو إخفاقات تلو إخفاقات، وفى المجال الدولى يتراجع الدور المصرى وتأثيره كل يوم، حتى فى العالم العربى صار التراجع مشجعاً لأنصاف وأرباع دول على مزاحمة الدور المصرى ومغالبتة، وفى المجال الداخلى زادت أعداد المعتقلين، وأخبار الملاحقات السياسية لا تغيب عن الصحف اليومية، ولا تتوقف الاحتفانات التى تعبر عن فشل سياسات الإدارة مع الشعب وفئاته .. رأينا مظاهرات واعتصامات ووقفات واحتجاجات بين القضاة، وبين الصيادلة، وبين المحامين، وبين الصحفيين،

(١) المال ٢٠٠٩/٣/١٠

وبين العمال والإداريين .. ولا يمضى يوم إلا ويطفو احتقان إلى ساحة المشهد الراهن، وتنتقل المشاهد إلى خارج الديار، فتتقل الأخبار عن وكالات الأنباء وموقع " أمريكا إن أرابيك " - تنسيقات وتحالفات تجرى بين بعض أقباط المهجر وبعض " القرآنيين " الموجودين بالولايات المتحدة الأمريكية، وشملت فيما نقلت الأنباء الدكتور سعد الدين إبراهيم مدير مركز ابن خلدون، وصفي الدين حامد رئيس تحالف المصريين الأمريكيين، وعمر عفيفي رئيس منظمة حقوق الناس، ودينا جرجس رئيس منظمة أصوات من أجل الديمقراطية في مصر، وإبراهيم بشير رئيس منظمة أهل النوبة، وأكرم الزند رئيس الجمعية المصرية الأمريكية، حيث اجتمعوا في واشنطن ووجهوا خطابا بخمسة مطالب للرئيس المصري .. طالبوا - وهذا هو الغريب ! - بتنفيذها قبل زيارته الشهر المقبل إلى الولايات المتحدة الأمريكية !

لن أتوقف هنا عند المطالب، فقد نتفق أو نخالف عليها، وقد نرجع إليها في موضع لاحق، وإنما الذى لا يوافق عليه أحد أن يصدر هذا الخطاب من أمريكا وبمناسبة زيارة رئيس مصر لها .. فمعنى التهديد ظاهر، ومعنى الاستقواء واضح، وهو ما لا يقره مصرى !

نعود إلى حكاية " النجاحات " التى لوح بها المتحدث الرسمى للخارجية المصرية، فى تصريح اشتممت فيه لغة وأسلوب الاتحاد الاشتراكي قديما .. والغريب أن يأتى هذا بعد قرابة خمسين عاما من رحلة تحديث الخارجية المصرية التى بدأها جمال عبد الناصر حين عين - عام ١٩٦٠ - حافظ إسماعيل وأوكل إليه هذه المهمة التى يذكر أداؤها بالخير، كل من عاصروا هذا الرجل العظيم والدور الذى أداه فى الخارجية المصرية ثم من بعد ذلك كمستشار للأمن القومى .. وكان بمكتبه آنذاك، وزير الخارجية الحالى السفير أحمد أبو الغيط، و السفير السابق أحمد ماهر السيد، فضلا عن السفير عبد الهادى مخلوف والسفير أحمد عادل الذى شغل لسنوات موقع الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية، والدكتور

زكريا عزمى رئيس الديوان الجمهورى الآن، والأستاذ شريف عطية
وكيل وزارة الثقافة بعد ذلك ورئيس تحرير بعض إصداراتها والكاتب
والمحلل السياسى الآن .

خطاب الإحباط من النجاحات المصرية، قد يقال - وهو غير مبرر ولا
مقنع ! - فى الداخل المصرى، على نظام " زيتنا فى دقيقتنا " أو " منّا فينا "
!! .. أما أن يُرد به على تصريحات خارجية إيرانية أو غير إيرانية، فهو
غير مغفور وغير منتج، لأن ما قد يسكت الداخل المصرى عن مراجعته،
لن يسكت الخارج عن التعقيب على ما فيه من مجافاة للواقع وللغة
الدبلوماسية على السواء، والعجيب أن يصدر هذا التصريح العجيب وغير
الدبلوماسى - من منبع الدبلوماسية !

من

تراب (٢٢٤) الماضي، بين الروابط والأساطير! (*)

الطريق!

تري ما الذى كان عليه الكون قبل وجود الروابط القابلة للتعقل بين مكوناته - أعنى ما يقبل التكرار ويذعن للإعادة والانتظام والنظام ؟ .. هذه الروابط القابلة للتعقل هى خيوط الوجود وجسوره وطرقه - لا يستغنى عنها ولا يمكن أن يستغنى عنها شئ مما نسميه خيراً أو شراً، وهى التى يتّجه منها وإليها ويستعملها ويلتقى فيها - كل ما يمكن وصفه بأنه خير وشر .. لأنها هى جسور وخيوط وطرق مشتركة للخير والشر معاً .. ولوحدة الكون الذى يمكننا تعقله .. ولأن تكوين الكائن الحى قائم كله على أساس وجود الروابط وقابليتها للتنقل والتكرار والإذعان للإعادة والانتظام والنظام .. ولا فرق فى ذلك بين الآدمى وبين "الميكروب" .. وهذا يكاد ينطبق تماماً على الكائنات غير الحية إذا توسعنا فى معنى الإذعان والاعتقاد والوجود والكون والنظام !

* * *

هذا وتتقى الماضى من الأساطير التى فقدت وظيفتها ولم تعد لازمة ولا نافعة لحياة الآدمى فى واقع حياته - عمل واجب .. لكنه ليس سهلاً ولا خالياً من المخاطر . لأن الأساطير تبني عليها عادات فكرية وسلوكية وأذواق وقيم ونظم ومهن وحرف، ويبنى عليها ثقافات وعمران وحضارات وتواريخ وأديان وعلوم وفنون .. كما يُبنى عليها أخلاق ومشارب وفوارق ومميزات وعصبيات وقرابات واختلافات وعداوات .. ويبنى عليها مدن

(*) المال ٢٠٠٩/٣/١١

وقرى وحدود وخصون .. وبني عليها لغات ورموز وشارات وأعلام .
إذ الأساطير أبحار أهدتها وتهديها المخيلة إلى عقل الأسمى وعواطفه
وروحه - بلا انقطاع . كما يهدى المبيض بويضاته إلى الرحم ثم إلى دنيا
الأحياء !

* * *

لو عرف الإنسان طعم ما يقوله أو ما يفعله أو ما يحس به قبل أن يقوله
أو يفعله أو يحس به معرفة تامة - لأصبح قديماً ولاستغنى عنه، ولتوقفت
مسيرة حياته بتوقف الجدة والجديد فيها .. وهما ما يحرك ويوقظ رغبة
الإنسان فيها وجاذبيتها له . وخوفه من هذا الجهل الجزئي الملازم لكل
نشاط نمارسه منذ أن نولد إلى أن نموت - هو أساس كل توقع وكل أمل
وكل خوف وكل حركة حية وكل سكون حي !

من

تراب (٢٢٥) معقولات مجردة ! (١)

الطريق!

يبدو أن الآدمي لم يسأل من أين أتى إلا في وقت متأخر - وهذا واضح حتى الآن في الأطفال والصغار وأشباههم . فالصغير يبدأ الوجود بصفة مطلقة ابتداءً من وجود ذاته - ثم تتوالى حوله الأحداث وبعدها الأخبار ويسمع أن وجوده سبقه وجود والديه وإخوته الأكبر منه سناً .. وسبقه أقاربه والجيران والعشيرة وأهل الوطن .. وسبقه وجود آلاف ماتوا قبل وجوده .. ثم يتلقى ما نسميه الآن بالتاريخ أو القصص والحكايات وسير الماضين في الدنيا أو في الخيال .. ومن خلال ذلك يتسرب إلى تفكيره أن وجود كل آدمي قد سبقه وجود آدمي آخر أو آدميين آخرين .

وذلك التسرب لا يحدث من طريق المحو والإزالة، ولكن من طريق الإضافة والمزاحمة والتفطن ووضع شيء جديد إلى جوار شيء سابق .. قد يغطيه تماماً وقد يبقى شيء من القديم عاملاً إلى جوار الجديد فيتعارضان .. أو قد يعمل كل منهما في منطقة خاصة، وهذا هو الشأن في أغلبية أحوال البشر حتى يومنا هذا .. فتجد الإنسان مهما ارتقى وتعلم وفكر ودبر وفهم وت filosof - تجده في معظم أحواله يسير على أن الوجود الحقيقي العيني في الدنيا هو وجوده ودنياء، وأن إرادته واختياراته هي الأصل الذي يرد إليه حكمه على كل ما يصادفه أو يواجهه .. وهو لذلك يرفض الموت لنفسه ولأحبابه، ويرى فيه نوعاً من الاغتيال الهمجي لا يمكن إساغته .. محاولاً إبعاد شبحه بكل حيلة مع فرض إرادته ورأيه

(١) المال ٢٠٠٩/٣/١٢

وتعليماته ووصاياه بما يحب وما يكره .. يفرض ذلك على من يبقى بعده على قيد الحياة، ويعتقد أن فى ذلك مرضاة واجبة له .. لكن أين ومتى وكيف ؟ فى حياة أخرى أو آخرة لا يغتاله الموت فيها قط .. ومن هنا بدأ واستمر النقل من السابق للحاق، والرجوع من اللحق للسابق، وزيادة الجديد إلى القديم، وتقطين الجديد للقديم، وتسلسل الاتساع فى عقل الأدمى بما نسميه الآن بالنمو والتطور والتحضر والعلوم والآداب والفنون والمهارات والعقريات والاكتشافات والاختراعات والوثبات والقفزات والثورات التى بها انتقل الإنسان بجسمه إلى الأفلاك .. ليعود منها إلى الأرض ويموت عليها - موتاً لا يمحو قفزة العقل ولا يعطلها، بل يشجع على تكرارها وتطويرها من آدميين آخرين يحملون العقل بنفس إمكاناته، وسيستمر هذا العقل قادراً على التجديد والتطور مادام فى الوجود أدمى يحمله ويحمل إمكاناته وبنوافعه وأشواقه .

لكن هل نمو عقل الأدمى سيؤدى إلى ارتياح الأدمى للموت واعتباره نهاية عادية كغروب الشمس لبداية هى ميلاد الأدمى ؟ .. من الصعب أن نتنبأ. لأن نمو العقل يصحبه نمو العواطف والعلاقات الإنسانية الشخصية، وأى عاقل لا يرضى أو يرتاح لمفارقة الأحباب إلى غير رجعة ؟

تلك العلاقات الإنسانية والعواطف رواية شخصية صرف لا تتحول إلى قيم ومبادئ عامة، إلا بعد أن تتشابه باطراد وتعم وتسود وتفقد شخصيتها وخصوصيتها، وتصبح بذلك قابلة للانتقال بالمحاكاة والتعلم عبر الأفراد والأجيال والأجناس .. انتقال المعقولات المجردة .

لكننا مع ذلك نقول من يدري ؟!

من

تراب (٢٢٦) أنرا المحيط ! (*)

الطريق!

الآدمى فى أى زمان ومكان لا يمارس اختياراته الشخصية إلا من خلال ما عرفه نوع معرفة من اختيارات الناس .. سواء المعاصرين له أو الذين سبقوا وسلفوا فى أزمنة ماضية لا سبيل إلى تفصيلها أو تفصيلهم . فعقلى أو عقلك منذ بداية البداية لا يعمل إلا فى محيط بشرى .. أو بعبارة أكثر دقة فى محيط من اختيارات لعقول بشرية معاصرة أو ماضية .. بعضها قد يكون معروفا له أو قابلا للمعرفة، وغالبها مجهول تماما لا يمكن التعرف عليه بأية وسيلة .. فلزوم هذا المحيط البشرى وملازمته لحياة كل آدمى متحضر أو همجى من ساعة مولده إلى لحظة وفاته، هو كلزوم وملازمة المحيط الطبيعى الذى يولد أو يعيش أو يموت فيه لا يفارقه إلا بمفارقة الحياة نفسها .

ويبدو أن هذا ملحوظ فى تركيب وسعة وكفايات المخ البشرى، وملحوظ فى تشابه العقول الذى يسمح للزنجى أن يفهم مراد الصينى والأوروبى والتعلم منه، وأن يقرأ الهندى ويتذوق شعر الأمريكى وأدب اليابانى وفولكلور الإسكيمو، ويتيح لكافة أهل الأرض سماع الإذاعات بمختلف اللغات واللهجات وفهمها .. وهذا ملحوظ أيضا فى زيادة استجابة عالم الطبيعة لحسابات الأدميين الرياضية وقواعدهم الفيزيائية والكيمائية

(*) المال ٢٠٠٩/٣/١٦

والفلكية وقياساتهم حسب اصطلاحاتهم ورموزهم .. وهو ما يعطى لمح
الآدمى وعقله - بقدر ما - طابعا كونياً يتجاوز موضع الإنسان على هذه
الأرض وانتسابه إلى أشقائه فى عالم الحيوان .

وفردية اختيار الأدمى دائما فردية اقتطاف من حقل أو حقول أعم داخله
وخارجه، وقد تجرى مع الاقتطاف إضافات تضيفها اجتهدات
واستعدادات ومواهب خاصة فى الفرد .

وإذن فكل إنتاج لفرد أيا كان وكانت موهبته هو، أو عبقريته هو، أو
نعمة الله عليه هو - معظمه من ذلك الاقتطاف أى من ذلك الحقل الأعم
الماضى والمعاصر .

فالبشرية لها قادة بلا شك .. نعرف بعضهم ونجهل معظمهم، لكن ليس
لها صناع أو صانعون معينون صنعوا أو يصنعون اختياراتها .. فهذه غير
قابلة لتحديد المصدر بأى يقين . وهو أمر يشهد به بشدة - اختلاف التاريخ
والنظم والعقائد والحضارات .

هذا وقد لفتت قوة تأثير ذلك المحيط البشرى فى تقدم المعرفة - لفتت
أنظار الأدميين من قديم، ودعتهم إلى إنشاء المدارس والمعاهد والمكتبات
والمراسد، ثم دعتهم فى العصر الحديث إلى استخدامها بطريقة منظمة
دائمة فى حل المشاكل المعينة التى تبدو أكبر أو أعجل من أن تترك
للاختيارات الفردية .. فجمعت الكفايات فى الموضوع الواحد أو فى
المواضيع المختلفة المتصلة .. جمعت هذه الكفايات لتعمل معاً أو بالتعاون
- فى معامل أبحاث أو مؤسسات مستقلة أو تابعة لجامعات أو لشركات،
وزودت بالأموال الضخمة التى تلزمها والتى لا قبل للأفراد بها . وقد أنتج
ذلك نتائج الهائلة فى العلوم والفنون والتقنيات والصناعات، وإليه يرجع ما
نرى الآن صداه فى حياة الناس !

من

تراب (٢٢٧) ظهور النوابع وكيف؟! (*)

الطريق!

ترى من أين وكيف يظهر النوابع من أصحاب الرسائل أو القديسين أو الأئمة أو الشهداء، أو من العلماء والمفكرين والفنانين وكل من يخرج من بحر العاديين ليشكل قيمة متميزة متفردة تبرز بنوعها وتفردها؟! ظنى أنه لابد لذلك مما أسميه " فائض إحساس " غير عادى بالصدق والاستقامة لكل صاحب رسالة روحية .. نبياً كان أو ولياً أو قديساً أو إماماً أو شهيداً .

ولابد من " فائض إحساس " غير عادى بالحقيقة لمن كان عالماً - قديماً أو حديثاً - بعلم أو أكثر من العلوم الطبيعية أو الكيميائية أو الطبية أو الهندسية أو الاجتماعية .

ولابد من " فائض إحساس " غير عادى بالجمال للفنان رساماً كان أو نحاتاً أو مصوراً أو بناءً أو ملحناً أو ممثلأً أو مخرجاً .. شاعراً كان أو ناثراً أو قصاصاً .. موسيقياً مؤلفاً كان أو عازفاً .. إيقاعياً كان أو راقصاً أو تعبيرياً بأى نحو من الأنحاء ..

هذا " الفائض " غير العادى فى الإحساس، هو القاسم المشترك بين الإمام والعالم والفنان والأديب والشاعر .. من هذا الفائض غير العادى فى الإحساس يتشكل وجدان كل منهم وانطباعه بموضوعه وأهميته، ينمو ويزداد وجوده وعطاؤه إذا صادف ظروفأً ملائمة مبكرة أو حتى متأخرة للنمو والتطور .. وقد يخلق ويموت إذا حاصرته ظروف معاكسة تتأوى

(*) المال ٢٠٠٩/٣/١٧

وتفوق وتتميت ما لديه .. شأن أى موهبة لا تصادف الأرض والمناخ المناسب لنمائها وازدهارها .

أما جمهور الإمام أو العالم أو الفنان أو المفكر أو الأديب أو الشاعر، فإن القدر المشترك بين هذا الجمهور هو وجود الإحساس المعتاد وجوده لدى الإنسان العادى - بالصدق والاستقامة أو بالحقيقة أو بالجمال .. هذا الإحساس الذى يقبل الإيقاظ لوقت يقصر أو يطول .. يتلقى فيه الإشباع بما يحبه - لدى كل من هؤلاء - من الموهبة والعطاء الناجم عن فائض الإحساس غير العادى ..

هذا الفارق بين أولئك الموهوبين وبين جمهور الناس، هو فارق خلقى طبيعى غير معلل وغير قابل للتعليل .. ولذلك لا نجد الموهبة حاضرة فيمن يدعيها أو ممن يدعيها لمدعيها، وإنما تثبت فقط بوجودها واقعاً حاضراً بغير ادعاء ولا استعراض، تدوم ويدوم أثرها حتى بعد وفاة صاحبها الموهوب الذى يظل الجمهور عارفاً به وبموهبتة ذاكراً لهما بعد موته وانقطاع السبل بين الراحل وبين ادعاء ما اعتاد بعض الناس أن يلحقوه بأنفسهم من مواهب أو مزايا أو صفات !

بل نرى أن موهبة مثل عبقرية فان جوخ أو كوبرنيك - ظلت مجهولة فى حياتهما، لم تعرف ولم يدركها الجمهور إلا بعد موتهما وانقطاع سبل لأى منهما للحديث عن موهبتة أو الترويج لها !!

وجود الموهبة فى الذرية مطمع من قديم الزمان يرجوه ويتمناه الآباء والأمهات .. رأينا ونرى حرصهم - حسب اقتدارهم - على إلحاق أولادهم بنبؤى المواهب .. ليتعلموا منهم ويتأثروا بهم وتتضح عليهم مواهبهم لكن بما قد يكتسبونه منهم من معلومات وأساليب ومهارات .. أما " الموهبة " ذاتها فلا سبيل لتعليمها أو تعلمها أو توارثها !

فى زماننا نرى الآلاف فى المدارس والمعاهد يطنبون العلم والعلوم والآداب والفنون، ومنهم من ينال الشهادات الرفيعة والألقاب العلمية

والدينية والفنية، ولكنهم لا ينالون " الموهبة " لأنها سجية مطبوعة قد تنمى بالدربة والممارسة، ولكنها لا تخلق ولا تكتسب مهما أنفق الدارس فى قاعات العلم والفن والدراسة .

ومع شيوع الاستغراق فى الظاهر والمظاهر، جعل الأوساط من أرباب الشهادات ودواليبها يحتلون محاور الحياة العامة التى خلت أو تكاد من أصحاب المواهب، وفارقها الجد والإنتاج بقدر ما فارقت الواقع وابتعدت عن الصدق والمعقولة !

ليس هذا تقيلاً من شأن الشهادات وما تعبر عنه من تحصيل لمعارف وإمكانيات، وإنما يأتى الخطر حين تزيج الشهادات أو تزيّف المواهب وتوارىها وتحول بينها وبين التعبير عن امتيازها وتفرداها وفائض ما لديها من إحساس غير عادى بالصدق والاستقامة والجمال ..

إذا توارت المواهب أو أزيحت، جفت حياة الناس وتزايدت مشاقهم فى مجتمع يستغرقهم بعاديات الأمور ويشغلهم بطعامهم وسكنهم وصحتهم وعملهم وأمنهم .. مهتدين فى ذلك بمغامرات ومجازفات المستغلين حملة المراتب أو " المواهب الرسمية " الزائفة !.. الذين بيدهم مرافق الدولة يديرونها بما شاءوا بلا فائض إحساس بل بلا إحساس وبلا شعور بالمسئولية وبلا محاسبة .. لا يرددهم عما اعتادوا إلاّ الخوف إن كان له سبيل !!

من

تراب (٢٢٨) " ثقافة الأونطة " ! (*)

الطريق!

من شهور كتبت للأهرام مقالاً عن الظاهرة الصوتية وثقافة الهدير، وهي آفة ضربت في حياتنا ضرباً ملاًها صخباً وضجيجاً وضوضاء وصياحاً وهتافاً وهياجاً وإهاجةً وثورةً وإثارةً واستثارةً وانفعالاً وتشويشاً .. ممزوجاً ذلك كله بالثقافة والاصطناع ومفارقة الموضوعية !

استحضر معاني هذا المقال، طرء ما أسميه " ثقافة الأونطة " .. وهي بدورها عَرَضٌ ومرضى وإن لم يكن جديداً، إلا أنه طفق في الزيادة والانتشار يصفق له الأشياء والأتباع، وقد ينخدع به السذج والطيبون !!

في إحدى صحفنا القومية، طالعت - ٢٠٠٩/٣/١٥ - عنواناً بالخذ العريض يقول : " يدعو لفتح باب التطوع للدفاع عن السودان " ! .. وفي التضاعيف أن المنادى بفتح باب التطوع لمهمة مجهولة لدفاع عن السودان غير مفهوم، قد ألقى بهذه الدعوة " العنترية " في مؤتمر موسع حضره مسئولون حزبيون وخلافه، وأن هذه الدعوة - العنترية - لفتح باب التطوع تأتي على غرار - لاحظ على غرار ! - دعوة المحامين بمصر للتطوع للجهاد في لبنان وقت حرب ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل. ودعك من تقديم حزب الله على إسرائيل وكأن الحزب هو الذي اصطنع الحرب ولم يكن مدافعاً عن غزو إسرائيل للبنان !

نعود إلى " على غرار " ! فقد مضى الغزو الإسرائيلي للبنان عام ٢٠٠٦، دون أن نرى متطوعاً يخرج من قبل الداعي لمساندة حزب الله في

(*) المال ٢٠٠٩/٣/١٨

دفاعه عن أراضي لبنان، ولم نر الداعي يتمنطق فيذهب ليتخندق مع المتخندقين في لبنان لصد الغزو الإسرائيلي، ولم نر حصاداً من أى نوع لهذه الدعوة العنترية التى أطلقت عام ٢٠٠٦، ونسيها الناس كما نسيها الداعي، ولم يتذكرها أحد إلا لكون " الدعوة الجديدة " للتطوع للدفاع عن السودان - قد جاءت " على غرارها " ! .. ولا يعرف أحد أى " غرار " يقصد كاتب الخبر المصدر بالمانشيت بالصحيفة القومية، هل هو إشارة خبيثة إلى أن الدعوة العنترية الجديدة "على غرار" الدعوة العنترية السابقة التى آلت إلى لا شىء ؟!، أم أنه فى التبريك ودق الطبول والأهازيج وتذكير الناس بالمواقف العنترية المشهودة لصاحب العنتريات، فات الكاتب أن الاستشهاد الذى وقع فيه لا يفيد التطبيل الذى أراده بل ويكشف " الأونطة " التى صار لها ثقافة وزعماء ورواد ومشجعون وهتيفة ! .. الأغرب أن تقع صحيفة قومية فى مطب ترويج بل وتصدير هذه " الأونطة "، وتستنف لها المانشيت العريض ودون أن تعنى ببحث مضمون هذه الدعوة العنترية بفتح باب التطوع للدفاع عن السودان !!؟

أى دفاع، وأين، وضد من سوف يحارب هؤلاء المتطوعون ؟! . هل هناك جيوش تزحف على السودان الشقيق لنجند لها المتطوعين للدفاع عن السودان وأراضي السودان ؟! . هل تمنطق الداعي صاحب الدعوة العنترية وتطوع هو للدفاع عن السودان ؟! أم الحكاية " طق حنك " كما كانت أيام الغزو الإسرائيلى عام ٢٠٠٦ لجنوب لبنان ؟! .. وهل قال التصريح العنترى والصحيفة التى روجته كيف وأين سيكون هذا الدفاع عن السودان ؟! هل فى " دارفور " مثلاً، وإلى جانب أى من الفريقين المتصارعين فى دارفور سيكون هذا الدفاع ؟!

يبدو أنه لم يعد يكفيننا سيادة وصخب ثقافة الهدير وما يمازجها، فأسلمت بعض صحافتنا نفسها لتجار " الأونطة " .. وخصصت لها المانشيتات للمزيد من تغييب عقل هذه الأمة التى يتكالب عليها المزيفون وبائعو الأباطيل والأوهام !!!

من

تراب (٢٢٩) جراءة العقل (٢)

الطريق!

ماهى جراءة العقل، وهل بينها وبين جراءة القلب فارق؟ .. جراءة العقل ألا تتردد فى التفكير فى أى شىء يخطر على بالك وفى تقلب النظر فيه، تنتهى ما وسعك الجهد إلى ما تريد من يقين أو ترجيح دون أن يصدك المجهود أو تخيفك النتائج المحتملة .

وهذه الجراءة " موهبة " لا توجد فى عموم الناس، لأن الناس تخضع عادة لقانون " أقل مجهود "، وتفضل الكسل وترضى بالموجود وتخاف الوقوع فيما يخالف المقرر أو السائد أو المتعارف عليه .. تخاف حتى فيما بينها وبين نفسها أن يخرجها من حدود هذا الأمان المفترض - واقع قوى جدا كشهوة مكتسحة أو غضب عارم !

ظنى أن جراءة العقل تحتاج ككل موهبة إلى " فائض إحساس " غير عادى بحرية واحترام العقل والحقيقة مع العزم والشجاعة . بفضل هذا الفائض غير العادى من الإحساس، والدوافع المحركة، قامت التقاليد والعقائد والمصداقات التى حافظت على ما يسمى بالمبادئ والأصول والاتجاهات واستقرار قواعد السلوك والأخلاق وتثبيت الأذواق بقدر ما يمنع الناس من الإحساس بالانقلاب أو الثورة !

وبرغم ما فى هذا الثبات من ركود الأرواح والعقول وشدة التفات الإنسان العادى إلى مشتهيات جسده، فإن فيه وقاية من الفتن والقلقل .. هذه الوقاية التى تعطى الفرصة المتسعة للبناء والتعمير ونشر المعرفة

(*) المال ٢٠٠٩/٣/١٩

وتهذيب الذوق اللازم لقيام الدول والحضارات والثقافات وما نسميه مدنية الإنسان. أو الإنسانية .

ولكن الجماعة الآدمية تفقد حاضرها ومستقبلها حتماً - إذا فقدت جرأة العقل تماماً .. لأنها عندئذ يعوزها من مداويها من الكساح الفكرى ومن التفاهة والعجز عن مواجهة ظروفها وزمانها - مما لا قبل للتقاليد والمصدقات الموروثة بمكافحته فضلاً عن مداواته وعلاجه !

أما جرأة القلب، فهي ألا تتردد لأنك تعرف أنك لا تحسن أو يحسن بك التردد، بل تقدم بكلّياتك على فعل ما ترى أنه يجب أو يحسن بك ومنك فعله .. قابلاً بنتائجه حسنة كانت أو سيئة، فى شجاعة لا تشرك أو تحاول أن تشرك معك أحداً غيرك فى تحمل نتائجها ومسئوليتها !

وقلما تجتمع فى ذات الشخص جرأة القلب مع جرأة العقل .. لأن جرأة القلب من الغرائز الشخصية، وليست من المواهب الفكرية .. فإن اجتمعت جرأة العقل مع جرأة القلب كان اجتماعهما شيئاً نادراً فذاً خطيراً الآثار فى حياة الفرد وحياة جماعته وربما فى حياة الجماعات الأخرى ! .. رأينا ذلك فى حالة الإسكندر الأكبر المقدونى، ويوليوس قيصر، ونابليون.

ولأن جرأة القلب موضوعها ومجالها دائماً الأفعال والتصرفات لا الأفكار، كان أصحابها أكثر نسبياً من أصحاب جرأة العقل .. وهى تشهد - أعنى جرأة القلب - فى الذكور والإناث، وفى العامة والطبقة العاملة بأكثر مما تشهد فى الطبقة المتوسطة .. حيث الأفراد أكثر التزاماً وانضباطاً وتقيداً بأعراف وآداب واعتبارات وحسابات تحملهم على التحفظ والاحتياط وتجعله قيمة من القيم الاجتماعية التى تقيدهم ويحرصون على الالتزام بها! وتبدو جرأة القلب فى المدن فى كثرة عدوان العوام بالألفاظ والأفعال بعضهم على بعض، ثم فى سرعة نسيانهم للشر مع استئنافهم للعشرة والمودة، لأقل ما يدعو إلى استئنافها .. كأن جرأة القلب لديهم بقية باقية

من الاندفاع أو سلامة الطوية المعهودة في الأطفال والصغار !
وجرأة القلب لا ترد على كل فعل أو أى عارض، إنما على فعل جرّب
فاعله مثله أو ما يشبهه من قبل . وهذا هو العنصر الذى ينبه جرأة القلب
ويطلقها .. فالمقاتل الباسل يخوض الوغى ويواجه الموت كل لحظة أثناء
القتال، لكنه قد يتردد كثيرا فى إجراء عملية جراحية صغيرة أو فى تحمل
وخزة إبرة حقنة، وقد تزعجه حشرة تمشى على جسده أو فأرة تعدو بين
قدميه !!!

تختلف عوارض وردود أفعال ما تواجهه جرأة العقل عن عوارض ما
تواجهه جرأة القلب .. جرأة العقل لا ترسخ للموجود، وتخالف المقرر أو
المتعارف عليه، وتقتحم الصعب، وإليها يرجع كل ما أنجزته البشرية فى
السالف والحاضر من إنجازات، وبنته من حضارات .

من

تراب (٢٣٠)

الطريق!

النفخة الكدابة وصناعة

النجوم! (١)

لا يمكن لعاقل أن يمارى فى أهمية وأثر الميديا الإعلامية فى زماننا، ولا أن ينازع فى أهمية وأثر الصحافة، ولكنى مع احترامى لأثرهما البالغ، لم ألاحظ أن الإعلام مهما اشتد عرضا وطولا وعمقا - نجح فى صناعة هرم أو هدم هرم !

لعل هذه الحقيقة هى التى دعت الأستاذ هيكىل - وهو صحفى وإعلامى قدير حتى النخاع، ألا يبالى بالرد على ما يكتب ضده مهما اشتد أو غالى أو تجاوز أو أسف .. وأثبتت الأيام صدق فراسة الرجل، فلا علا من تطاول عليه، ولا هو فقد مكانته وبريقه الدائم المتزايد .. لا بحكم ما يكتب عن اقتداره، وإنما بحكم ما يصدر عنه كتابة أو شفاة من تحليلات وآراء تتم عن إحاطة لافتة ومعرفة عريضة وتعمق ملحوظ وأستاذية متبدية بلا اصطناع ..

هذا الكلام قديم، جدده الآن ما ألاحظه من رغبة محمومة لدى البعض فى صناعة نجم بكثرة النشر والبيث عنه، والتضخيم المصطنع الذى لا يخطئ المتلقى أنه لا يستند إلى قاعدة موضوعية فى معدن أو تاريخ المراد نفخه والإلحاح بصناعة نجومية له يكذبها واقع معروف للمتابعين، ومسالك بعضها افتضح وتلقاه المتلقون فى أوانه، وبعضها أدانتها أحكام قضائية نهائية باتة فى جرائم جنائية بحتة هى مهما كانت دوافع أو أغراض تحريكها - تشهد بأن السلوك غير قويم، وأن ما كان قد ظهر من

(١) المال ٢٠٠٩/٣/٢٣

سلوكيات فى بعض الممارسات السابقة، ينم عن جنوح إلى مخالفة الشرعية واستيسار الخروج عن حدود القانون والتردى فى محارمه .! ومن المدهش الذى لا يكثرث به المروجون أنه لا يوجد ممول ظاهر (!) لهذا الإلحاح الإعلامى فى النشر والبث للتضخيم واصطناع النجومية الخاوية من المضمون !

وفى المقابل، ترى إلحاحاً على قذف بعض الناجحين أو المتميزين أو القامات بالأحجار والافتراءات . تدهش حقيقة حين تتابع نغمة الشماتة التى تتضح فى ممارسات البعض لأول بادرة تراجع للنادى الأهلى الذى لا يستطيع مغالط أن ينازع فى أنه حقق لنفسه ولمصر (٢٠) بطولة فى الثمانى سنوات الأخيرة وصار بطل القرن وأفريقيا بلا منازع، ولكن هذه الصفحات بدلا من أن تشفع له أو للاعبيه فى هزيمة واردة فى الرياضة، أو تعادل أو تراجع فى الأداء فى مباراة - ينشط الشامتون فى قذف النادى وإدارته ولاعبيه بالأحجار، ودعك الآن من المدير الفنى البرتغالى !، ورمى اللاعبين بأنهم شاخوا ويتعين التخلص منهم كخيل الحكومة، مع أنهم يشكلون أكثر من نصف المنتخب الوطنى، ولا يتعظ الشامتون من أنه لا تكاد تطوى أعلام أو ألسنة الشماتة، إلا ويفجؤهم هؤلاء اللاعبون الشائخون بانتصارات باهرة محلية وأفريقية !

أما حكاية المدير الفنى البرتغالى، فهى أظهر فى فضح عقدة الضيق بالنجاح والناجحين ! والتطاول والتجنى على كل من يحترم نفسه وعمله .. لن تستطيع أن تجد مبرراً تقبله العقول للألسنة المشرعة على هذا المدرب الناجح القدير .. تخطط السهام الطائشة بين الاعتداد بالنفس والعلم، وبين التكبر .. ويخطط المتطاولون خلطا جهولا فيما يشنونه على الرجل من ذرائع أنه لا يشرك الأشبال، مع أنه ليس المسئول عنهم فى ناديه، ومع أن دنيا الاحتراف التى سادت العالم لا تفسح مجالا إلا للأكفأ اليوم حتى إن شاخ واعتزل غدا، فالتفريخ والإعداد والتأهيل شىء، والتوظيف فى المباريات التنافسية الجارية ونتائجها المطلوبة شىء آخر . لا يمكن

لموازنة عاقلة أن تقدم فى سبيل التفريخ لاعبا ناشئا لمباراة وتترك الأكفأ الأقدر حتى وإن بلغ اليوم أربعين عاما وسوف تنتهى حياته فى الملاعب باكرا أو بعد باكر . منافسة المباريات الجارية ونتائجها لا تتسع لهذا الهنر، ولا لتعالم كل من هب ودب ولعله لم يلعب فى حياته كرة شراب أو أى رياضة، ليحل نفسه محل المدير الفنى الخبير ليراجعه لماذا لعب فلان ولم يلعب فلان .. متعاميا عن أن عينه غير عين الخبير، ومتجاهلاً أنه حتى لو امتلك الخبرة - لا تتوافر له معلومات "أحوال" و "داخل" الفريق، ولا يعرف مقاليد سياسة الدفع والحجب لامتلاك زمام نجوم لتحقيق النظام وسلامة مسيرة الفريق .

ما فات محض أمثلة تكشف عن عقد تحتاج إلى تحليل نفسى وإلى محللين ومعالجين نفسيين، وتورى فى الوقت نفسه بأن من مخاطر ومحاذير اعتداد الميديا الإعلامية بما تملكه من مساحات وتأثير، أن تتصور مغرورة أنها تملك بناء أو هدم الأهرامات . فقيمة الهرم فيه لا فيما يضيفه عليه الاصطناع، أو ترمى المعاول الطائشة إلى النيل منه . تذكرت هذا وأنا أسترجع أبدة العقد : " قيمتك فى نفسك، وبواعثك أخرى بالعناية من غاياتك " !

من

تراب (٢٣١) هل عرفنا أنها أمانة ؟!! (٥)

الطريق!

من أكثر من شهر ونصف تمنطق متمسم بلقب مسئول ملف المحامين بالحزب الوطنى، وثار وغضب مفتعلاً الاعتراض على ما فجرناه عن قيام أمانات بالحزب الوطنى بسداد اشتراكات لمحامين مقرونة بدعوة صريحة وضاعطة لانتخاب واحد بعينه لموقع النقيب وملحق به قائمة فيها السيد مسئول الملف الذى تفضل فأضاف فى تعقيبه التهديدى على ما يعتبره قذفاً - أن الحزب لن يقاضينا على ذلك، لأن الكبير كبير .. وقد حمدنا له هذا التفضل وإن رحبنا بالمقاضاة، لأن ما أبديناه صحيح ولا قذف فيه ويدخل فى دائرة العلم العام المعروف للجميع، وفى شأن عام يهم الوطن الذى هو لكل المصريين !

ولم تكد تمضى أيام على هذه التصريحات العنترية المهددة المتوعدة، إلا وحملت جريدة المصرى اليوم فى عددها ٢٠٠٩/٢/٣ - ولم يكذبها أحد للآن (٣/٢٣) - أن مسئولاً بعينه بالحزب الوطنى حددته الجريدة بالاسم، يمنح أئمة ومفتشى ومديرى الأوقاف فى المنوفية رواتب شهرية لتأييد الحزب الذى يتولى إحدى أماناته .. وأن هناك بلاغاً قدم للنيابة الإدارية، وأن كشوف المسئول الحزبى المانح تضمنت (٢٦٦) إماماً يحصل كل منهم على (١٥٠ جم) شهرياً بخلاف المفتشين والمديرين الذين تتراوح رواتبهم الشهرية بين (٣٠٠) و(٥٠٠) جنيه .. كما تضمنت المانشيتات، والتفاصيل المنشورة، أن الأئمة قدموا مذكرة للشئون القانونية طالبوا فيها بالتحقيق فيما

(٥) المال ٢٠٠٩/٣/٢٤

تفعله مؤسسة ...، وتساءلوا : كيف يسمح لمؤسسة مدنية بمراقبة الدعاة ؟!
وتطالب بالتحقيق فيما تفعله هذه المؤسسة وأهداف هذا المنح وشروطها !
ولم أقرأ من يومها للآن تكذيبا من المسئول الحزبي الكبير المنسوب
إلى مؤسسته منح هذه العطايا الشهرية للأئمة والدعاة والمفتشين والمديرين
بالأوقاف فى محافظة المنوفية، ولم أقرأ توضيحا منه أو من سواه يبرر
هذه المنح الشهرية التى لم ينفها أو يكذبها أحد، وبالطبع لم أقرأ أو أسمع
تصريحا عنتريا آخر لمسئول الملف إياه يهدد فيه ويتوعد ثم يمن كما مَنَ
علينا بالسكوت عن المقاضاة لأن الكبير كبير !

هذه الأساليب تشف عن عجز وقلة حيلة، وتضر ولا تنفع، وترتد أمثال
هذه الممارسات على الحزب ذاته، وتحمله بطوائش وانفلاتات تمس
المصداقية، وتكشف عن أن قدرة الكبار الحقيقيين فيه - وهم كثرُ - محجوبة
بممارسات صغيرة ضريرة لا تعطى للحزب حقه، ولا تتصفه من بعض
المنتسبين إليه، وتضحى بما كان يمكن لكفاءاته الحقيقية القدرة أن تقدمه له
وللوطن الذى آلت إليه مقاليد حكمه !

كان ظنى ولا يزال أن الكبير كبير فعلا، ولكن ليس بالكلام والتباهى
والفسخرة، وإنما بالسلوك والأعمال .. الكبير كبير بعقله وعلمه، بحكمته
ووقاره، بكفائته واقتداره، بإخلاصه وصدق عطائه، بسلوكه وأخلاقه،
بنظافة باطنه وظاهره، باستقامته وجده، بعفته ونزاهته، بصدق توجهه
وسلامة مقاصده، بمعرفته بحق مصر عليه وعلينا . حينذاك لن يحتاج إلى
تذكير الناس بأنه كبير، فسلوكه وإخلاصه وأعماله تشهد له، وهى شهادة
أهم وأسبق من شهادات أو منن أو رضوخات أو انصياعات الناس الذين لا
يسمعهم إلا المن أو الرضوخ أو الانصياع !

لقد مكثت ما يزيد على شهر ونصف الشهر قبل أن أكتب هذه الكلمات
.. أملاً فى أن أرى نفيًا أو تكذيبا أو إيضاحا .. ولكن لم يصادف المنشور
إلا الصمت التام ! فماذا يعنى هذا ؟! هل يعنى أن ما نشر تافه، أم أن

تضخم الذات صار وربما يتعالى على إعطاء الشعب حقه فى التوضيح
والبيان ؟!

إن أول التزامات المسئول العام، أن يكون قريباً من الناس، عارفاً
مدركا أنه ما وضع فى مكانه إلا ليكون للناس لا على الناس . هذا الواجب
هو جوهر وأساس وعلة ما يُعطى له من إمكانيات وسلطات يجب أن تكون
مُسَخَّرة فى خدمة الناس بتواضع حقيقى لا بتفضل ولا مَنْ .. من أجل ذلك
كانت الولاية ولا تزال - أمانة .. هذه الأمانة الثقيلة هى التى دعت رسول
القرآن عليه السلام لأن يقول لصاحبه أبى ذر الغفارى حينما سأله ولاية :
" يا أبا ذر .. إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا لمن أخذها
بحقها، وأدى الذى عليه فيها " !!

من

تـراب (٢٢٢) نظرة للمحيط ! (٢)

الطريق!

لا شك توجد فوارق فى الرؤية والمعرفة بين كتلة الأدميين وبين العلماء، بل من المحال أن يكون ما لدى العادى مماثلاً لما لدى العالم .. ومع ذلك فإنه يجب أن تبقى هذه " الفوارق " التى لا يـنـازع فى وجودها أحد - فى حدود نسب معقولة تسمح بوجود علاقات فعلية وتواصل وتعامل دائم بين الناس وبين العلماء، نسباً تتيح لمن تسمح ظروفه ويتسع أمله وحماسه - أن يزيد من اقترابه من أهل العلم عن طريق الزيادة فى معلوماته ومعارفه وخبراته .. وتجعل هذه النسب المعقولة - لأهل العلم نصيباً واضحاً معترفاً به من الجماعة فى توجيهها أو خدمتها .

ذلك أنه إذا اتسعت الفوارق فى الرؤية والمعرفة، اتساعاً غير معقول لا حد له، أدى ذلك إلى " عزلة " كل فريق عن الآخر عزلاً تاماً، وانقطع التواصل بينهما، فتصرف كتلة الناس إلى أغراضها ومصالحها، وتتحصر فى سطحية ما تمدها به الصناعة والتجارة من آلات وأجهزة ووسائل وطاقات أتاحتها وأفرزتها التكنولوجيا المستندة إلى علم واكتشافات العلماء .

هذا معناه أن تتعرض الكتلة العامة لمخاطر مادية ومعنوية بالغة، بأن تألف عدم الاتصال بالعلم إلا عن طريق منتجات المصنع أو سلع المتجر، وأن لا ترى العلماء إلا أشباحاً تتحرك تحركات مجهولة غير مرئية خلف

الشركات الصناعية والتجارية لخدمتها ابتغاء المال وحده، وأنه من ثم لا شأن لهذه الأشباح بكتلة الأدميين ولا بهمومهم وشئونهم ومشاكلهم !

ومن شأن هذه العزلة أيضاً، أن ينصرف العلماء - وهم دائماً قلة قليلة - إلى الاعتكاف والتفرغ لدراساتهم ومختبراتهم ومعاملهم ومراصدهم ومؤلفاتهم ونشراتهم وجمعياتهم ومؤتمراتهم، وإلى السعى الدائم لتمويل ذلك وكفالة بقائه واستمراره بمعونات المؤسسات وكبار رجال المال ومنح الحكومات والجامعات ومراكز البحوث والأكاديميات والمعاهد المتخصصة والبيوت الاستشارية، فتقطع الصلات ويتوارى فهم هذه النخبة للكتلة العامة وشئونها وشجونها !

ربما ساهم في هذه العزلة صعوبة المعادلات الرياضية والعلمية التي لا يفهمها العاديون، وضمن العلماء المصريين القدماء بمعارفهم على العامة، ترفعا أو اعتقاداً بأنه يكفى الجمهور ما معه من معتقدات وأفكار ليعيش بها في راحة وسلام . وقد رأينا شيئا من ذلك في بخل فلاسفة الإغريق الأولين بأرائهم على العامة التي شغلها أساطير هوميروس وتراجيديات أخیلوس وسوفوكليس ويوربيدوس، وهو ما فعله أيضا كبار الصوفيين المسلمين حين احتفظوا لأنفسهم وخاصتهم برموزهم وأفكارهم الخاصة خوفاً عليها من " خلط " جماعات المريدين ..

وهذه المواقف بغض النظر عن عللها، لم تنقذ علم علماء المصريين من الاندثار الذي صاحبه إغراق كتلة المصريين في الخرافات والفن المبنية عليها، كما لم تنقذ فلسفة الإغريق الأولين من النسيان مع تدهور العامة وأساطيرها وناسها واختلافاتها وحروبها، وهو هو الموقف الذي لم ينقذ آراء كبار الصوفيين من الضياع مع ضياع منزلة جماهير الصوفية في الأراجيف والخزعبلات والمستحيلات !

ثم إن العلماء في عصرنا - مع تعصبهم وأحياناً حسدهم - قوم متخصصون في مواضيعهم .. لا يمتد تخصصهم فيها إلى سواها، ولا

يؤثر هذا التخصص في حياتهم الخاصة أو العامة، فهم يمارسونها كما يمارسها جمهور الناس، وبنفس القدر من التلقائية بل والسطحية وقلة المبالاة والمحاكاة الإرادية واللاإرادية، وربما بذات الاقتصاد في المجهود والمال وفي كل ما لا يعود باللذة أو المنفعة أو المصلحة العاجلة أو الآجلة !

أما التعليم الآن، وبالبذات الجامعي في بلادنا، فقد انحصرت غايته الرئيسية في التأهيل لمهنة أو منصب يكون محل احترام ومصدر وجاهة ودخل معقول قابل للنمو، ولم يعد من غايات التعليم - في بلادنا - التأهيل لإيجاد علماء، فصار إيجاد العالم متروكا للمصادفات القليلة التي تهينها موهبة خاصة أو تتيحها بعثة خارجية حيث يهتمون بإيجاد العلماء .

لا جدال في أن الشهادات العالية تزيد فرص المناصب، ولكنها لا تغني عن الموهبة اللازمة للعالم، ولذلك نرى كثيرين من حملة هذه الشهادات يمضون أعمارهم في مراصد ومعامل ومختبرات، دون أن يوجد بينهم عالم واحد ينخرط حقيقة في سلك العلماء، برغم ما قد يُضفى على بعضهم من ألقاب وجوائز وحفاوات لا تصادف الواقع !

على أن العالم الموهوب، والمتعلم حامل الشهادة، أو بلا شهادة، وغير المتعلم - هم جميعا آدميون كسائر الأدميين، لا يرون إلا بعيون وطبيعة الأدمي، ومن خلال أغراضه ومصالحه حين تتصل الرؤية بمصالحه وأغراضه، فما نحن كلنا إلا ثمرات في تلك الشجرة العجوز التي تتساقط مفردات ثمارها مع الأيام ثمرة وراء ثمرة !

من هنا تبدو أهمية العناية بالمحيط فهو الوحيد الدائم، ويبقى هذا المحيط بخير، قادراً على التجدد والعطاء، ما بقيت الفوارق بين عامته وعلمائه ومتميزيه في حدود النسب المعقولة التي تضمن التواصل وتحقق للمجموع العام فرصاً أوسع في النماء والازدهار بعامته وخاصته على السواء !

من

تراب (٢٣٣)

الطريق!

أستاذ الجيل (*)

وعبادة الأشخاص !

يعرف جيلنا وربما بعض مَنْ بَعْدُنَا — يعرفون أحمد لطفى السيد بلقب أستاذ الجيل، كان معاصرا للقامات العالية جدا أمثال عبد العزيز فهمى وسعد زغلول وأترابهما ومن جاءوا بعدهما، وعاش حتى نيف على التسعين (١٨٧٢ — ١٩٦٣)، فكان يقول : " لقد ظلمنى عمرى " .. يقصد بأدبه الجم أن إخلاده لو هن الشيخوخة والاعتكاف فى أعوامه الأخيرة، قد جعل الناس تنساه، وربما قال أكثر من ذلك لو استطاع أن يرى بعين المستقبل كيف سيذكره أو لا يذكره الناس !

كان أستاذ الجيل رائدا بحق من رواد الحركة الوطنية، عمل بالقضاء والمحاماة، ولكنه أثر الانصراف للحركة الوطنية، حارب التبعية والتسوق به مبدأ .. " مصر للمصريين "، وتولى رئاسة تحرير الجريدة (١٩٠٦ / ١٩١٤)، وشارك فى تأسيس حزب الأمة، ثم تأليف الوفد المصرى الذى شارك فيه مشاركة فعالة حتى اختلف وآخرون مع سعد زغلول، وتولى دار الكتب المصرية (١٩١٥/١٩١٨)، ومديرا للجامعة المصرية (القاهرة الآن) ثلاث مرات، انتهت كل منها باستقالة مدوية معبرة عن صلابته وانحيازه للحق، لعل أشهرها لدى الناس استقالته احتجاجا على إبعاد طه حسين عن الجامعة إثر كتابه : " فى الشعر الجاهلى " .. حمل حقائب وزارات المعارف والخارجية، وتولى نيابة رئيس الوزراء، وخلال رحلة عطائه الطويلة انتخب عضوا فى مجمع اللغة العربية، ثم رئيسا له

(*) المال ٢٠٠٩/٣/٢٦

من ١٩٤٥ إلى وفاته ١٩٦٣.. وأسهم فى عدة مجامع وجمعيات علمية، وترجم أعمالا لأرسطو منها "كتاب الأخلاق" و " الكون والفساد " عن ترجمة : " بارتلمى سانتهيلير، ونشر له كتاب الهلال (أغسطس ١٩٦٣) فصولا من مبادئه بعنوان : " مبادئ فى السياسة والأدب والاجتماع "، ونشر له قبل ذلك سيرته الذاتية " قصة حياتى " .. كانت حياته انحيازاً دائماً للحرية، وعطاء متواصلاً للأجيال .. فكان من أوائل المبشرين " بالجامعة المصرية " وجعل " الجريدة " مدرسة لتخريج جيل واع من المثقفين الكبار الذين ملأوا الحياة الثقافية والفكرية أمثال : د. محمد حسين هيكل، والشيخ مصطفى عبد الرزاق، والشيخ على عبد الرزاق، وطه حسين، والرافعى، ومحمد السباعى والد يوسف السباعى، وتوفيق دياب، وعبد القادر حمزة، وإسماعيل مظهر .

لم يبالغ الدكتور عبد العزيز شرف حين أطلق عليه فى الكتاب الذى ألفه عنه أنه " فيلسوف أيقظ أمة " .. كان إلى جوار ما ذكرته لك من رواد الحركة التجديدية التى طورت كتابة المقال الصحفى، وشفقت جميع كتاباته فى الجريدة وغيرها أنه كان رائداً سابقاً لزمانه، منادياً بالاستقلال والخروج من التبعية التركية، وبإحياء العقل لبناء الشخصية المضرة وحثها على المثل الأعلى فى التربية والتعليم والأخلاق، وتوخذى أن يقيم بناءً سياسياً جديداً بدل القديم متأسياً بأرسطو الذى ترجم عدة أعمال له .. كان ولا يزال بودى أن أنقل لك نماذج من أعمال أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد .. وربما أفعل فى حيز أوسع، ولكنى أحب أن أتوقف معك عند موقفه " الحرى " وتقديسه للحرية .. للفرد والوطن .. تراه يحترم بل ويجل البسالة، ولكنه لا يحب لأحد أن يعبد الباسل — إن كان باسلاً — ومهما بلغت بسالته .. ويتخذ من هذا المبدأ : " رفض عبادة الأشخاص " — أساساً لحكم الأمم ومجافاة الاستبداد بكل صوره .. فالحكم أيا كان — يجب أن يكون لصالح المحكومين، تحكمه نظم قوانين وتشريعات ودستور صادر عن الأمة، وإلا فهو الاستبداد، لأن الدستور هو قوام وأساس وجوهر النظم الدستورية .

فى مقاله الشهير : " عبادة البسالة " (الجريدة عدد ١٩١١/٢/٨)، يقول أستاذ الجيل : " إن العوام تسحرهم قدرة بطل من أبطال الحرب فتعنو له وجوههم ويشعرون نحوه بشعور يفسر فى أعمالهم الظاهرة بأنه العبادة بعينها . إنهم بذلك يشركون بالله أربابا جددا وهم لا يشعرون . تأخذهم عزة ظالم من الظلمة فيكبرونه ويقدسونه ويعينونه على ما هو فيه . بل هم يتزلفون له يرجون رحمته ويخافون عقابه . ذلك بأن الضعف قد ملك نفوسهم وأفسد الجهل عليهم نظرهم فى الأشياء، حتى يصبح تقديرهم لها تقديرا فاسدا . يرون الأعمال الكبيرة فلا يلحظون فى تقديرها أى معنى من المعانى . لا يلحظون أسبابها ولا نتائجها كأنهم لا يرون فيها إلا الجهة المادية . تتجذب قلوبهم لأعمال الفتك والظلم ولو كانت واقعة عليهم بشرط أن يكون الفتك عظيما هائلا والظلم شنيعا كبيرا "

ويضرب لعبادة " البسالة " هذه أمثلة توضح تأثيرها فى إفساد أخلاق الأفراد والشعوب فيقول : " من تلك الأمثلة حب الحكومة الأوتوقراطية والرضا ببقائها، لأن الحكومة الأوتوقراطية أساسها — كما يقول علماء السياسة — عبادة البسالة، أى أخلاق الذل والضعف فى نفوس المحكومين، ومظاهر هذه الأخلاق الفاسدة كثيرة فى ظل تلك الحكومات أبسطها الإسراف فى التعبير عن الحاكم بالسيد، وعن المحكوم بالعبد، وقلما تجد شكاية يرفعها فرد من أفراد الأمة المحكومة بالحكومة الاستبدادية إلا مصدرة بألفاظ العبودية صريحة أو مؤولة، مختومة بألفاظ العبودية الصريحة " !

هذا ما قاله أحمد لطفى السيد من قرابة مائة عام، فهل فارقنا عبادة الأشخاص، وهجرنا عبارات العبودية والزلفى، واحترمنا قيمة وحرية الإنسان ؟!

من

تراب (٢٣٤) الطناش الأمريكى ! (٢)

الطريق!

الطناش الحقيقى، واقع يفرض نفسه على المشهد الأمريكى الراهن .. لم تكد تمضى أيام على المشهد الذى وصفته لك سالفاً بأنه " الهوان الحقيقى " الذى يعيشه العرب بإحالة الرئيس السودانى إلى المحكمة الجنائية الدولية، وعن شأن داخلى، إلا وقذفت الأحداث بمثل صارخ صافع عن الازدواجية الأمريكية التى تلاحق العرب ورؤساءهم بالبطش والذكال، فتشنق واحداً كأضحية مباركة فى عيد الأضحى بعد أن دمرت العراق وأتت فيه على الأخضر واليابس، وتلاحق بإلحاح رئيساً آخر بتهمة تصطنع لها غيرة تستدر العجب وعن شأن لبنانى داخلى، ثم هاهى أمريكا تدفع المجتمع الدولى والمحكمة الجنائية الدولية التى ترفعت - كإسرائيل - عن الدخول فى عضويتها، إلى توقيف الرئيس السودانى ومطاردته لمحاكمته عن شأن داخلى من شئون السودان !

يومها قلت لا تفتشوا عن " العدالة "، فإنها قيمة غائبة عن المجتمع الدولى الذى تحركه الولايات المتحدة، فليس العدل هو محرك هذه الملاحظات، وإنما هو الهوان العربى الذى جعلنا " ملطشة " للصلف الأمريكى، فلم تكد تمر أيام إلا وتحمل صحف الجمعة ٢٧/٣/٢٠٠٩ نقيضين لافتين كاشفين عن " الطناش " الأمريكى عما ارتكبه ربيبتها إسرائيل، وفى شأن غير داخلى وإنما دولى، من جرائم حرب بالعدوان

(٢) المال ٢٠٠٩/٣/٣٠

على غزة من فلسطين إذا كنتم تذكرون، وجرائم إبادة وضد الإنسانية على الشعب الفلسطيني الذي صار حقل تجارب لألة الحرب الإسرائيلية الجهنمية !

النقيض أو الخبر الأول الذي يكاد يتوارى خجلاً وحياءً، جاء في شكل " مطالبة " ومن أمريكي مستيقظ الضمير لا يمارس مثل أشاوسنا سياسة " الأونطة " كما رأينا في " طق الحنك " الذي نادى به أشوس من على منبر وسط حدائق حلوان بفتح باب التطوع للدفاع عن السودان، وإنما هنا بمطالبة جادة من محامى (حقيقى) أسبق يدير برنامج حقوق الإنسان بكلية الحقوق بجامعة كاليفورنيا، يوجهها علنا وفي جدية ناقدة إلى حكومة بلده : صاحبة العصمة أمريكا، بوجود الانخراط فى المحكمة الجنائية الدولية التى ترفعت أمريكا - كإسرائيل - عن الدخول فى اتفاقيتها، ومع ذلك تدفع بمن تشاء - من رؤساء العرب ملطشة الكل ! - للمحاكمة أمامه !

النقيض أو الخبر الثانى الذى جاء فاضحاً للزواجية و " الطنائش " الأمريكى، حملته جميع الصحف نقلاً عن وكالات الأنباء وبعض الفضائيات - غير المصرية طبعاً ! - لتقرير " أمطار النار " الذى أذاعه من القدس المحتلة - " منظمة " هيومان رايتس ووتش "، وورد فيه أن إسرائيل ارتكبت جرائم حرب وإبادة وضد الإنسانية فى غاراتها ٢٧ ديسمبر - ١٨ يناير الماضيين على قطاع غزة .. من بلاد فلسطين التى كانت وجارى الآن الإتيان على شعبها كله إبادة وتهجيراً حتى يصفو الوطن السليب جاهزاً مُشفى مصفى لإسرائيل " محمية " الولايات المتحدة الأمريكية !

ما أذاعته " هيومان رايتس " فى مؤتمر صحفى فى تقريرها : " أمطار النار " - يتحدث عن أمطار أشد من النار، هى أمطار القوسفور الأبيض المحرم دولياً الذى به أمطرت قوات الجو والبر الإسرائيلية - أمطرت الشعب الفلسطينى الأعزل المحاصر من كل جانب .. قال التقرير

إن أ مطار القنابل الفوسفورية نزلت - وهى لا تستعمل إلا بإذن قادة إسرائيل الكبار - فى قصف عشوائى على المناطق المزدحمة بالسكان، ودون أن تكون غطاءً لشيء، والجريمة الثانية أن أ مطار القنابل الفوسفورية قصفت أيضا مقرات ومستشفى ومدارس منظمة غوث اللاجئين الفلسطينيين (لا تنس أن الفلسطينى بات لاجئا فى وطنه !)، وأنه فى الوقت الذى لم يثبت أن حماس استخدمت دروعا بشرية كما زعمت إسرائيل، فإنه ثبت لمنظمة " هيومان رايتس " أن القذائف الفوسفورية المحرمة التى أ طرت بها إسرائيل الأماكن السكانية المزدحمة ومقرات ومستشفى ومدارس منظمة غوث اللاجئين الفلسطينيين فى وطنهم غزة .. هذه القنابل الفوسفورية صناعة أمريكية مصنوعة عام ١٩٨٩ فى الولايات المتحدة فى شركة تايكول إيروسبايس التى كانت تدير مصنع ذخائر الجيش الأمريكى فى لويزيانا !

ومع " دولية " جرائم الحرب والإبادة ضد الإنسانية .. التى ارتكبتها إسرائيل وقادتها الكبار .. خارج حدود إسرائيل، وعلى غزة الفلسطينية وشعبها المحاصر الأعزل، إلا أن أ جذا لم يجرؤ حتى على مجرد طلب أن تتولى المحكمة الجنائية الدولية تحقيق هذه الجرائم الدولية، وكل ما طالبت به المنظمة - وتحمد على تقريرها - هو مطالبة الحكومة الأمريكية ذاتها بالتحقيق فى شأن استخدام الرماية الإسرائيلية للذخائر التى أ مدت بها - فى جرائم حرب وإبادة خارقة لقوانين الحرب !

صافحت أ ذاتى وأنا أ طالع هذه التوصية الحولاء التى تطالب أمريكا بالتحقيق فيما ارتكبتها، صافحتنى أنغام لحن موسيقى جديد لبيت شاعرنا المتنبى فى خطابه لسيف الدولة : " فىك الخصام وأنت الخصم والحكم !!! "

من

تراب (٢٣٥) سقاء وتوالد الحياة ! (*)

الطريق

هل تأمل أحد فى آيات الحياة الولادة من حولنا !!!.. لو تأملنا بذور الجوافة والتين والعنب ولب الخيار والقرع والبطيخ والشمام وحب الحبوب والبقول - لرأينا فيها دليلا ماثلا أمام كل عين على سقاء الحياة وغناها الهائل، وعلى إصرارها الذى لا يكاد يُغلب...

فهى لا تسمح بإفلات أية فرصة قريبة أو بعيدة للبقاء والتوالد، وتتخذ من الانتشار والإكثار وسيلة من وسائل المزيد من بقاء الحياة كأصل، وبقاء النوع كفرع، وأنه بما أودع فيه يكفى أى حركة للبصرة أو مافى حكمها فى أى اتجاه، ولأى سبب .. واع أو غير واع .. لإيجاد فرصة لانطلاق حياة جديدة... ففى مصادفة عجيبة تتلاقى فيها - لحظة الاجتماع - كل الشرائط اللازمة والملائمة لهذا الانطلاق الذى يبيت إلى الوجود حياة جديدة .

ومن يتأمل يرى أن الكائن الحى لا يكف قط عن محاولة الإبذار .. تهيأت تلك اللحظة أو لم تنتهياً .. تحقق التوالد بالإبذار أو بغيره - أو لم يتحقق .. لا يستغنى الكائن قط عن هذا الإبذار وما فى حكمه .. لأن الحياة دعوبة وفى صيرورة لا تعرف اليأس، وإصرارها أبدا لا ينفد .. وليس لها عمر ببداية ونهاية كأعمار الكائنات .. وهى فى ديمومتها واستمرارها وإصرارها تتعامل مع الأحداث والأشياء ومدى روابطها وكيفيةها - على أساس لا تبديل له أنها هى الباقية والأحداث والأشياء غير دائمة !

(*) المال ٢٠٠٩/٣/٣١

بخلاف تعامل الآدميين معها، فإننا نوجد ونزول كما نزول الأحداث والأشياء .. ويحتاج وعينا إلى أن يكون له زمان ومكان، وتاريخ وماض وحاضر ومستقبل، ومقر وموطن .. لنحيا حياتنا الواعية المدركة التى نتصورها وننذكرها فى إطار الزمان والمكان فقط ! .. وبدون هذا " الإطار " لا يكون فى وسعنا أن نتصور أو نتذكر ما مر أو يمر بحياتنا الواعية !

* * *

وقد يتساءل المتأمل : هل يوجد " تصميم " لخلقة وتكوين أى كائن حى سابق على وجود الكائن .. وأين ومتى وكيف ؟ هل هذا السؤال وارد أم أنه من أصداء وعينا الذى يعيش فى إطار الزمان والمكان ؟

قالوا إن مادة الـ D. N. A موجودة فى الكروموزومات والمادة الخلوية، وأنها هى التى توجه أنشطة الخلايا فى الكائن إلى أنواعها واختصاصاتها ووظائفها، وتكون وتشكل الأعضاء والأجهزة المختلفة للكائن على مدى حياته .. بيد أن هذه كلها أمور كلية لا تفسر خصائص واستعدادات الكائن الفرد . ومن أين جاءت وما هى الأسرار والقدرات الذاتية الكامنة فيها ؟!

ومن يتأمل منا الحياة فى نفسه، يجدها بأنواعها وألوانها نظاما كاملا متكاملا عميقا شديد العمق صارم القواعد والضوابط، وليست كما يقول البعض - صدفة من صدف الكون ولا خبطة عشوائية جزافية غير مقصودة . وصدق الخالق جل شأنه إذ يقول فى محكم تنزيله : " سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ " (الأعراف : ١٤٦)

من

تراب (٢٣٦) احتراف أعرج ! (*)

الطريق!

لم أعمل قط بالنقد الرياضى، ولكنى مارست الرياضة على مدار العمر، ولم أترك رياضة - تقريباً - إلا لعبتها، ولا زلت رغم ما انصرم من العمر أمارس الرياضات التى تسمح بها السن، ولكنى متابع دائم للرياضة فى بلادنا، ولكرة القدم على التخصيص، وأجزنتى كما أحزن غيرى أداء ونتيجة مباراتنا مع زامبيا بأمس ٢٩/٣/٢٠٠٩، وصنعتنى ما صدم جميع المحللين وعبروا عنه فى تعليقاتهم على سير المباراة، أن اللاعبين المحترفين بخارج الديار كانوا جميعاً عالة على الفريق، مظاهر ذلك ضعف الطاقة، ونفاد الوقود، وفقدان المرونة والتلبية، وقلة الحيلة، وتواضع ما يسمى بحساسية المباريات !

ليست هذه السطور لوماً لأحد، ولا عتاباً لأحد، وإنما أرنت بها أن أثير قضية احتراف لاعبي كرة القدم بالخارج، فلا يمضى يوم إلا وتنتشر الصحافة الرياضية أن اللاعب فلان واللاعب علان صرح وشدد فى تصريحه أنه يريد خوض تجربة الاحتراف، وكأنه لا يمارس الاحتراف فى مصر، فإذا واجهه أحد. بأنه محترف فعلاً فى بلدنا، تخرج بأنه يريد الاحتراف بالخارج، لأن الاحتراف بالخارج تمام التمام، والاحتراف فى مصر أعرج !! والأغرب أن نرى لاعبين عادوا هذا العام من احتراف خارجى ليحترفوا فى أندية مصرية كالأهلى والزمالك، فلا يكاد يمضى شهر أو شهران وربما ثلاثة، إلا ويمأ اللاعب صفحات الصحف وموجات

(*) المال ١/٤/٢٠٠٩

الفصائيات بأنه ضجّ ولم يعد فى قوس الصبر منزع، وأنه يادوب سوف يصبر للانتقالات الشتوية، وعلى الأكثر لانتقالات الموسم الجديد، ليمارس حقّه فى الإحتراف بخارج الديار، دون أن يهتزّ له جفن أو رمش أو يبالي بعقد الاحتراف الذى أبرمه مع النادى المصرى، ولا بالملايين أو مئات الألوف التى تقاضاها منه، ولا بمسئولية الالتزام والرّفاء بالتعاقدات والعهود، وقد استمرّ أحدهم وهو قادم لتوّه من احتراف خارجى لسنوات طويلة ليختم حياته الكروية - كما قال - فى النادى الأهلى .. استمرّ إطلاق التصريحات بأنه لابدّ منتقل فى آخر الموسم وربما إلى أحد أندية قطر الميمونة لأنه غير مستريح بالنادى الأهلى، لأن المدير الفنى أحيانا لا يتركه يكمل المباراة مع أنه يؤدى بالملعب خير أداء . ومع أنه لاعب مخضرم يعرف أن للمباريات خططا تستوجب تغييرات حسابها للمدير الفنى، فضلا عن حسابات نفاد الطاقة واللياقة البدنية، أو إنعاش الفريق بطاقة جديدة، أو المحافظة على اللاعبين من الإجهاد للحفاظ على استمرار عطائهم فى المباريات القادمة، إلّا أن اللاعب المخضرم راسه وألف سيف أن يغادر لأنه غير مستريح وسوف يعود إلى الاحتراف بخارج بر مصر!!

ربما كان هذا اللاعب أحد حالتين أو ثلاث نجح احترافهم بالخارج، إلّا أن ذلك ليس مبررا للتصرفات التى ساءت كل المتابعين لهذه النرجسية المتورمة ! هذه واحدة، والثانية وهى سبب كتابة هذه الكلمات، أن حال اللاعبين المحترفين بالخارج فى مباراتنا الأخيرة مع زامبيا، تكشف عن تهافت كل الذرائع التى تم ويتم بها الترويج للاحتراف بالخارج، بقالة إنه ينقل الكرة المصرية إلى العالمية، ويتيح للاعبينا الاحتكاك بالمدارس الكروية المختلفة وبكبار نجوم العالم واكتساب الخبرة وجنى الامتياز !

كان يمكن أن يكون هذا صحيحا لو أن هؤلاء اللاعبين يخوضون المباريات مع أندية بالخارج، ولكن تورى المتابعات أن معظمهم إن لم يكن كلهم أصدقاء دكة الاحتياط، وأنهم دائما على الخط لأسباب مختلفة، مع أن بعضهم كان يلعب المباريات الرسمية فى مصر بنسبة لا تقل عن ٩٠%

من مباريات ناديه ! معنى ذلك أنهم احترفوا بالخارج ليتعطّلوا وتتعلّطل مواهبهم وتراجع لياقتهم وتزيد أوزانهم، وتتقل حركتهم كما لاحظ جميع المحللين المتابعين للمباراة الأخيرة التي كانوا عالّة فيها على المنتخب المصرى !

معنى هذا أولاً أن الاحتراف الخارجى لم يؤت ثماره المرجوة، ومعناه ثانياً أن اللاعبين المصريين يعيشون فى وهم كبير يجرهم إلى إفساد الحال فى أنديةهم المصرية، ومعناه ثالثاً أن اختيارات المنتخب الوطنى لا تزال أسيرة لأوهام الاحتراف الأعرج فى الخارج، ظنى أن "البضاعة" فى مصر - إن جاز التعبير - أبرد ألف مرة لأنها لا تزال غنية مؤهلة باللعب والممارسة فى مصر، وموصولة بشجرة الانتماء !

من

تراب (٢٣٧) إلام تمشى البشرية؟! (٢)

الطريق!

يبدو أن الكهنة ورجال الدين لم يعودوا يمارسون في العصر الحالي سلطة دينية، بقدر ما يمارسون سلطاناً أخلاقياً . جرت الأعراف في زماننا أن يلجأ أهل الملة إلى الكاهن فيما يصادفهم من مشاكل وصعوبات طائنين منه النصيح والمشورة والإفادة بما يتبعونه .. وهذه وظيفة هامة لرجال الدين لا تأخذ حظها من الإعلان عنها بقدر ما تأخذ طقوس الصلوات والولادات والزيجات والوفيات وغيرها من المهام الدينية الملقاة على عاتق الكاهن، وهى أهم ما يعطى لأية ملة نصيباً فى حياة الجماعة الحديثة المتطورة ودوراً يبرر وجود المال فيها تبريراً فعلياً لا محل فيه للمجادلة .. ولعل هذا أيضاً هو الذى استتبع خضوع الكهانة فى كثير من الملل لأنظمة ورياسة وقبود وقواعد فى المظهر والمعيشة والسلوك .. تدل على الكاهن عند الجمهور حيثما وجد .. على نحو ما تدل عليه بعض الأزياء بالنسبة لبعض المهن إن صح هذا التشبيه.

وهذا يقرب الكهانة من الحرفة والاحتراف، فإن الكاهن يتخصص لخدمات معينة يؤديها لمن يطلبها أو لمن يحتاجها من أهل الملة، أو من سواهم أحياناً، دون أجر شخصى له بمناسبة قيامه بخدماته .

ومادام الكاهن أو رجل الدين يقوم بإشباع حاجة لدى الجمهور، فلا خوف عليه من الانقراض . ولكن الخوف عليه من أطماعه وشغفه أن يكون ذا نفوذ سياسى وصاحب سلطة، فيسئ استعمال خدماته وثقة

(٢) المال ٢٠٠٩/٤/٢

جمهوره فيه ويتسبب فى فتنة تأكله وتأكل الكثير من مكانة ملته ..
والتاريخ ملئ بالأمثلة على ذلك، ولكن انتهاء النفوذ والسلطة أقوى عند
بعض الناس من كل شئ .

لقد ألغت الثورة البلشفية الملل والدين فى روسيا، وأغلقت المعابد،
وشردت جميع الكهنة، ودأبت لعشرات السنين على قمع العودة إليها بكل
عنف .. ولكنها أذعن لإصرار الجمهور على مله وليأذه بالبقية الباقية من
كهنته .. فأعادت فتح المعابد مع عدم التعرض للمتريدين عليها أو كهنتها
فى أداء مهامهم، لأنها أيقنت أنها حين حاولت حرمان الشعب من شئ
يراه ضرورياً لحياته - لم تقدم له بديلاً يغنى عنه، فأنتهت ذلك الحرمان
الذى تصورت قدرتها عليه فى غمرة شبابها وبعض تنقته بنفسها وتخليها
أنها صارت قادرة على تغيير كل شئ ! وقد مرت الثورة الفرنسية لفترة
قصيرة بمثل هذه التجربة وانتهت أيضاً بالعدول عنها لارتباط الجمهور
بمعتقداته وكهنتها لأكثر من عشرة قرون .

والكهنة والمدرسون والضباط - فئات هامشية برغم حاجة الجمهور
إليها .. وعمل هذه الفئات يبعدها عادة عن غمار الحياة والتعرض لتعقيدها
وصعوباتها وتشعب روابطها وصلاتها واكتساب الاعتياد على واقعها،
وعلى الإدراك الفعلى بأنه واقع قديم يرجع إلى أعمار ودهور، ولا يمكن
تغييره كله أو تغيير بعضه إلا بطول نفس وطول وقت .. ولا ينبغي أن
يشرع فى تغيير شئ منه إلا بحساب واحتراس . فتلك الفئات الهامشية
والتي لم تألف هذا الواقع القديم جداً ولم تتعلم من الخبرة مبلغ انتشاره
وتشعب جذوره - يذمها بقاؤه وتعزو بقاءه إلى تراخي من ييدهم الأمر أو
إلى فسادهم .. وتظن أنه بمجرد إزالتهم عن مواقعهم - يمكن بالأمر والنهي
إبدال ذلك الواقع القديم بواقع جديد يتفق مع خيال المصلحين وما يطيح أو
ينفع فى اعتقاد أهل الهممة والنمة . أحلام يغذيها الاحتضان الطويل مع
الإعادة والزيادة بين سامعين مشغولين بشئونهم الخاصة لا يعرفون شيئاً
حقيقياً عما عداها - لقلة الخبرة أو لقلة الدراية أو للأمرين معاً، فتولد الفتنة

وتموت بخسائر فادحة، أو تنتصر وتعيش متخبطة فى تنفيذ مشاريع
انفعالية لأحلام لا تتحقق ثم تعدل عنها بعد مزيد من الخسائر التى لا حصر
لها فى الوقت والمال والنفوس .. هكذا تمشى المجتمعات البشرية إلى
الوراء أو يميناً أو يساراً وهى نائمة .. لا تخطو إلى الأمام عن قصد، وإنما
عن اتفاقات وظروف غير مقصودة .. كأنها لا تستطيع أن تهتدى لشيء
صائب إلا بعد إمعان فى الضلالات والأخطاء !

من

تراب (٢٢٨) شر البلية ما يضحك! (*)

الطريق!

ذكرني بشر البلية، انجذاب الكاميرا الإعلامية انجذابا مريضا لكل نافه مخالف للأعراف استسلاما لحكمة قديمة، قالها أريب خبيث : " خائف تعرف " ! .. لا يهم في ماذا ولا بماذا تخالف . المهم أن تخالف فتعرف وتتجذب إليك الأنظار ومعها الاهتمام !

كان ظني أن ذلك محصور في جمهور الناس .. في السذج والبسطاء والسطحيين، ولم يدر بخلدی أن يسرى ذلك على المنوطين بتكوين " عقل الأمة " وما يستخدمونه من الكاميرات والأفلام الإعلامية .. والأدهى أن يجرى ذلك في أمهات المسائل المتعلقة بالمصير المقول بأنه جارى نظره والبت فيه - في مؤتمر القمة بالدوحة !

الفرض أنه مؤتمر جامع للقمة العربية، والفرض أن كل قمة من هذه القمم هو غاية المراد والمرام والمأمول والتممكن والمتصرف في بلده .. إذا استقام عوده استقام شعبه .. وإذا استقام تصرفه ومسلكه هذا الشعب حذوه، وتأسى به .. والفرض أن هذا الجمع من صفوة الأمة العربية قد تركوا أقطارهم وذهبوا إلى الدوحة لجدٍ لا لهزل، وأن الكاميرا والتغطيات الإعلامية ذهبت إلى هناك لترصد الجد لا الهزل، وتتلمس القيمة والفعل من قيم ومواقف ومعطيات هذه القامات !

لذلك فقد صدمتني تعليقات ملأت صحفنا ومجلاتنا، أن الأخ العقيد خطف الكاميرا من الرئيس البشير! .. ولم أفهم لماذا تكون الكاميرا منجذبة

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٦

للشهير؟! إننى لا أتعاطف مع " شخص " الرئيس البشير، ولكنى متعاطف
تعاطف المضطر - ضد القرار الصادر من الجنائية الدولية بتوقيفه
وملاحقته، لا لأنه مظلوم أو كامل الأوصاف، ولكن لأنه رئيس عربى
وصار شئق وملاحقات الرؤساء العرب - مأساً حتى النخاع بكرامة كل
العرب، ودالاً على أنهم صاروا فى هذا الزمن الكسيح ملطشة كل مَنْ هب
ودب، وملطشة الغزوات الأنجلو أمريكية، والبطشات والغارات
الإسرائيلية، وملاحقات وتوقيفات المحكمة الجنائية الدولية !

إن الرئيس البشير الذى نتعاطف ضد القبض عليه تعاطف المضطر -
لم يحسن التصرف فى دارفور، وهو لم يحسن التصرف أيضاً فى مشهد
الطبل والزمر والرقص الذى يديره فى السودان ! .. قد تتبع الكاميرات
هذه المشاهد الطريفة لتسلية المتلقين، ولكن ظننى أن الكاميرات الإعلامية
فى مؤتمر القمة ! - لا ينبغي أن تتجذب إلى الطرائف وإنما إلى الجواهر
إن كانت هناك جواهر !

لذلك فقد دهشت لماذا كان يمكن أن تتجذب الكاميرات إلى الرئيس
البشير لولا أن غطى وزاد عليه وخطف الكاميرات منه : الأخ العقيد !
ظننت للوهلة الأولى أن الأخ العقيد قد أتى بما لم تأت به الأوائل، وتفتق
ذهنه عما يقبل الأمة العربية من عثراتها المزمنة، ويقويها على الأخطار
الداهمة المحدقة بها، ولكنى وجدت أن الكاميرات انجذبت " لخيمة وأزياء
" الأخ العقيد . أوصاف الخيمة الفخيمة التى صنعت خصيصاً بإيطاليا أو
ألمانيا على غرار الخيمة التى يشغلها فى الجماهيرية، فى حراسة الحرس
النسائى الشهير . وأوصاف الأزياء اللافتة التى يصممها فخامته بنفسه ..
ما بين البدلة البيضاء التى وصل بها إلى مطار الدوحة، والعباءة اللببية،
والطاقية البنية الفاتحة اللون، والنظارة السوداء، ثم فى الختام العباءة ولكن
بطاقيّة سوداء، مع الشال البنفسجى فى أخضر وأصفر !

ما علينا من الخيمة والأزياء، لا بد أن الأخ العقيد اتخذ مواقف
مصيرية تجذب جميع الكاميرات .. نقلت عنه هى والميكروفونات أنه قاطع

رئيس القمة أمير قطر وانتزع منه الكلمة انتزاعاً لأمر جلل .. أن ينادى على ملك السعودية - والغريب أنه بنية المصالحة ! - ليقول على الملأ الذى تتابعه وتسمعه وتشهده الدنيا : " احتراماً للأمة أعتبر المشكل الشخصى الذى بينى وبينك قد انتهى، وأنا مستعد لزيارتك، وأنتك ترورنى " .

ولو سكت الأخ العقيد عند هذا الحد، لكانت العبارات جديرة فعلاً بالالتفات، والمشهد جديراً فعلاً بجذب الكاميرا وسرقتها من الرئيس البشير ! ولكن الأخ العقيد أكمل يقول على مرأى ومشهد ومسمع من العالم : " أنا قائد أُمى وعميد الحكام العرب وملك ملوك أفريقيا وإمام المسلمين .. مكانتى العالمية لا تسمح لى بأن أنزل لأى مستوى آخر " !

يا أطاف الله ! لقد كنا نضحك ملء أفواهنا من التصميم على وصف لاعب كرة مصرى بأنه عميد لاعبى العالم، فإذا بنا نشاهد حاكماً عربياً يسبغ على نفسه هذه الصفات التى لم تجتمع لعمر بن الخطاب، ولا لأحد من الراشدين أو عظماء التاريخ ! .. هو مرة واحدة كده : القائد الأُمى وعميد الحكام العرب - ناقص أن يقول وكلهم ركش - وملك ملوك أفريقيا - مع أنه رئيس وليس ملكاً - وإمام للمسلمين .. وبلاش شيخ وشيوخ الأزهر والهيئات الإسلامية فى السعودية وغيرها من أقطار الإسلام، فقد صار الأخ العقيد إماماً للمسلمين، على ماذا ؟ ليس يهم ! المهم أنه إمام المسلمين فضلاً عن القيادة الأُممية والعمادة وتقلد عرش ملك ملوك أفريقيا!

لم يدهشنى ما فعله الأخ العقيد، ولا انصرافه فوراً من بعده تاركا المؤتمر والمجتمعين والموضوعات المزمع بحثها فى مصير الأمة، ليذهب لزيارة المتحف القطرى لإراحة أعصابه من هذه الخطبة العصماء، وإنما الذى أدهشنى هو " انجذاب " الكاميرات الإعلامية العربية التى يبدو أنها قد أصيبت بعمى ضرير لم تعد تفرق فيه بين الهزل والجد، وبين ما يُسابع ويُنقل ليضيف شيئاً جاداً نافعا مجدداً إلى هذه الأمة المبتلاة، التى صارت بأسرها فى مشهد مضحك، ولكنه ضحك كالبكاء !!

من

تراب (٢٣٩) بليّة مضحكة أخرى ! (*)

الطريق!

هذه بليّة أخرى يضحك شرها، متصلة ببليّة الأمس المضحكة التى ملأت سطور عمود الأمس، وملأت قلوبنا وعيوننا بكاء على جبال الأمة العربية ! .. فى ظلمات هذه الأحزان يَلْتَمَس البدر، والبدر المأمول لا يمكن أن يأتى إلا من النخبة المثقفة العارفة القادرة على الإمساك بالزمام وقيادة العقل الجمعى والفردى إلى " النور " الذى يشق به طريقه وسط الظنلام، ويأمن الزلات، وأباطيل المبطلين، وطلقات الطائشين، وسفاهات صُناع ومحترفى " الأونطة " التى صار لها هى الأخرى قادة وزعماء وأمرء .. وربما نسمع أحدهم ينادى بأنه الزعيم الأوحد والوطنى الأوحد والبصير الأوحد والمحنك الأوحد والأشوس الأوحد .. فيه وحده الأمل، وعليه وحده معقد الرجاء !

هناك تحولات أراقبها وفى الصدر ضيق شديد قد ينطبق عليه : " إن نكتم ينشق الصدر، أو ننطق ينفتح القبر " ! .. هذه التحولات أصابت بالتحديد صحيفتين صارتا معنيتين يومياً بتخصيص ركن دائم مُحلّى بالصور والمانشئات لزيارات خزفية تقطع طول البلاد وعرضها حتى النوبة، يُستقبل فيها صاحب الركن أو المقرر الدائم استقبال الزعماء والأبطال بما ينافس - إن لم يزد - عما كان يُستقبل به مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس ! .. صاحب الركن مهما كان التعاطف مع محنة سجنه سلفاً فى جناية تزوير توكيلات، سواء كان

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٧

التزوير ملفقاً عليه، أم تعنتت السلطات فى كشفه وملاحقته فيما كانت تكفى بالتلويح إليه تلويح العارف المتابع الساكت عنه إلا أن تبدر بادرة غير مرضية تدعو لفتح ملفه ! .. صاحب الركن لم يكن فى يوم من الأيام زعيماً مصرياً مشهوداً أو غير مشهود، ولا عالماً من العلماء الأفاضل، ولا مهنيّاً من المهنيين المتميزين الذين لا يشق لهم غبار، ولا هو صاحب إمكانيات فذة .. ولم يرصد أحد خدمات جليلة قدمها للوطن، اللهم إلا إذا كان الترشح للرئاسة - وقد فعلها عديدون غيره ! - عملاً مغواراً لم تأت به الأوائل ولن يأتى به الأواخر، مع أن الحزب والتشجيع على الترشح كان آنذاك جارياً على قدم وساق مقروناً بمنح " وهبة " تشجيعية لتكاليف الترشح .. قدرها نصف مليون جنيه أى خمسمائة ألف جنيه بالتمام والكمال !

لم تكن الدولة ضيقة إذن بترشحه للرئاسة ولا بترشح سواه، بل كانت الدولة تشجع وتحض على الترشح ليكتمل المشهد التنافسى الذى كان مقطوعاً بنتيجته المؤكدة التى يعرفها الأعمى والبصير، ويعرفها المترشحون أنفسهم، الذين عرفوا أنهم ليسوا أهلاً للمنافسة، لدرجة أن تنادى أحدهم - رحمه الله - بأنه سوف يعطى صوته على الرئاسة لمن خاض الانتخابات لمنافسته !

ليس هذا تجريحاً ولا تهويناً من أمر المرشحين أو من شأن صاحب الركن، فوالده - رحمه الله - زميل محترم وصديق عزيز جداً، وإنما أردت فقط أن أوضح نقطة : لماذا هذا المقرر أو الركن اليومى الدائم بالصحيفتين، المَحَلّى بالصور والعناوين، للنفخ والتكبير والتضخيم، يتابع كل شاردة وواردة، حتى البسمة والتكشيرة وربما الكحة، فى افتعال لا يفوت القارئ، ومع ذلك لا يتردد الركن اليومى الدائم فى هذا الإلحاح الغريب الذى أعيانى فهمه والبحث عن وراءه !!

ظننى أن صاحب الركن الدائم نفسه، لا يملك إمكانيات ولا أدوات تسخير صحيفتين يوميتين للتخديم عليه بهذا التخديم المفعّل المصطنع،

ومن ثم يظل السؤال مشرئباً عن مصدر وعلة أو حكمة وغاية هذا التّخديم ولأى هدف ؟! .. هل لمعارضة النظام وتقديم رئيس منافس ؟! .. إن مصر مليئة بقامات عالية حقيقية مهياة بعلمها وكفاءتها وخبراتها وشخصياتها وتاريخها - تصلح لهذه المنافسة، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون أحد من الناشئين للركن أو المقرر اليومي الدائم - قد صدّق للحظبة أن الجارى التّخديم عليه يملك بالفعل ما يؤهله لهذا الموقع الرفيع ومسئوليّاته الخطيرة !

أيها السادة، إن مصر أكبر كثيراً من هذا الهزل، واعتلاء رئاسة مصر ليس أمراً هيناً يُدفع أو يُتصور أنه يمكن أن يُدفع إليه بأى شخص ! .. المشهد الراهن خائب الغرض، خائب المسعى، خائب الهدف، ناتجه الوحيد أنه يساهم بالوعى أو باللا وعى فى مزيد من نشر ثقافة "الخيبة" و "الأونطة" !

مصر أغلى وأعز من هذه المشاهد العبثية الهزلية المؤسفة، وحريّة جديرة بأن ترتفع حاكمين ومحكومين إليها وإلى أمانيتها وحقوقها علينا .. من شرّ البليّة أن السعى الذى نراه - يشد مصر إلى الوراء ! .. إن البضاعة التى أتلّفها الهوى كما قال السيد عبد الجواد فى ثلاثيّة نجيب محفوظ - قد ضربت فى كل باب، ولم يعد هناك أمل إلا فى مسعى وأداء النخبة الحقيقية المخلصة .. فهل نقبض على هذا الأمل ؟!

من

الخط الرفيع بين الشفافية

نراب (٢٤٠)

والتلصص ! (*)

الطريق!

بغض النظر عن دوافع نشر تعاقدات الجامعة الأمريكية على تقديم خدمات استشارية فى الظاهر ومعلوماتية فى الواقع إلى الجيش الأمريكى، فإن هذه التعاقدات تترجم عن واقع اختراق مصر بمجموعة من الأساليب المتنوعة تتوارى الأغراض من خلفها إلقاء لما يحظره ويجرمه القانون لكل إفساء أسرار عسكرية أو سياسية أو اقتصادية أو حربية ... إلخ ! ومن سنوات كتب الدكتور لويس عوض عن الاختراق الثقافى لمصر، أما ما يجرى الآن لحساب الأجهزة المخابراتية والجيش الأجنبية من تسيتر وراء صيغ مختلفة لجمع هذه المعلومات بمأمن من ملاحقة القانون، فيشكل فى واقعه محظورات يجرمها القانون ويفرض لها عقوبات غليظة ما بين السجن المشدد الذى قد يصل إلى التأييد وفى بعض الصور إلى الإعدام ! ومن الغفلة أن نستسلم لهذه الاختراقات ولها مسميات أخرى فى القانون، لمجرد أنها تتستر وراء صيغ وأشكال قد تبدو بريئة فى ظاهرها، ولكنها لا تنتمى فى الواقع إلى البراءة أو التجرد، بل هى توطئ بما تجمعه من معلومات للهيمنة على الواقع المصرى وجمع ما يساعد على تحقيق هذا الغرض وتسيير الأمور فى الاتجاه الذى يوافق مطالب ومآرب الخارج، ولا يبالى بمطالب مصر وحقوقها ومصالحها !

لم تقتصر هذه الظاهرة على الدور " المعلوماتى " الذى تمارسه الجامعة الأمريكية من سنوات، ولا على البحوث المختار موضوعاتها بعناية لتغطية

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٨

جمع المعلومات عن النشاط الدينى مثلا حيث تتحول البحوث إلى " تقارير
" فى الواقع يتم فرزها وتمشيطها فى عمل معلوماتى يعرف أغراضه، أقول
إن هذه الظاهرة لا تقتصر على الجامعة الأمريكية، فقد أخذت تتعدى فى بر
مصر الجامعات الأجنبية المختلفة، والمراكز البحثية، والجمعيات الحقوقية
ولا أقصد الكل، وغيرها من تشكيلات تتخذ أهدافا ثقافية علمية فى الظاهر،
وغرض بعضها فى الباطن استقصاء حال الداخل المصرى، وتجميع
المعلومات والأسرار التى يمنع القانون إفشاءها ويجرم هذا الإفشاء أو
التسريب فى بابى جرائم أمن الدولة من جهة الخارج والداخل فى المدونة
العقابية المصرية التى تضمنها قانون العقوبات والقوانين المكملة والمساندة
له !

يساعد على نفشى هذه الظاهرة فى بحبوحه، أن الأمن المصرى
مشغول بالداخل واحتقاناته - عن الرصد والمتابعة والتمحيص الدقيق
لواجب لهذه الأنشطة التى تتلصص بمسميات مختلفة على الداخل
المصرى، ويساهم أيضا فى هذه البحبوحة تراجع الثقافة بوجه عام،
والإقبال بسبب المظهرية أو الثراء أو تراجع الدرجات أمام تسعيرة مكتب
التنسيق - على الجامعات والمعاهد الأجنبية، وعدم الالتفات إلى ما يبيت فى
الدراسة من برامج بحثية لا تستهدف فى الواقع إلا جمع تقارير فى صورة
بحوث يكتبها الطلاب بحسن نية، ولا تلفت إليها الآليات الأمنية المشغولة
بهموم داخلية كثيرة تصرف عنها صفاء الرؤية لما يجرى من وراء
الكواليس استهدافاً لأمن مصر القومى !

وصول الصحيفة التى نشرت صور بعض تعاقبات الجامعة الأمريكية
بالقاهرة مع الجيش الأمريكى، يغدو أمراً لافتاً، ولكن الأكثر منه لفتاً للنظر
- أن يصرح مستشار الجامعة أنه لا يعرف تفاصيل العقد المنشور
٢٠٠٩/٤/٦ ليعلق عليه !.. أليس هذا غريباً أن يغيب أمر العقد
وتفاصيله وخلفياته ودهاليزه عن المستشار المصرى للجامعة الأمريكية
بالقاهرة، بينما تصل صحيفة خاصة إلى صور لهذه التعاقبات !!!

ظنى أنه يتعين فتح هذا الملف بعين الحذر والفتنة، والمراقبة
والفحص، حتى لا تترك مصر نهياً لمن يريد التلصص عليها .. هذا الحذر
لا يستهدف تقطيع جسور التواصل الثقافى والمعرفى، ولا هو يتجاهل
جوانب وأدواراً طيبة قدمتها وقامت بها مراكز بحثية وجامعات أجنبية
ومنها الجامعة الأمريكية التى أدت دوراً ملموساً وقدمت خريجين أكفاء فى
شتى المجالات . ما أقصده هو التحرز من عديم خلط الأوراق، لتبقى
الجسور الثقافية قائمة بدورها فى صدق شفاف برىء من ارتباطات تثير
علامات استفهام، وقد تشكل خطراً على أمننا القومى . أمن مصر القومى
أعلى من أن يترك للنوايا الحسنة !

من

تراب (٢٤١) الأخلاق فى صحبة الفهم ! (*)

الطريق!

الأخلاق مصحوبة بالطاعة والتسليم - أيسر وأسهل من الأخلاق مع الفهم، ولكنها أقل خصوبة وحيوية وتفاعلاً مع الروح والعقل، لأن الطاعة والتسليم بالأخلاق كمصدقات، لا بد منها تصديقاً واتباعاً ينطويان على موقف إيماني يتعرض مع الزمن للتجمد والتكلس .. وهذان يخدمان الروح والعاطفة والعقل !

وقد ضمنت الأديان السماوية - للأخلاق طاعةً وتسليماً من قرون وأحقاب بالنسبة للجماهير، لأنها جعلت الالتزام بقواعدها التزاماً للرب وجزءاً لا يتجزأ من الإيمان بدينه، ولأنها ضيقت بذلك من فرص الفهم والتأمل، وخلقت مع الأخلاق ثبات الدين وعدم قابليته للتغيير فى شكله وفى موضوعه .

والتمسك بالقواعد المقررة للأخلاق - تسليماً وإيماناً كقواعد التدين - لا يخرج عن كونه اعتياداً فيه آلية محوطة بشيء من القداسة والزهو .. يظن صاحبه أنه يخوله الإرشاد والهداية وإن كان فى الواقع موجهاً منقاداً، وأنه يعطيه مكانة يجب أن يسلم الناس له بها .. كبيرهم ووضعهم .. لأن ذلك يعطيه حقاً فى أن يصوب ويخطئ سلوك البشر .. وهذا الاعتياد لا يتأثر بتغيرات المحيط واختلافات الأحوال والظروف، وهو يزداد مع التقدم فى السن تسلطاً وعنفاً وقلة صبر وتعجلاً فى الإدانة وترديداً وتخويفاً بالعواقب .. والناس تتحاشى صاحبه قدر إمكانهم لأنه يزيد حياتهم عُسرًا

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٩

.. لأن التزام الأخلاق والتدين إنما يخدم الناس وحياة الناس، والناس لا تقبل على الأخلاق والتدين إلا من أجل ذلك .. فإن عسراً وضيقاً على الناس حياتهم، تحولوا عنهما !

وثبات قواعد الأخلاق في صيغها القديمة سبب إخلال الأجيال المتعاقبة بها فعلاً وواقعاً مع محاولة تبجيلها كلاماً وادعاء .. وهو ما يكشفه الصغار بسرعة في كل عصر ويندفعون باكتشافه إلى العريضة وانعدام الثقة لدى الكبار !

فالأخلاق المصحوبة بالطاعة والتسليم قولاً وفعلًا تكاد لا توجد الآن في أي مجتمع متحضر، وإن كانت صيغها موجودة يرددها الناس في المناسبات تعليلًا أو تسهيلًا أو محاجة .. ولم توجد بعد حركة عامة جادة في أي بلد لعلاج هذا الواقع .. ولا لمحاولة تطوير الأخلاق تطويراً معقولاً يساير تطور المعارف والأحوال والظروف، ويعيد إلى الأخلاق امتزاجها بواقع الحياة وتفاعلها مع أرواح وأفكار وعواطف الأحياء .

وهذا يسوقنا إلى الوقوف بالأخلاق مع الفهم .. أي الأخلاق المرتبطة دائماً بالعمل والحياة وواقعها المتغير المتطور .. وليس بصيغ عامة خالية من التحديد كلما ضاقت اتسع شمولها ومعناها .. فلا يمكن انضباطها، ويتمسك الناس بصيغها ويتهربون من حسن تطبيقها برغم ملائمتها للعقل والواقع !

والذين يفهمون الأخلاق واسعو الصدر دائماً قادرون على إدراك الأعداء وعلى احترام حق آدمي في أن يعالج أموره ومشاكله مادام جاداً حسن النية سريع العودة إلى الصواب عندما ينكشف له خطؤه . لأن الأخلاق مع الفهم مطلوب عقلاً من كل آدمي ليحيا حياة معقولة طيبة مليئة بالثقة في النفس والغير وباحترام النفس واحترام الغير . ولكن لا يتيسر معايشة الأخلاق مع الفهم - إلا لقليلين من الناس منهم الموهوبون بموهبة الإحساس بأهمية وقيمة الآخرين .. وهذا الإحساس يوقف عندهم الميل إلى

الحكم والتحكم أو يمنع ظهوره .. ومن هؤلاء أغلبية أهل الولاية
والقديسين .. ومنهم أهل التأمل والفكر وسعة العقل والصبر .. الذين
يتشككون في صحة العداوات وفي إمكان اليأس من حال أى مخلوق،
ويرون أن الأخلاق أرواح لا تحسبها الصيغ والأوصاف والأشكال
والصور . قد توجد في أية صورة أو شكل، وقد لا توجد مع اجتماع
الصيغ والأوصاف والأشكال المتواضع عليها !

وربما كانت الأخلاق مع الفهم بؤادر وشواهد في طريق الأخلاق
للتخلص من الاحتياج للامتثال والطاعة والتسليم .. والموقف الإيماني
تطور يحتاج إلى وقت طويل تتحول معه جماهير البشر من شدة الاعتماد
على التقليد والمحاكاة والتصديق في بذل عواطفها وتحريك ميولها، إلى
نجاح في مصاحبة عقولها لعواطفها وعواطفها لعقولها مصاحبة لا تتقطع
.. تخدمها الأشياء المادية وتتنافس في خدمتها - خدمة المادة للروح والمبنى
للمعنى .

من تراب (٢٤٢) العظماء المشردون ! (*) الطريق!

هذا العنوان ليس من اختياري - وإنما اختاره الأستاذ عباس العقاد
للتعليق على كتاب بعنوان : " كارثة القرم الإسلامية " .. أورده في مقالات
كتابه : " بين الكتب والناس " .. يدعو في مستهله إلى وجوب أن يطلع
قراء اللغة العربية على الحقائق المجهولة من أمر روسيا السوفيتية
ورعاياها من مختلف الأقوام والأديان، ولا سيما الرعايا المسلمين .

الكتاب الذي يتناوله العقاد من نحو سبعين سنة، يلّم بالمظالم التي
أصابت المسلمين على عهد القياصرة ثم على عهد البلاشفة، فلم يختلف ما
نزل بهم في عهد " الماديين التقدميين " عما نزل بهم من جور ومظالم
القيصرية في عصور الجهالة والتعصب .. بل زاد عليه أن الحرب لم
تقتصر على محاربتهم للدين وإنما امتدت إلى الوطنية التي تنزع إلى
الاستقلال، وهانحن نرى (الآن) أن روسيا السوفيتية لم تصبر على
محاربة الأديان بعامة، ولا على تغليق معابدها ومحاصرة كهنتها، فعدلت
عما ظنت قدرتها عليه في شبابها، ثم كان ما رأيناه من نجاح كثير من
جمهوريات الاتحاد في الاستقلال عنه !

ما كتبه العقاد كان قبل هذه الملاحظة الأخيرة بعشرات السنين، توقف
في كتاب " كارثة القرم " عند بعض فصوله التي ذكرت أسماء طائفة من
عظماء الروس تحذروا من سلالة الترك المسلمين، بل ولم يكن القيصر

(*) المال ٢٠٠٩/٤/١٣

بوريس غوردونوس من أصل تركى فقط، بل كان ذلك شأن الأسر الأرستقراطية إلى عهد قريب (الذى كتب فيه العقاد) .. يذكر الكتاب أسماء نحو عشرين أسرة كبيرة من هذه الأسرات التى اشتهرت فى المجتمع أو فى السياسة .

الأعجب أن الكتاب كشف عن أن " لينين " زعيم الشيوعية الكبير، ينتمى إلى أصل تركى إسلامى كما جاء فى الجزء الرابع من تحقیقات مجمع التوارىخ بأنقرة، وارتد أباه عن الإسلام فى عهد القياصرة الأقدمين هربا من القتل والاضطهاد !

لم يقصد الكتاب الذى توقف عنده العقاد إجراء تمحيص لدعوى السلاطات، أو لتأييد مفاخر العنصر الطوراني، وإنما أتى بهم للتدليل على قدم الاضطهاد فى الدول الروسية، ويستشهد بالأعلام المشهورين على اضطرار المسلمين منذ أقدم الأزمان إلى التحول عن دينهم، إن لم يتحولوا عن وطنهم، فرارا من مظالم ذلك الاضطهاد !

ما شنه القياصرة فى أخريات أيامهم لإثبات أن دعاة الحرية فى بلادهم ينتمون إلى أصول غير الأصول القومية، يستحضر سؤالا يقول : ماذا بقى إذن من مفاخر القومية الروسية بعد الذين ارتدوا من العظماء إلى أصول الترك أو الجرمان أو اليهود ؟!.. وبماذا تفخر " البلشفية " القومية إذا كان لينين تارة من الترك وتارة من اليهود، وكان تروتسكى يهوديا بلا خلاف، وكان ستالين شركسيا كذلك بلا خلاف ؟!

لو التزم البلاشفة بالمنطق والتناسق لما اكثرثوا لتجريد العنصر السلافي من جميع العظماء والمشاهير، لأن كارل ماركس وأتباعه بيرعون - كما هو معلوم - من عصبية الجنس والعنصر واللغة ويعتبرونها بقية من بقايا مجتمعات رأس المال . فليس على المذهب حرج فى انتماء الروس إلى السلافيين أو إلى الطورانيين أو إلى الساميين أو إلى الجرمان، إذا التزم البلاشفة بالمنطق فى كل ادعاء .

ولكن البلاشفة - فيما يقول العقاد - لا يلتزمون المنطق فى هذه الدعوى على الخصوص، فهم يبذلون فى تركية العنصر السلافى أضعاف ما بذله القياصرة، ويردون كل اختراع إلى أصل سلافى قديم أو حديث .. فلم يكن " ماركونى " هو صاحب اختراع الناقلات الأثيرية، بل السلافى : اسكندر بوبوف الذى اهتدى للفكرة ١٨٩٥ .. ولم يكن " إديسون " هو صاحب البصيلة الكهربائية، بل السلافى الرائد الروسى لوديجين .. ولم يكن " لا فوازييه " هو صاحب القول ببقاء المادة، بل السلافى ميخائيل لومنسوف الذى سبقه إلى هذه التجارب قبل عشرين سنة .. وهكذا !!

غلبت تركية العنصر السلافى على محاذير التشبه بالمتعصبين الوطنيين، على ما فى ذلك من تناقضات لتقريرات علمائهم عن أصول الوراثة ومزايا الأجناس والأسر والطبقات !

فلو صح أن جنساً يستأثر بمزايا النبوغ بغض النظر عن تخلف البيئة والمحيط - لصح أيضاً أن مزايا النبوغ ووراثة ملازمة للسلالة وعلم السلالات المستتكر على علماء غربيين !

مع ظهور النقائض تثبت الحقائق وتذهب الأباطيل !

أو كما قال أبو العلاء المعرى فى إشفاقه على الإنسان أن يرجع إلى الطين فيصنع منه إناءً يحمله المرتحلون من بلد إلى بلد :

لعل إناء منه يصنع مرة فيأكل منه من يشاء ويشرب

ويحمل من أرض لأرض وما درى فواهاً له بعد البلى يتغرب !

من

نراب (٢٤٣) التنوير الزائف ! (*)

الطريق! (١)

هل يوجد تنوير زائف، ولماذا يوصف بأنه تنوير إذا كان زائفاً؟! نحن نعرف أن للنور يقابله ظلام، وأن للتنوير يقابله تعتيم أو إظلام، فلماذا : " التنوير الزائف "؟!

هذه العبارة اختارها الصديق الجليل الدكتور جلال أمين عنواناً لكتاب أصدرته دار المعارف فى سلسلة " اقرأ " العدد (٦٤٠) سنة (١٩٩٩) .. لا خلاف على أن " التنوير " تعبير يقصد به إنارة وإعلاء وتحكيم العقل، والتحرر فى تقييم الأمور والحكم عليها من الأهواء والتحيزات المسبقة، ومن سلطان التقاليد والأعراف إذا تعارضت مع العقل والمنطق، فهل أفلح المتنادون منذ القرن الثامن عشر فى أوروبا فى التخلص من أهوائهم وتحيزاتهم الخاصة، ومن سلطان التقاليد والأعراف - هل أمكن فى ذلك الزمان، وهل هو ممكن الآن تحقيق التنوير الخالص المصفى من الأهواء والانحيازات؟! وهل يوجد حد فاصل بين التنوير الزائف والتنوير الحقيقى؟!

ليس فى نيّتى، ولا يتسع المجال هنا، أن أقدم لك ما فى الكتاب، حسبى التنبيه الذى أراد الدكتور أن يقرع عقولنا به . الرسالة التى أراد التنبيه إليها من البداية أنه لا يوجد ما يسمى ببلغة هيئة الأمم المتحدة، وهى لا تقصد لغة الحديث أو الكتابة، وإنما عالمية منطق التقارير الصادرة عنها .. الخطأ الذى تصدره إلينا، وملتقطه دون أن ندرى، أن العالم واحد ينبغى

أن تكون له رؤية واحدة، ومنطق واحد، ونظر واحد .. وليس هذا صحيحا .. إن العالم ليس واحدا تحكمه مصالح واحدة غير متضاربة، وتسوده قيم واحدة غير متباينة . العالم عوالم متعددة بقدر خصوصية كل بلد الدينية والتراثية والثقافية والبيئية والاقتصادية والاجتماعية ..

لقد اتخذ الدكتور جلال من وثيقة مؤتمر السكان والتنمية الذى عقد بالقاهرة فى سبتمبر ١٩٩٤ مثالا على هذا التصدير أو التنوير الزائف المروم جرنا باللا وعى إليه .. نعم نحن فقراء، ولكننا لسنا متخلفين .. وقياس التخلف على تقاليد ونمط الحياة الغربية مغالطة هائلة .. الاستسلام لها ينطوى على حق ووعاء .. الوثيقة التى كانت معروضة على مؤتمر السكان المطلوب منه إقرارها - وثيقة مذهلة تتبنى خصوصيات نمطية غريبة من المحال أن يقبلها مجتمعنا، بل إنها كانت غريبة فى الغرب نفسه من عشرين سنة !

الوثيقة تتملق بشدة الحركات " النسوية " الجديدة فى الغرب، وكأنها جاءت بآخر اكتشافات العقل الإنسانى ووضعت يدها على آخر أسرار التقدم البشرى حينما تنادى بالمساواة فى كل شىء دون نظر لاختلاف الدور والوظيفة، ولولا بقية من عقل أو حياء لطالبت بأن يقوم الرجال بإرضاع الأطفال أسوة بالنساء .. تتنادى الوثيقة - بمسلمات لمجرد أن الغرب أخذ بها أو بالأحرى وقع فيها .. حتى بنفس ما يعانيه الغرب فى الجريمة والشذوذ الجنسى .. تفيض الوثيقة بالكلام عن السكان والعلاقات الجنسية، ولكنها لا تكاد تتلفظ بكلمة " الزواج " أو " الأسرة " .. تعتبر من المسلمات وجود علاقات جنسية قبل الزواج وتدعو إلى تنوير الأطفال (!) وتسليحهم بواقيات أضرارها المحتملة (!؟) وتعتبر هذه العلاقات حقا من الحقوق واجبة الاحترام، مع الفصل التام بين الزواج والإنجاب، وعدم جرح شعور الشواذ جنسيا، وإقرار العلاقات المثلية بين الرجال والرجال، وبين النساء والنساء، وتعتبر حرية الاختيار فى هذا البلاء من الحريات الأساسية . المهم هو أقصى درجات " الإمتاع " للفرد تبعا لميوله

وأهوائه مهما كانت غرابتها فى نظر الثقافات الأخرى أو تقاليدها وأعرافها . والأغرب أن الذين يصرون على الكلام هنا بلغة عالمية، لا يحبون أن تكلمهم بنفس اللغة عندما يتعلق الأمر بفتح أبواب الهجرة فى بلدانهم .

لماذا هذا الإحساس الدفين لدينا بالنقص بل بالعار إزاء كل ما هو أجنبى، ولماذا يبدو فى عبارات المذيعين والمذيعات وكأنهم يستجدون كلمة ثناء أجنبية على طيبة أو كرم المصريين، ولماذا يفرط المذيع دون وعى بالقول أن المؤتمر يستمر يوم الجمعة لمجرد أن الغرب يعتبره يوم عمل كباقي الأيام، ويتوقف يومى السبت والأحد لأنهما هناك " عطلة نهاية الأسبوع " !

يبدو أن هذه العقدة التى فجرها الدكتور جلال أمين : الإحساس بالعار والنقص أمام الغرب، هى التى لا تزال تجرنا إلى كل ما نجاريه فيه فى مقررات يومية بدأت تطول مجالات كثيرة حتى فى التشريع وقضايانا الأساسية مثل قضية الجنسية مع أنها من المصالح العليا التى تحكم الدساتير نفسها !! .. من الخطأ البين أن يحسب ما يجرى على أنه انحياز للتتوير .. الغرب نفسه لم يكن خالص النية بريئا من الأهواء فى حركة التتوير التى بدأت فى القرن (١٨) وشابقتها المصالح والأهواء والانحيازات، ومع ذلك فإن تجرده - إن كان جدلا - لا يعنى أن ما يراه تتويرا هناك هو بالضرورة تتوير هنا .. بل هو التتوير الزائف لو كنتم تعلمون !

من

تراب (٢٤٤) التنوير الزائف ! (١)

الطريق! (٢)

فى تصديه للتنوير الزائف، يتوقف الدكتور جلال أمين عند الفارق بين التنوير الحقيقى والتنوير الزائف .. تعبير التنوير الذى يسود الحياة الثقافية العربية، والمصرية بوجه خاص، والذى يشير إلى الحركة الفكرية لتسى ازدهرت فى أوروبا فى القرن (١٨) باسم Enlightenment .. هذا التعبير يرفع - هنا وهناك - لواء التسامح مع الآراء المخالفة للسائد، خاصة فى المعتقدات الدينية، والتحرر من الأغلال بإعلاء شأن العقل ولعلم والالتزام بالموضوعية .. والحقيقة أن هذا التيار لم ينقطع فى بلادنا - فيما يرى - منذ بدأ من أكثر من قرن ونصف منذ اتصل بالفكر الأوروبى الحديث فى أعقاب الحملة الفرنسية، ولكن الملاحظ أن نبذة هذا التيار ارتفعت فى العقدين الأخيرين، وتكرر على الأخص استخدام لفظ " التنوير "، وارتبط بتكرار التعبير عن السخط عما يعتبره ردة فكرية أصابت الحياة الثقافية، تتمثل فى انحسار التسامح مع الآراء والمعتقدات المخالفة، وازدياد الميل إلى تكفير الآخرين، بل والاعتداء أحياناً على المفكرين والفنانين إلى حد القتل أو التهديد به، ومصادرة أو المطالبة بمصادرة بعض الأعمال الفكرية والفنية، مع تزايد التمسك بالمنقول ولو على حساب المعقول، والمناداة بالموروث ضد الوافد، والتجروء على العلم والعلماء، وانتشار الكتب التى تتكلم عن السحر وتروج للخرافات !

(١) المال ٢٠٠٩/٤/١٥

فهل القضية كما هو ظاهر لأول وهلة لا تحتاج لأى نقاش ؟ يرى الدكتور جلال أن الأمر قد لا يكون بالبساطة التى يبدو بها .. فالقيم المطلقة قد لا تكون صالحة لكل زمان ومكان وفى أى ظرف، وقد لا يمكن تحقيقها بشكل مطلق، بل وقد لا يعد دائما شيئا مرغوبا فيه، وإغفال هذه النسبية أدى فى كثير من الأحيان إلى صور من الشطط تحت عنوان التنوير - كثيرا ما ترتب عليها ضرر جسيم !

مما لا يقع عليه خلاف، أن استمرار الانتماء إلى أى مجتمع، يقتضى دفع ثمن هو ألا يتجاوز الفرد فى ممارسته لحريته فى السلوك والتعبير حدودا معينة إن لم يقيد بها نفسه فرضها عليه المجتمع، وفى ذات الوقت من غير المتصور أن يستمر اعتقاد الفرد مخالفا لما استقر عليه مجتمعه دون أن يستطيع التعبير عن هذا الاختلاف، ومع ذلك فهناك دائما حدود لهذه الإمكانية، وكان ذلك مادة لمقال بديع كتبه ناعوم تشومسكى - وأنا أنقل عن الدكتور جلال - بعنوان : " حدود الفكر الذى يمكن التفكير فيه " .. ولا يسرى هذا فقط على المجتمع الأمريكى بمناخه الذى تسيطر عليه الميديا سيطرة طاغية، بل ينطبق على أى مجتمع فى أى زمان، هذا إلى أن اللغة - وهى وسيلة من وسائل الإعلام - تشكل قيودا على حرية الفكر والتعبير المحدودة بحدود اللغة، وعلى ذلك فإن ممارسة القدرة غير المحدودة على التعبير والتفكير ليست فقط غير ممكنة فى جميع الأحوال، وإنما قد تكون شيئا غير مرغوب فيه، لأن الحرية المطلقة فى التعبير قد تحمل تهديدا خطيرا لوجود المجتمع نفسه واستمراره، بل وقد تهدد ممارستها نفسه فى صحته النفسية والعقلية .

يستطرد الدكتور جلال أمين إلى أن هذا التحفظ على حرية التعبير والاعتقاد كأنها حق لا يحده حد، يرد أيضا - وبالضرورة - على الدعوة للتسامح مع رأى المخالف، فالتسامح بدوره له حدود، ولم يعرف التاريخ تسامحا مطلقا بغير حد !

هناك من يدافع عن حق الكاتب فى التعبير عما يشاء، دون أن يكلف

نفسه عبء قراءة ما كتبه الكاتب، ويحتفل بكل تجرؤ وتهكم على التراث والتقاليد حتى وإن خلا التهكم من الموضوعية وجنح عن الصواب أو خلا من أى قيمة فكرية أو فنية تذكر !

ليس صحيحاً فى كل الأحوال أن أى تجديد دائماً صائب أو مطلوب، أو أن التمرد على القديم والتقاليد، فيه دائماً مصلحة المجتمع . فالتعميم هنا يقود إلى اختلال بوصلة التنوير، مما يقتضى تفريد الموقف والرأى ببحث كل حالة على حدة، وهذا إثراء موضوعى لحرية التعبير وليس تقييداً لها أو مصادرةً عليها !

أحياناً يقع التنوير نفسه فى تعصب دون أن يدري، حين يعتنق رأياً أحادياً ويصادر على ما سواه . فالتعصب الدينى مثلاً، وإن كان من الممكن أن يؤدى وقد أدى إلى كثير من الفظائع والمآسى فى التاريخ، إلا أنه لبس بأية حال الصورة الوحيدة للتعصب الذميمة المولدة للفظائع والمآسى . والإيمان بالمعتقدات الدينية والتحيزات الدينية المسبقة، ليس بأية حال النوع الوحيد من الإيمان، وليس كل إيمان منطوياً على انحيازات مسبقة أو مؤدياً إلى فساد العلم . ومن ثم فإن الدعوة إلى تحكيم العقل والبعد عن التعصب لا ينبغى أن تكون مضادة للاعتقاد الدينى فى ذاته، وانتصار العلم لا يدعو إلى هزيمة الدين .

ومن الخطأ الظن بأن الإيمان بالغيب والعقيدة الدينية بوجه عام يؤدى بالضرورة إلى التطرف والتعصب، أو ينتج عنه فضائع ومآسٍ . فهذا الظن هو ظن متعصب يتنادى واعياً أو غير واعٍ - باستئصال العقيدة الدينية أو إضعافها .

ظنى أن الدكتور جلال أمين قد فجر فى كتابه : " التنوير الزائف " ما يقتضى أن نتابع ما أورده فى هذا المؤلف الذى يحرك العقل ويرمى أحجاراً فى الماء الأسن !

من

تساب (٢٤٥) التنوير الزائف ! (٢)

الطريق!

(٣)

يخطئ من يتوهمون أن رفض الموقف الديني هو الشرط الضروري أو الكافي للتخلص من التعصب الذميم المؤدى إلى أعمال العنف .. فمن الممكن أن يكون المتدين متديناً وعالماً ومتسامحاً مع الآخرين، وبعيداً كل البعد عن جميع صور التعصب وكارها لكل أساليب العنف .

وقد يظن المرء أن هذا أوضح من أن يحتاج إلى تأكيد، ولكن المؤسف فيما يقول الدكتور جلال أمين في كتابه : " التنوير الزائف " - أن عدم وضوح ذلك هو الذى دعاه أصلاً إلى كتابة هذا المؤلف، ليتصدى فيه لمفهوم شاع هو أن شعار التنوير قد بات يقصد به أساساً - الهجوم على الموقف الديني وكأن كل تدين ينطوى على تعصب ذميم يتبنى العنف والعدوان، أو أنه الخطر الوحيد الذى يهدد التقدم العلمى ويرفض بتاتا التسليم بإمكانية التعايش بين العقيدة الدينية وبين موقف " مستتير " للغاية من الحرية والعقلانية والعلم، بل إن التعصب الذميم المفجر لجميع أنواع الفظائع والمآسى، له أمثلة غير قليلة فى التاريخ العلمانى، لا تقل عدداً ولا قسوة عما نجد له أمثلة فى التاريخ الدينى . يكفيك أن تراجع ما صاحب الثورة الفرنسية من مآسٍ، أو أن تراجع تاريخ الحركات الاشتراكية والماركسية، وتاريخ الحركات القومية، وما فعله الأوروبيون فى مستعمراتهم باسم المدنية، أو ما شاهده القرن العشرون من حروب دامية وغزوات همجية باسم الديمقراطية ورعاية الحرية، وليس بعيد ما حدث

(*) المال ٢٠٠٩/٤/١٦

فى البوسنة والشيشان وفلسطين قبل أن يضع الدكتور جلال أمين كتابه، وما حدث بعد كتابته فى كل من أفغانستان والعراق !!

يلاحظ الدكتور جلال أن الإيمان بالغيب ليس بالضرورة مصدرا كفوا أو أكثر كفاءة فى توليد التعصب والتطرف - من الإيمان بالعلم والإيمان بالحرية، أو بالمساواة أو بالقومية أو بأفضلية الرجل الأبيض أو لفكرة التقدم .. إلخ .

فمعتقدات العلمانى مليئة هى الأخرى بالغيبيات، كالأيمان بحتمية التقدم، هذا الإيمان الذى اقترن بفكرة التنوير منذ البداية، والإيمان بأنه ممكن للإنسان الوصول إلى الكمال، وبأن العلم سيكشف للإنسان كل ما كان مجهولا ويحقق له السيطرة التامة على الطبيعة، أو الإيمان بالمساواة وبأن الناس قد ولدوا متساوين، إذ عكس ذلك هو الأقرب إلى الحقيقة .. أو الإيمان بأن تهيئة البيئة الصالحة والتعليم المناسب كفيلة وحدها بتشكيل الإنسان على أفضل وجه، أو بأن انتصار الاشتراكية حتمى .. إلى آخر القائمة الطويلة التى لا آخر لها لغيبيات الفكر العلمانى !

هذه الغيبيات للفكر العلمانى، كثيرا ما تفقد العلم وتعاديه، بل بأكثر مما عادى التعصب الدينى العلم، حسبك أن تراجع ما فعله التعصب للماركسية فى الاتحاد السوفيتى والدول الخاضعة لنفوذها من تحريم الاعتقاد بما يتعارض مع المسملمات المادية الجدلية، وواد هذا التعصب الماركسى - لبحوث من شأنها أن تعلى من تأثير البيولوجيا على السلوك الإنسانى على حساب تأثير البيئة . وحسبك أن تراجع ما فعلته النازية الألمانية ضد أى فكر يتعارض مع فكرة تفوق الشعوب الآرية، أو موقف وسائل الإعلام الأمريكية من كل من يحاول نقد أو التشكيك فى أفضلية النظام السيسى والاقتصادى الأمريكى ونمط الحياة الأمريكية على غيره من النظم وأنماط الحياة .

ما كتبه الدكتور جلال أمين يغرى بالاستطراد، فهو يغترف من معين

عميق عريض لا ينفد، وقادر على أن يرينا زوايا للرؤية والتقدير فاتت علينا أو لم نتفطن لها .. قاصداً أن يستحضر التفاتنا إلى أنه ليس صحيحاً أن كل ما يدرج في عنوان " التنوير " - ينطوى بالضرورة على تنوير حقيقي، منبهاً إلى أن كثيراً ما يختلط الزائف بالحقيقي، وقد تزداد جرعة الزائف وقدرته على الطمس والمواربة بحيث يبدو تنويراً حقيقياً بينما هو أبعد ما يكون عن التنوير وعناصره ومقاصده .

مهم لنا في بلادنا، أن ننتقظ إلى أن لنا خصوصياتنا الدينية والتراثية والثقافية والمعرفية والبيئية والاجتماعية، وأن نستفطن إلى أن التنوير المنشود هنا ليس هو بالضرورة المنشود في بلاد الغرب . ما يصلح هناك قد لا يصلح هنا، وما يصلح هنا قد لا يصلح هناك . من مجمل قيمنا مع إعمال عقولنا بلا تطرف وبعيدا عن عقدة النقص أو الشعور بالعار إزاء كل ما هو غربي - نستطيع أن نشق طريقنا إلى تنوير حقيقي يصادق ظروفنا ويعلى فيما بيننا قيم العقل والعلم والحرية والتسامح دون أن نفقد هويتنا .

من

تراب (٢٤٦) بين الطبع والتطبع ! (*)

الطريق!

هل الهدوء طبع أم سليفة أم حالة أم ماذا ؟! ما الذى به يكون الهادئ هادئاً ؟ بالتأكيد هذه الحالة ليست الغباوة أو بلادة الحس، وليست ما يسمى بضبط النفس أو السيطرة على الأعصاب .. وإنما هى ترجع إلى هدوء عمل العقل واتزانه، والاعتیاد على استعماله والاحتكام إليه فى رؤية الأمور كبيرها وصغيرها والتعامل معها .. وممارسة الأدمى حياته وشئوننا بتفاصيلها وأحوالها من منظور العقل .. فى ترتيب وتتابع لا يختل بنزوات أو شطحات العاطفة، وقبول النتائج بتسليم داخلى خالٍ من التكلف أو المجهود .

وهذا الهدوء طبيعى يولد به صاحبه، وقلما ينجح غيره فى تحقيقه كاملاً بالتدريب والاكْتساب .. وهو يوجد فى الأميين وغير الأميين، لأنه من توابع قوة الطاقة العقلية وتفوقها على الطاقة العاطفية .. ولذلك لا يحتاج من صاحبه إلى تعمد الانضباط والكبح وكبت العاطفة الغضبية .. وهو لا يفارق صاحبه فى أية مناسبة مهما كانت مثيرة للانفعال أو الغضب أو الثورة لدى العاديين من الناس !

ولأن هذه الطبيعة قوة فى الطاقة العقلية فقط — فإنها لا تستلزم أن تصاحبها عواطف معينة .. فقد يوجد هدوء الطبع مع الرحمة ومع القسوة، ومع الخير ومع الشر، ومع العدل ومع الظلم .. ويشاهد لدى الطبيب الأمين الصادق، ولدى الداهية والخبّ والخبيث، كما يوجد فى كل

(*) المال ٢١/٤/٢٠٠٩

مراحل العمر من الصغر إلى الكبر، وقد يوجد لدى الإناث كما يوجد لدى الذكور .

وفرص النفوذ والمكانة لصاحب هذا الهدوء واسعة .. لأنه يلفت إليه الأنظار بثباته في مواجهة الأحداث والمواقف والأشخاص، وبقدرته على إصابة وتحقيق ما يريده بخطوات محسوبة دون أن يجد نفسه مضطراً للرجوع عن تصرف اندفع أو انساق إليه بثورة أو غضب أو اندفاع أو نتيجة نزوة أو تأثرة كما يحدث للعاديين من الخلق .

والسؤال : هل تتعمد الفرصة لدى غير المطبوع في اكتساب الهدوء أو استحضاره لضبط النفس والأعصاب من ردود الفعل الانفعالية أو الغاضبة ؟! يقال في الأمثال الدارجة إن الطبع يغلب التطبع، وهذا في ظني صحيح، ولكنه لا يصادر المجاهدة والترويض الداخلي بالعزم والمران واستحضار العقل كلما تهدد رد الفعل السريع بالخروج عن حكمته وعقله للأمور .. وقد يصح الاستشهاد على إمكان ذلك بخاصية الصبر .. فالصبر وإن كان خصلة في الطبع، إلا أنه قابل للاكتساب بالترويض والمجاهدة والمجادة .. بل إن التقليد أحد مصادر إنماء الصفات المكتسبة، وتحدث المجاهدة أو المحاكاة المقصودة بهداية العقل نفسه، وهذا يعيدنا إليه، لنرى أنه في الواقع هو باب الحكمة والهدوء والتفكير والروية، والاحتكام إليه هو الأمان الحقيقي للتعامل مع شئون الحياة وتقلبات ومفاجآت المواقف وشطحات العواطف وثورات النوازع والنزوات ..

فالعقل في مدلول لفظه العام، وكما قال العقاد، ملكة يناط بها الوازع الأخلاقي أو المنع عن المحظور والمنكر، ومن هنا كان اشتقاقه من مادة " عقل " التي يؤخذ منها العقل، وتكاد شهرة العقل بهذه التسمية أن تتوارد في اللغات الإنسانية الكبرى ... فكلمة mind الإنجليزية وما خرج من مانتها في اللغات الجرمانية تفيد معنى الاحتراس والمبالاة، وينادي بها الغافل الذي يحتاج إلى التنبيه .. ومن خصائص هذا العقل ملكة الحكمة وإدراك الصواب .. ومن محاسن القرآن الحكيم أنه لا يذكر العقل إلا في

مقام التعظيم ووجوب العمل به والرجوع إليه، وكثيرا ما تستدعيه الآيات القرآنية على سبيل التقرير أو التذكير أو التنبيه، من مثل : "أفلا تعقلون" ؟!، " لآيات لقوم يعقلون "، " كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون "، ومثل : " وما يعقلها إلا العالمون "، ومثل : " لعلكم تعقلون " .

العقل هو إذن هادى الأدمى ودليله ومرشده، وهو أيضا صمامه ووازعه، وباب الحكمة وإدراك الصواب، يسرى ذلك على العقل الجمعى مثلما يسرى على عقول الأفراد، إليه مناط كل شىء طيب لمن ينشدون الحق والصواب .

من

تراب (٢٤٧) الأدب وشجونه ! (*)

الطريق!

هل يكتب الأدب لإزجاء الفراغ ؟ وهل يقبل عليه القراء للتسلية وشغل الوقت ؟! هذا السؤال شغل العقاد قبل أكثر من سبعين عاما، فكتب فيه عدة مقالات نشرت تباعا فى مجلة " المشكاة "، ونحن نصادر الآن مجلة " إبداع "، وأعيد نشره فى كتاب " مطالعات فى الكتب والحياة "، وأعادت دار المعارف طبعه عام ١٩٨٧ .

ما الحياة وما الأدب ؟! .. إنهما نسيجان من مادة واحدة، فالحياة هى شعور تتملاه فى نفسك وتتأمل آثاره فى الكون وفى نفوس غيرك، والأدب هو ذلك الشعور فى الصياغة أو القلب الذى يلائمه من الكلام .. فالأدب لا يكون بغير حياة، والحياة لا يستقيم تذوقها ومعرفة مكنونها بغير أدب .

واعتبار الأدب تسلية أو ملهه، هو الذى يصرفه عن دوره، وعن عظام الأمور، ويوكله بعواطف البطالة والفراغ . العواطف أشبه بالتلهى وأقرب إلى ما لا مبالاة به ولا خطر فيه، واعتبار الأدب تسلية وملهه هو الذى يرفع كلفة الجد والنظر الصادق .. وهو علة ما يطرأ على الكتابة والشعر من التزويق والبهرج الكاذب والولع بالمحسنات اللفظية والمغالطات الوهمية، مادام الكاتب مشغولا بشغل أو مداعبة الوقت، وليس مهموما بجلائل الأمور !

وهذه العلة الفاسدة هى المرض الذى كان قد أصاب آداب اللغة العربية وهبط بها حين شاع مذهب البديع فى أواسط الدولة العباسية، وتطرق إليه

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٢٢

كثير من عيوب اللفظ والمعنى فى تملق الملوك والأمراء الذين صارت تسليتهم ومنادمتهم فى أوقات فراغهم هى غاية الأدب والأدباء .. فشاعت فى الصياغة معانى التظرف فى المناداة والتسليّة وضروب التوشية والتزييق المموه وأشتات الجناس والطباق والمقابلة والطى والنشر والتقويف والتوشيع .. وهى كلها مترادفات تجمعها كلمة " التصنع " ! أو هى بإجمال الحد الفارق بين الأدب المصنوع والأدب المطبوع !

ولم يكن هذا المرض علة مقصورة على الأدب العربى، بل أصاب هذا الانحطاط الآداب فى جميع اللغات، مثلما حدث فى الفرنسية فى أعقاب عهد لويس الرابع عشر حتى أدركته بوارد الثورة الفرنسية، وأوشك ذلك أن يحدث للأدب الإنجليزى بعد عهد اليبابات لولا أن تقدمت ثورة الشعب الإنجليزى فأنفذت الأدب ولم تدع للملوك والنبلاء سبيلا للتحكم فيه وجعله وقفا على أدواقهم وشهواتهم !

ربما اختلفت أعراض الانحطاط بعض الاختلاف بين مكان وآخر . أو بين عصر وعصر وبين لغة ولغة، ولكنها جمعت فى آداب التلهى والتسليّة !

وقفة العقاد قبل أكثر من سبعين سنة استحضرت آفات الماضى التى أصابت بالغناء صنعة الأدب والكتابة فلم ينج منه إلا قلة قليلة مبدعة، وجعل كل من هب ودب ينسب نفسه أو عمله إليها، حتى رأينا غناء تافيا ردينا ينسب نفسه إلى لغة الصوفية، ويصطنع الشعر فى سوقية فى اللفظ والمعنى، ثم رأينا المصادر لا تصدر العمل الفاسد أو المنحط، وإنما تتسع للنافذة نفسها فتغلّقها تغليقا تاما يجهض كل ما تقدمه من إبداع لا يجوز مصادرتة كله وغلق النافذة التى يتنفّس منها لمجرد أن تسرب منها عمل واحد معطوب !

قد توارت فى زماننا مجلات الأدب والإبداع، وغلبت السياسة والمصانعات على القلة القليلة التى بقيت شكلا وأجهضت موضوعا، ولم

تعد الصحف تعطى مساحة للأدب، بينما كنا نرى افتتاحيات الصحف الكبرى للعقاد وطه حسين والحكيم وأترابهم، وطفًا على السطح زيد ورغى ولغو لا ينتمى لأدب الجد ولا حتى لأدب التسلية وإزجاء الفراغ، وانعكس ذلك كله على ركافة اللغة، وشمل ذلك صناعة الكتابة مثلما شمل صياغة الأحكام والمرافعات، وصارت اللغة العربية غريبة في بلادها، مثلما صار العربى غريبا مستغربا فى بلده، تائها بين أصوله وجذوره التى زحفت عليها تراكمات الانهزام والتراجع، وبين ما يرنو إليه حكامه عبر لجج المحيط إلى حيث مصدر النفوذ والثروة، أو إلى حيث اتقاء ما قد يخل بالاستقرار والرغبة فى استمرار البقاء !!!

من

تراب (٢٤٨) كلفة الثقافة (٠)

الطريق!

نشأنا فى زمن ساد فيه ما يقترب من مبدأ مجانية الثقافة .. من كتب الهلال التى لازلت أقتنيها فى مكتبتي الخاصة وعليها أثمانها : بسعر (٨) قروش، اقتنيت ولا زلت من طبعات الخمسينيات : عبقرية محمد للعقاد، وهارون الرشيد لأحمد بك أمين، وأبو الشهداء الحسين بن على للعقاد، وعمر مكرم لمحمد فريد أبو حديد، وزعيم الثورة سعد زغلول للعقاد، وأشعب أمير الطفيليين للحكيم، وحديث رمضان للإمام الأكبر الشيخ المراغى، وأهل الكهف للحكيم، ومحمد على جناح للعقاد، وفى الطريق للمازنى، وعبقرية عمر للعقاد، وعلمتتى الحياة لنخبة من كتاب الشرق والغرب بإشراف أحمد أمين، وأمنة بنت وهب أم الرسول لبنت الشاطئ، ومدرسة المغفلين للحكيم، وفاطمة الزهراء والفاطميين للعقاد، ومدرسة الشيطان للحكيم، واعترافات شبابة للكاتب الروسى ليوتولستوى، وعبقرية خالد للعقاد ... وغيرها .

وفى الستينيات رفعت دار الهلال سعر كتاب الهلال من (٨) إلى (١٠) قروش .. ما بين طبعتي الحسين أبو الشهداء للعقاد أكثر من (١٥) عاما، ومع ذلك لم يرتفع سعر الطبعة الثانية (نوفمبر ١٩٦٩) إلا قَرشين، فتشجعت واشتريتها للمرة الثانية فالسعر يا بلاش (١٠) قروش، ومن كتب الهلال التى اشتريتها فى حقبة الستينيات بـ (١٠) قروش : إسرائيليت (حتى لا ننسى) لأحمد بهاء الدين، ورسالة التوحيد للإمام محمد عبده، وما

(٠) المال ٢٣/٤/٢٠٠٩

يقال عن الإسلام للعقاد، وعلى هامش الغفران للويس عوض، وغراميات فيكتور هوجو للطفي سلطان، والإسلام في القرن العشرين للعقاد، وصقر قریش عبد الرحمن الداخل لعلی أدهم، والبحث عن شكسبير للويس عوض، ومطلع النور أو طوابع البعثة المحمدية للعقاد، ورسائل نهرو إلى أنديرا لأحمد بهاء الدين، ومذكرات شارلي شابلن جزءان لصلاح حافظ، وتاريخ الفكر المصرى الحديث للويس عوض ... وغيرها .

وفى أواخر الستينيات مع ارتفاع الأسعار، والورق والطباعة، لم تزد دار الهلال الطباعات الضخمة الممتازة إلا قرشين، فبسعر (١٢) قرشا اقتتبت ولا زلت مطول العقاد عن ابن الرومي حياته وشعره، ومطول محمد رسول الحرية لعبد الرحمن الشرقاوي، وحياة المسيح للعقاد، ودراسات في النظم والمذاهب للويس عوض، وتوفيق الحكيم فنان الفرجة وفنان الفكر للدكتور على الراعي، ومطول حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد .. وغيرها .

ولم ترتفع أسعار كتاب الهلال - ارتفاعا جنونيا !!! - إلا فى السبعينيات، فزادت قرشين دفعة واحدة، أى سعر الأعداد الممتازة فى آخر الستينيات، فوجدت فى مكتبتى من كتب الهلال بـ (١٢) قرشا، الإسلام دعوة عالمية للعقاد، واليسار الأوروبى المعاصر لأمير إسكندر، بل ووجدت دراسات أوروبية للويس عوض، وأيضا كتابه الفنون والجنون فى أوروبا ١٩٦٩ بسعر (١٠) قروش، ومع أن كتاب " الوصول إلى السعادة " جمع بين التأليف للفيلسوف الإنجليزى برتراند راسل والترجمة للدكتور نظمي لوقا، إلا أنني وجدت ثمنه فى آخر ١٩٧٧ - (١٥) قرشا فقط .. كانت الأسعار حتى عهد قريب من أواخر التسعينيات لا ترتفع إلا بالقروش، وكل هذه المكتبة النفيسة المتكاملة التى تعمدت أن أذكرها واحداً واحداً، لا تعادل ثمن كتاب واحد فى هذه الأيام .. فقد ظلت لغة القروش سائدة حتى عهد قريب كما كانت بالنسبة للصحف : قرش، ثم قرش وتعريفة، ثم قرشان .. حتى جاوزت الجنيه الآن، ولم يعد فى متناول

الجامعى الموظف أن يواظب على شراء ولو صحيفة واحدة كل يوم، لأن ذلك سوف يكبده فى الشهر ٣٢ جنيهًا أخذًا بسعر العدد الأسبوعى .. أما الكتب فقد طفرت أسعارها إلى أرقام بالجنيهات ليس فى وسعه أن يفكر فى اقتناء واحد منها وإلا كبده ذلك مع سعر الجريدة أكثر من نصف مرتبه !!

معنى أن يتضاعف سعر الكتاب من (٨) قروش إلى (٨) جنيهات، أن تكون الدخول قد تضاعفت مائة مرة ! .. فهل تضاعفت الدخول بهذا القدر، وهل بقيت القوة الشرائية للجنيه - ودعونا من القروش فلم يعد لها ذكر إلا فى كتب التاريخ - على حالها لم تتخفص حتى القاع بفعل التضخم الذى أتى ويأتى على كل شيء !

معنى ذلك، ولا معنى سواه، أن تصبح الثقافة ترفاً لا يقدر عليه أوساط الناس ناهيك بالفقراء، أما الأغنياء فليسوا بحاجة أصلاً إلى الثقافة ولا تشغلهم ولا يطوف بها خيالهم ! .. وانشصر اقتتال الناس على رغبف العيش وغذاء البطون، أما غذاء العقول فقد ودعه الناس وداعاً يستحضر عنوان : "وداعاً للسلاح" الذى أخرج سينمائيا عن رواية الكاتب الأمريكى إرنست همنجواى !

ودعنا مجانية الثقافة إلى غير رجعة، فودعنا معها الفكر والثقافة، وهما نحن بسبيل وداع مجانية العدالة، لنفارق معها الإنصاف والعدل وعلى كل مظلوم أن يسند ظهره إلى الحائط .. إن استطاع أن يجد حائطاً !! ترى ماذا نحن فاعلون فى الأيام السوداء التى أدركتنا .. عفوا، لقد نسيت الحكمة القائلة : " استمتع بالسيئ فبالأسوأ قادم " !!!

من

نراب (٢٤٩) النبي الروائي (*)

الطريق!

لم أصدق هذه التسمية : " النبي الروائي " التي أطلقت على الروائي الروسي ليو تولستوى، إلا بعد أن قرأت سيرة حياته بالإضافة إلى بعض أعماله .. قرأت " الحرب والسلام " و " أنا كارنينا " قبل أن أقرأ سيرة هذا الأديب الروائي الفذ .. وقع في يدي في أغسطس ١٩٥٩ كتاب الهلال .. بعشرة قروش .. " اعترافات شبابي " .. فيه يحكى تولستوى اعترافات شبابه، أو سيرة حياته في مرحلة الشباب .. ولكن لماذا أطلقوا عليه أنه " النبي الروائي " ؟

الجواب أن هذا الروائي الفذ (١٨٢٨ - ١٩١٠)، كان صاحب رسالة يدفعها إلى غايتها قلب كبير وحس صادق دقيق عميق .. كان غريبا وهو من سلالة النبلاء، وأصحاب الإقطاعيات والضياع، أن ينتهى رافضا لهذا من خلال نضج إنسانى رفيع عبر رحلة امتلأت بالتعرجات والمنعطفات .. تلمح إحساسه الإنسانى من بواكير حياته .. تراه وسنه بالكاد (٢٠) سنة يحاول إنشاء مدرسة لتعليم الفلاحين، وفي منعطف متعرج يندفع بعد ذلك وراء المملكات فى موسكو وبطرسبورج، ثم يلتحق بالجيش (١٨٥١) ويحارب فى القوقاز، ويشترك (١٨٥٤) فى الدفاع عن سباسيتول، وهى التجربة التى أمدته بمادة رائعة : " الحرب والسلام " .

فى أعقاب إخفاقه الثانى فى إنشاء معهد لتعليم الفلاحين، ثم سياحته فى أنحاء وربع أوروبا، أخذت الشكوك التى كانت تنتابه منذ شبابه تزدد

حدة، ومر نحو عام (١٨٧٩) بأزمة روحية انتهت به إلى ارتداده إلى الإيمان بالمحبة المسيحية، وإلى اعتناق مبدأ المقاومة السلبية للشر، وجعل يسجل ما مر به من منعطفات وتعريجات حتى بلغ الإيمان فى " اعترافاته " التى كتبها بصدق لافت، روى فيها هذا الفيلسوف الروائى الحكيم كل الأطوار التى عرضت له فى شبابه حتى تكاملت شخصية الإنسان الذى صار له كيان خاص له اتجاهاته وطابعه الذى صدق معه وأخلص له ما بقى من حياته .

كان تولستوى قد تزوج ووهب ذرية عديدة مكفولة الثروة والسعادة فى ضياعه الواسعة، بالمقاطعة التى كان يملكها .. ولكن تولستوى يعطى ظهره لهذا كله، ويوزع أراضيه الواسعة وخيرات ضياعه على الفلاحين، ويعتكف فى صومعته يستقطر حكمة ما وصل إليه، ويسخر قلمه للدعوة إلى إيمانه الجديد فى سلسلة أعمال عرض فيها خلاصة تجربته ودعوته .. فكتب : " عرض مجمل للكتاب المقدس "، و " ما أومن به "، و " ماذا يجب أن نصنعه إذن " و " قانون المحبة وقانون القوة " .. ولكن مسلكه وما أخذ به نفسه يشكلان صورة نادرة للصدق مع النفس والغير .. تراه لا يستبقى لنفسه من أملاكه الواسعة التى جعل يوزعها على الفقراء، إلا ما يمسك به الرmq، ويستوحى قلبه وضميره ليس فقط فيما يكتبه، ولكن أيضا فيما يفعله بقلب رحيم وضمير حى .. يدعو إلى الإخاء والسلام، وينبه إلى أن الدنيا بلا حروب تتسع للجميع .. يسمع به المهاتما غاندى فيقتدى به فى دعوته، والإمام محمد عبده فيراسله، وتلقت الدنيا إلى هذه الدعوة التى أطلت على الإنسانية بلا نبوة . تبحث عن صلاح المجتمعات بصلاح النفوس، وتتجه إلى المسؤولية الخلقية العظمى الملقاة على الفنان، ويضرب تولستوى المثل بنفسه فيتخلى عن جميع ممتلكاته، ولا يثنيه اعتراض زوجته والخلاف الشديد الذى شجر بينهما، ولا يرده عما انتواه ونفذه صدمة انضمام أولاده إلى زوجته واعتراضهم معها عليه .. لم يبق إلى جواره إلا ابنته الصغرى الكسندرا .. هى فقط التى صاحبته ولازمته حينما ترك بيته وما وراءه من

الدنيا سنة (١٩١٠) .. ولم يعيش هذا المهاجر أو النبي الروائي إلا بضعة أشهر بعد مفارقتة إقطاعياته، فمات في إحدى محطات السكك الحديدية، وربما لو لم تكن معه وقتها ابنته الوفية الكسندرا ما عرفه يوماً أحد ..
لو أردت أن تلخص هذه الشخصية الفذة، وأثرها الهائل العريض، لما وجدت أدق في التعريف بعبقريته - أفضل من أن مهجته التي اهتدى إليها وفارق الدنيا عليها كانت هي "الصدق مع النفس" !

من

تراب (٢٥٠)

الطريق!

منطقة حرة أم منطقة

مباحة؟! (*)

طالعت في " مساء " الجمعة ٢٤/٤ - خبراً عن مشروع قانون قدمه لمجلس الشعب أحد أعضائه لتحويل " سيناء " وبأكملها إلى منطقة حرة .. وعلى أن يتم اتخاذ الإجراءات الميمونة اللازمة لهذا التحويل اعتباراً من أول يناير بعد صدور القانون، وتصدر لائحته التنفيذية بقرار من رئيس مجلس الوزراء بناء على ما يقترحه الوزير المختص بشئون الاستثمار والمناطق الحرة وبعد أخذ رأى المجلسين المحليين لمحافظة شمال وجنوب سيناء خلال ستة أشهر من تاريخ العمل بهذا القانون، على أن تتمتع المنطقة بالشخصية المعنوية المستقلة (فوق المحافظتين ؟!!!)، وتكون لها موازنة خاصة (غير المحافظتين ؟!!!) تعد طبقاً للقواعد المعمول به في المشروعات التجارية، وتتكون " مواردها " (خارج المحافظتين ؟!!!) من العملات الأجنبية والمحلية !

وكان يمكن أن أمر على هذا الخبر مرور الكرام، بلا توقف ولا تعليق ولا تعقيب، لولا أنه منشور في الصفحة الأولى بجريدة قومية، ولولا أن صياغته تشف عن رياح ورائحة الحكومة التي ينتمى السيد العضو - مع الاحترام لشخصه - إلى حزبها الحاكم !

وكننت أتوقع - بل أرجو ! - أن تكون بداية التصدى لمشكلة سيناء في تعميرها زراعياً وصناعياً لملء الفراغ الحاصل فيها، وكفالة كثافة سكانية وما يستتبعها، باعتبارها بوابة مصر الشرقية، منها أنت معظم إن لم يكن

(*) المال ٢٨/٤/٢٠٠٩

كل الهجمات التي استهدفت مصر، ولتحقيق التواجد السكاني وتوابعه الذى يعوض ما فرضته اتفاقية كامب ديفيد من فراغ يجب ملئه لحمايتها وحماية مصر من الجار الشرقى الذى لم تتوقف قط أعماله وشطحاته العدوانية، وأوهام توسعه، وأيضاً لمحاصرة التهريب للمخدرات ولغيرها من المهربات التى اتخذت دروب وممرات ووهاد صحراء سيناء ميداناً ومعبراً لها !

الخطر الكامن الآتى من سيناء خطر حدودى من عدو لا تخفى أطماعه وعدواناته، وخطر متفاعل بين الحدود والمحيط الداخلى يأتى منه التهريب بأنواعه، ويأتى أيضاً الإرهاب بشطحاته .. وهذا الخطر بأنواعه وروافده يستلزم تواجداً صلباً لا هشاً فى سيناء، قوامه الكثافة السكانية والحضور العسكرى والأمنى، فإذا كانت اتفاقية كامب ديفيد قد فرضت قيوداً لست أعرف متى يمكن أن يتم التحلل منها إزاء الغطرسة والعدوان الإسرائيلية المتكرر، فإن السبيل الوحيد للتعويض وملء الفراغ هو فى هذه الكثافة السكانية التعميرية الزراعية والصناعية الصلبة الصلدة المصحوبة بما تستلزمه من حماية تتسحب على سيناء بأكملها !

أما المنطقة الحرة، فهى على النقيض، هشة لينة مائجة، ترفع القيود والحواجز، وتبيح الحركة غير المراقبة، وتتخفى وراء حرية التجارة وانتقال السلع والعملات، فى استيجاد وتكريس التهريب والتوسع فى صنوفه ووسائله، وفى بحبوحة تحرك للإرهاب بأدواته ووسائله وأغراضه، ثم هى تبقى المنطقة بكاملها هشة بل أكثر هشاشة، تضيف إلى عبئها فى حماية بوابة مصر الشرقية، عبء حماية السلع والبضائع والمولات أو المحلات، وتجعل واجبها إزاء المخاطر التى أجملتها - محملاً بسلبيات وأعباء تعوقها وتعدم دورها الحامى بل تأتى بنقيضه .. كالمحلات التجارية التى أحيط بها سور نادى الزمالك فباتت عائقاً يحول دون إقامة أى مباريات لكرة القدم فى المستقبل على ملاعبه !

لست عضواً فى مجلس الشعب حتى أبدى رأى فيه بشأن هذا المشروع

الكارثي، ومجلس الشورى الذي أشرف بعضويته ليس له حتى الآن مهم تشريعية إلا دور استثنائي وبسيط وغير مؤثر ومقصود على التشريعات المكملة للدستور، حتى أن مشروع نقل الأعضاء الذي نوقش فيه لسنوات، سحب منه اكتفاء بعرضه على مجلس الشعب .

ولست أملك أى أدوات أو قنوات للحديث بما أراه إلى دوائر التخطيط أو القرار أو التشريع، ولم يعد فى مكنتى غير قلمى وهذه النافذة .. رأيت أن أقرع من هنا الأجراس، وأدق نواقيس التحذير . إن تحويل سيناء بأكملها إلى منطقة حرة - يكاد يكون تسليما أبديا لها للهيمنة والمخططات الإسرائيلية !

العدول عن هذا المشروع الكارثي - يفرضه أمن مصر كلها مثلما يفرضه أمن سيناء، الجزيرة والمحيط .. أملى أن نتنبه إلى المخاطر والمحاذير وهى عديدة، وأن نرد هذا المشروع إلى حيث أتى، فمن ورائه كوارث سوف يحاسبنا الله والتاريخ عليها !

من

تراب (٢٥١) صفقة في الصميم ! (٢)

الطريق!

تلقي الأمريكان والغربيون بعامة، المتنادون بحرية وحقوق الإنسان، صفقة في الصميم هذه الأيام، حيث ذاع أمر المحاولات التبشيرية المحمومة لتتصير جدة الرئيس الأمريكى " باراك أوباما " .. أشارت التقارير الإخبارية إلى وجود بعض المحاولات لتحويل " سارة أوباما " (٨٧) عاماً من الإسلام إلى المسيحية، وذكرت صحيفة " ديلى ناشون " - فيما نقلته صحف مصرية - أن محاولة تعمد الجدة العجوز التى قاربت العقد المئوى، جرت خلال أحد الاحتفالات فى مدينة كيزوما غربى البلاد فى كينيا، وأن المحاولة باءت بالفشل، بعد أن أمضى بعض المبشرين عطلة نهاية الأسبوع قبل الماضى لدى الجدة " سارة أوباما " فى قرية " كوجيلو " بهدف إقناعها بقبول التعميد .

لست أريد أن أتوقف عند احتجاجات العديدين من أفراد أسرة " سارة " على هذه المحاولات، ولا عند ما أعرب عنه مجلس الأئمة فى كينيا من غضب لهذه المحاولات التى انتقدها بشدة وطلبه من الحكومة التدخل لتجنب حدوث توترات أو احتقانات لأسباب دينية، وقيل إن المجلس أصدر بياناً أكد فيه أن المسلمين لن يجلسوا مكتوفى الأيدى إزاء هذه المحاولات التبشيرية لإرغام مسلمة على التحول للمسيحية !

ما يعنينى أن عدوى فصام الفعل عن الكلمة - باتت فيما يبدو متفشية، ضربت فى العالم كله، وطالت الغرب الذى يتشدد بحرية التدين ضمن ما

(٢) المال ٢٩/٤/٢٠٠٩

يتنادى به من حقوق الإنسان، وصار الشعار السائد هناك هو السائد هنا :
" قل مايعجب الناس واصنع ما شئت " !.

ذكرتني هذه المحاولة الغبية بما دار من شائعات وأقاويل وتفسيرات
حول حادث مصرع الأميرة ديانا زوجة ولي العهد البريطاني، وما قيل
وقتها من أن الحادث اغتيال لتفادى أو لتدارك حمل الأميرة البريطانية من
رجل مسلم، وما سوف يولده ذلك من مفارقة فى أبناء ولي العهد
البريطانى، وربما ملك بريطانيا قريباً، يدين بعضهم بالمسيحية ويدين آخر
بالإسلام .

ولو كانت الكلمات والشعارات صادقة، لما صارت هذه الحساسيات فى
أمريكا أو الغرب، فالدين معتقد شخصى نابع عن إرادة حرة ورؤية
مختارة، لا يمس ولا ينبغى أن يمس " المواطنة " وحقوقها، وكنا نعبر عن
ذلك فى مصر - قبل أن تلحقنا بارومة الاحتقانات بأن : " الدين لله والوطن
للجميع " .

من الغريب إزاء الفصام الغربى أن " التدين " ليس حاضراً فى الحياة
الاجتماعية هناك كحضوره هنا، ومع ذلك لم تتحول الشعارات حول حرية
العقيدة وحقوق الإنسان إلى واقع حقيقى يحترم هذا الحق فى جميع
الأحوال، فلم تحتل النظرة " الاستعلائية " الغربية أن تكون جدة الرئيس
الأمريكى مسلمة، أو أن يكون أخ ولي العهد أو ملك بريطانيا المقبل -
مسلماً .. واستخدماى تعبير " الاستعلاء " أتى قصداً لا عفواً .. فما
دام التدين لم يعد حاضراً الحضور الساخن فى الغرب، فإن " الاستعلاء "
يغدو هو التفسير الوحيد لوجود هذا الموقف من الإسلام والمسلمين !

لقد شفتَ الرسوم المسيئة إلى رسول الإسلام عليه السلام، التى انطلقت
من الدانمارك وعمت بلداناً غربية أخرى - شفتَ عن هذه الروح التى لا
يمكن أن تكون نابعة عن احترام حقيقى لحرية العقيدة وحق التدين واحترام
الأديان كافة !

بل وقد شفتَ وغيرها من المواقف الأمريكية وبعض المواقف الغربية،
عن موقف من الإسلام والمسلمين مزج بين " الاستعلاء " و " العداة " ..
والخطر الأكبر فى هذه المواقف أنها نابعة عن رؤية مريضة ضريرة لا
تنسّق مع الحرية ولا مع المنطق .. فلن يزيد المسيحية أن يتحول إليها
مسلم، مثلما لن ينتقص من الإسلام أن يتحول عنه مسلم، فالدينان يملآن
الدنيا بمئات الملايين فى كافة القارات وشتى بلدان الأرض .. قيمة كل من
الدينين فيه، ومعتقداته وتعاليمه ستبقى فى منظومته مهما انتقل واحد من
هناك أو إلى هناك، ولو فهم الناس هذه الحقيقة، وفهمناها هنا أيضا بعد أن
عمّت الاحتقانات، لأدركنا أن الحساسيات عمياء ضريرة، وأنها عارية من
الفهم والمنطق، ولتوقفنا عن التباهى المعلن أو المستتر بأنه قد انتقل إلى
هذا الدين أو ذاك بعض من هناك، ولتعاملنا مع حرية العقيدة بقدر أكبر من
الفهم والسماحة، ولقبلنا من الآخر أن يعبد الله بما يرى عبادته به، مثلما
نعطى أنفسنا الحق فى أن نعبد الله تعالى كما نراه نحن !

كان ظنى أن المشكلة ضاربة هنا فقط، إلى أن داهمتنى المحاولات
الحمقاء التى جرت مع " سارة " صاحبة الـ (٨٧) عاما، وجدة الرئيس
الأمريكى ! .. إن " باراك أوباما " لم يفز بأغلبية أصوات الناخبين
الأمريكيين لأنه مسيحى، ولم يخسر الانتخابات لكونه من أصول مسلمة،
ولكنه كسب بمجمل صفاته وقدراته التى لم بها شمل الحزب الديمقراطى
قبل أن يجمع بها أيضا أغلبية أصوات الناخبين الأمريكيين جمهوريين
وديمقراطيين ومستقلين ..

لو فهم الناس ذلك، هناك وهنا، لتركوا التعصب الضرير، واحترموا
حرية العقيدة للغير كما للنفس، ولعمّت السماحة واستطاع الناس أن يرتفعوا
إلى قيم الإنسانية بعيدا عن "أبقاق" الكلام وعن الشعارات !!

من

تراب (٢٥٢) رثاء متميز! (*)

الطريق!

"مضى ثمانية أشهر على احتجاب ذلك الطيف الذى كان كثيراً ما يرى فى هذه العاصمة غاديا أو رائحاً فى خطوة وثيدة وعزلة بعيدة كأنما يسرى من حيث لا يعلم الناس إلى حيث لا يعلمون، ذاهب الطرف أنى سار كالعابر من عالم لا يذكره إلى عالم لا يرجوه غير مشغول بأمر الطريق، على وجهه سماحة تظللها سحابة من أسف شجى ولوعة مخامرة، وفى عينيه حيرة قرت من فرط القلق فعادت فى رأى العين طمأنينة راضية، وعلى شفثيه صمت مصرّ كظيم يصف لك من صاحبه هاتفا دعا ثم ألحف داعياً منادياً حتى مل وفتر فلم يستمع إليه مصيخ ولم يجب إلى صوته صدى، فأطبق شفثيه إطباقاً من لا ينوى افتراراً ولا يهم بصيحة ولو علقت النار بردائه - مضى ثمانية أشهر على احتجاب ذلك الطيف واحتباس حركته، فكان مغيبه فى نفوس المحبين والعارفين رزاً فادحاً وألماً بارحاً ونزعة شديدة وشقة بعيدة، وكان فى تصور الخيال خطوة واحدة كخطوة الطيف الهائم جفلته لواغط الأصوات فأوى على ظلمته الساكنة " !

بهذه الكلمات المتميزة، قدم عباس العقاد رثاءه للكاتب الصحفى الأديب فرح أنطون .. نشرته جريدة البلاغ ٥ مارس ١٩٢٤ .. يورد العقاد أنه رأى " فرح أنطون " مراراً، ولكنه لم يكلمه إلا مرتين أو ثلاثاً .. إحداهما فى مقر " الأهالى " التى كان يعمل فى تحريرها، ويومها سمع من نبذة صوته ما فاق ما رآه من خشوع نظرته، يكمل العقاد فيقول إنه أحس

(*) المال ٢٠٠٩/٤/٣٠

بموضع دائه، فواساه قائلًا بأنه - أى فرح أنطون - فى طليعة مبكرة من
طلائع النهضة العامة، وأن المستقبل سوف يعرف من عمله ما لم يعرفه
الحاضر، وسيكون حين يفترق الطريقان خيراً مما كان فى هذا الملتقى
المضطرب !

شدتتى كلمات العقاد واستحضرت ما بتنا نعانیه من تطاول الإمعات
على القامات وإنكار حقهم وما قدموه لبلدهم، مثلما أسرنى حزن إجابة فرح
أنطون . قال بحركة فائرة من يده : " يا أخى تيار جارف - فماذا يحفل
المستقبل بالحاضر، وماذا يبالى السائر المغذ بمن كان قبله فى مفترق
الطريق ؟! "

ونعرف عن فرح أنطون (١٨٦٦/١٩٢٢) - أنه كاتب ومترجم
وصحفى ومسرحى عربى، ولد بطرابلس الشام، وهاجر إلى مصر كعادة
الكثيرين من أباء ذلك الزمان، حيث أسس مجلة " الجامعة " وكسدت ولم
تستمر، واشترك مع عبد القادر حمزة فى تحرير جريدتى " الأهالى "
و" المحروسة " . نزع إلى التفكير الحر متأثراً ببعض مفكرى الغرب أمثال :
روسو، وسيمون، ورينان، وتولستوى، ترجم " أنالا " لـ" شاتوبريان، و "
ملفا " لجوركى، و " زرادشت " لنيتشه .. وفى الرواية كتب :
" أورشليم الجديدة "، وتحول فى أخريات أيامه للكتابة عن المسرح وله .

هذا ما تذكره لنا دوائر المعارف عن فرح أنطون، ولكن العقاد يريد
كذباً إثارة قضايا .. فيلاحظ أنه من واقع ما قرأه له وجده ممن لا تمر بهم
مذاهب الفكر الشائعة عبثاً، وإنما تمازجت لديه مع كل ما يصب فى صفحة
وجدانه التى لم يوصدها فى وجه طارق من طوارق الأفكار الجميلة .

يستلفت العقاد أن حياته الفكرية كانت أثراً لوطنه المكانى ووطنه
الزمانى .. فأما وطنه المكانى فظاهر الأثر فى حملته على رجال الدين
والإقبال على المؤلفات التى تتحى عليهم، كإكثاره من الكتابة عن
تولستوى، وتلخيصه لكتاب رينان فى " تاريخ المسيح " .. ودعوته للفصل
بين الكنيسة والحكم، وانتقاده الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية فى
الخلافة الإسلامية .

لم يفت العقاد أن يستقصى أسباب التحدى البين للنفوذ الدينى فى الشام، بداية من جذوره الراجعة للحروب الصليبية والامتيازات الأجنبية، واستعراضا للنفوذ الذى قبض به رجال الدين على زمام السلطة فى الشام، وجمعهم هناك بين الزعامة فى الدين والزعامة فى السياسة والزعامة فى العلم، وردود الفعل التى تبرم بها الشبان المتعطشون إلى المعرفة الحرة والآراء المتجددة . وهذا ما تراه بشيء من الرشق والاعتدال فى كتابات فرح أنطون .

أما الموطن الزمانى الذى تأثر به فرح أنطون، فهو طريقة الكتابة التى لم يغيرها إلا قليلا فى عهده الأخير، وهى المنادية " بالعودة إلى الطبيعة " .. وحين تراجع كتاباته يخيل إليك أنه يكتب بقلم من أقلام الفلاسفة والأباء أمثال روسو وبرنادين وغيرهما، ولكنه لم يقلدهم وإنما توافق معهم بفطرته، بل ويتقدم بما كتبه إلى صف الكثيرين منهم .

يذكر العقاد لفرح أنطون أنه كاتب به استعداد للرواية والقصص، وتجلت هذه الملكة أحيانا فى مقالاته الأدبية والسياسية، ومال به هذا الاستعداد فكتب وأحسن وارتفع فى روايته : " أورشليم الجديدة " .. وشجعه ذلك على ارتياد المسرح حين دعى فى أخريات أيامه للكتابة له، فأحسن فى البداية ما ترجمه وما كتبه، ولكنه لم يحقق من المسرح بغيته، فلم يرض العقاد عن مسرحية له لم يصبر على إتمام مشاهدتها، ولكنه يتخذ من ذلك فرصة لإثارة ما يلاقيه الأديب والكاتب من قلة ونضوب الموارد، فيضطر إلى الخروج عن ملكته وما يتقنه، إلى عمل روائى أو مسرحى قد يحقق له ما يعادل ربحه من جميع مؤلفاته ومترجماته ! فهل هو المسئول ؟ يسارع العقاد الذى عانى الأمرين وباع مكتبته أكثر من مرة، فينحاز إلى فرح أنطون، ويختم مقاله المنشور فى كتاب " مطالعات فى الكتب والحياة " - قائلا : " وماذا كان يصنع فرح أنطون إن لم يؤلف تلك الروايات ؟؟ ألا فلنعلم أننا إذا كنا لا نختار للأديب النابغ المريض المنقطع الموارد إلا أن يموت بيننا على الكيمان جوعاً فقد يحق لذلك الأديب أن يختار لنفسه خاتمة أسلم وأكرم من تلك " !

من

تراب (٢٥٣) غدر الملوك ! (١)

الطريق!

تأبى القراءات العفوية إلا أن تشدنى من وقت لآخر إلى مشاهد دماء جرت على جدار السلطة ! .. يحكى لنا كاتبنا القذ يحيى حقى فى كتابه " صفحات من تاريخ مصر " - ما صادفه فى مذكرات كومانوس باشا، وهو طبيب يونانى شهير عاصر الخديو إسماعيل وتوفيق عباس الثانى، عثر عليها يحيى حقى بالمصادفة على سور الأزبكية قبل أن يلتهمه زحف الزمان .

تروى المذكرات كيف جرت نكبة إسماعيل باشا المفتش، ويقال إنه كان أخا للخديو إسماعيل فى الرضاع، وسمى باسمه، وكان عضده الأيمن وكاتم أسرار، ولكن الأيام حوّل قلب، ومع طلائع وصول اللجنة الفرنسية / الإنجليزية المكلفة بالتحقيق فى الوضع المالى فى مصر، توجس الخديو من الإمساك بتلابيبه باعتباره المسئول عن الإسراف الذى بدد أموال الخزانة العامة، وخشى أن يفضحه صديقه الحميم وزير مالىته إسماعيل باشا المفتش، فاعتزم التخلص منه. ولكن كيف؟ !

دعا الخديو ذات يوم لتناول الشاى معه فى قصر الجزيرة حيث فندق الماريوت الآن، وزيادة فى إكرامه مرّ بنفسه على داره ليكون الضيف فى صحبته أثناء الطريق أيضا، ولم يكد الخديو يدخل القصر حتى اعتذر للضيف بأنه سيغيب للحظات، بيد أنه ما كاد الرجل يستقر بمجلسه فى صالون الاستقبال، حتى جاءه أحد أنجال الخديو ليصحبه - فيما قال ! -

(١) المال ٢٠٠٩/٥/٤

إلى اليخت الراسى فى النيل أمام القصر حيث تنتظرهم مائدة العشاء هناك . ولكن ما إن نزل إسماعيل باشا المفتش إلى اليخت، حتى أدرك أنه وقع فى الأسر، وأرسل إليه الخديو ياورا يأمره بالسفر إلى أعالي النيل، حيث تضععت قواه من الغم والوحدة وسوء الجو، فلم يلبث طويلا حتى لقي حتفه !

هذا ما ذكره كومانوس باشا فى مذكراته عما سمعه من الياور الذى أشرف على تنفيذ أمر الخديو، ولكن يحيى حقى يستوقفه أنه لم يقل من من أبناء إسماعيل شارك فى هذه المؤامرة، وتقول بعض الروايات إنه الأمير حسين كامل الذى تولى العرش فيما بعد، ولم يذكر اسم الياور، ولم يشأ أيضا أن يشير إلى الشائعات التى راجت بأن إسماعيل باشا المفتش مات مخنوقا وألقيت جثته فى النيل، وأنه استطاع أن يعرض خانقه قبل أن يلفظ الروح، وأن القتل حدث فى محضر من الأمير، لكنه أثر السلامة لأنه كان على صلة بالخديو عباس الثانى، فهو لا شك يخشى من غضبه .

يروى لنا يحيى حقى، نقلاً عن مذكرات كومانوس باشا، أن إسماعيل باشا المفتش ترك ثروة طائلة، ثلاثة قصور فخمة ومئات من الجوارى. صادرها الخديو جميعاً !

هل كان إسماعيل باشا المفتش كبش ضحية أراد الخديو بذبحه أن يثبت للجنة الإنجليزية الفرنسية عزمه على تطهير الأداة الحكومية ؟! لا أحد يدري، فقد غاب اليقين مع اختفاء الرجل الذى كان ملء الأسماع والأبصار فى ظروف غامضة !!!

يتساءل يحيى حقى : ترى ماذا كان الحديث بين الخديو وسميه وحبيبه وهما بالعربة فى طريقهما إلى القصر الذى أزمع الخديو التخلص فيه من صديقه الحميم أو أخيه فى الرضاع فى بعض الأقاويل ؟! هل أعطاه الخديو وجها ينطق بالبشر والود كالعهد به ؟! هل لمست يده يد فريسته أو كتفه بحنان وود ؟! هل تثبتت نظرته على عين رفيقه ولو برهة خاطفة ؟! أم

تراه كان يشيح وجهه عنه ويدارى الحديث، فإذا سئل أجاب فى غير ما سئل عنه ؟ هل أحس الخديو بحقارة مسلكه وهو يصطاد صديقه أو ضحيته بالغدر والخيانة ؟! هل رضى إسماعيل الخديو عن نفسه وأعجب بها لأنه أتقن تمثيل دوره ؟! وهل نام ليلته ملء جفونه غير مؤرق، أم طارده شبح صديقه الحميم الذى غدر به ؟!

لم يكتف يحيى حقى بالمشهد الذى أعطانى إياه من مشاهد الدماء التى سألت على جدار السلطة، فلاحقنى - سامحه الله - بعناء هارون الرشيد يوم مصرع البرمكى، وعناء سليمان القانونى يوم أن وقف بباب الخيمة التى يقتل فيها أعز أبنائه بأمره .. يسمع نداءه مستغيثاً به أن ينقذه، ولكنه يشيح عن نجده حتى يلفظ ابنه الفتى أنفاسه الأخيرة . دعنى أحدثك باكر عن سليمان القانونى، فقد أخذنى البحث عن قصته مع نجله مصطفى إلى كتب وموسوعات لأفتش عن هذا المشهد العجيب الذى قتل فيه الأب ابنه استجابة لمراد الزوجة الحبيبة " روكسيلانا " التى أرادت أن تخلص ولاية العهد إلى ابنها سليم الثانى فيما بعد !

من

تراب (٢٥٤)

الطريق!

دماء على مذبج
سلطان الآباء ! (*)

لا أستطيع أن أقاوم رصدي للدماء التى سالت على جدار السلطة ..
غريب أمر الملك والملوك، قد يرتفعون إلى عنان السماء حكما وإنجازاً
وصيتاً وعظمة، ومع ذلك قد تخلو دنياهم من الرحمة، مع أنها قد تكون
غارقة فى المحبات !

لم ينعم سلطان أو ملك فى عصره، بالمجد والصيت والعظمة التى عم
بها السلطان سليمان الأول أو القانونى الذى خلف أباه سليم الأول فى حكم
الإمبراطورية العثمانية ١٥٢٠م وامتد ملكه حتى وفاته ١٥٦٦م . بلغت
الإمبراطورية العثمانية فى عهده أوج سطوتها وقوتها السياسية والثقافية
والعسكرية . اجتمعت إلى مواهبه فى القيادة قدرة كبيرة على التنظيم
والتشريع حتى اشتهر بالقانونى للقوانين العديدة التى وضعها، والنظم التى
افترضها للجيش والشرطة وملكية الأراضى .. شارك بنفسه فى فتوحاته
وحروبه التى امتدت فى أوروبا وآسيا .. واصل فتوح أبيه فى البلقان،
فاستحوذ على بلغراد ١٥٢١، وطرد فرسان الاسبتارية من رودس ١٥٢٢،
وأوقع هزيمة ساحقة بالهنغاريين فى معركة موهاكس ١٥٢٦ .. وحاصر
فيينا ١٥٢٩ ولم يرده عنها إلا صقيع وزمهرير الشتاء . تحالف مع
فرانسوا الأول ملك فرنسا ١٥٣٦ ضد بيت هابسبرج، وكون حلفاً مع
شارل الخامس الإمبراطور الرومانى ١٥٣٨ . شن عدة حروب ضد فارس
حقق فيها انتصارات متتالية، واستخدم القرصان الشهير "بربروسة" أو

(*) المال ٢٠٠٩/٥/٥

خير الدين خضر، فصارت أساطيله مصدر فزع ورهبة فى البحر المتوسط، وضم إليه صنعاء وعدن وسيطر على البحر الأحمر حتى مضيق باب المندب .

فى عهده نعم المسيحيون واليهود بالحرية الدينية، وفر إليه يهود إسبانيا من محاكم التفتيش، وتألفت الحضارة العثمانية فى عهده، رعى الفنون والآداب، وأقام الجسور والمساجد والقصور والقناطر المائية، وزخرت المدن التابعة له بكل روعة فى البناء أو ألوان المعارف، وجعل إمبراطوريته ملاذاً آمناً وصورة لافقة للتسامح الدينى .

فهل يمكن أن يهوى هذا العظيم إلى ما دون حيوانات الغاب ؟!
كانت علاقاته العائلية، مع عشق السلطة، المنحدر الذى فارق به السلطان مراتب العظمة والعظمة إلى درك غريب هانت فيه أرواح الأبناء، وسالت دماؤهم على يديه !

كالعادة فتش عن المرأة ! .. من محظيته الأثيرة الشركسية " وردة الربيع " أنجب طفله النجيب "مصطفى" الذى ظهر نبوغه وشق طريقه إلى المناصب الكبرى والتبعات الهامة، وكالعادة أيضا فتر وتوارى حب السلطان القانونى لوردة الربيع حين انشدت عواطفه تجاه " خوريم " أو الضاحكة أو "روكسيلانا" الأسيرة الروسية التى سرعان ما كسبت قلب السلطان وانتزعت من المحظية الشركسية، وسيطرت عليه حتى وقع السلطان ثملا بجمال " روكسيلانا " ومرحها وإغوائها وخداها !
وتتكرر الصورة التى ملأت بلاط معظم الملوك والأباطرة .. تدبر المحظية الجديدة لملك أبنائها، والطريق المعتاد إيفار صدر الأب سليمان القانونى على ابنه مصطفى ساعده الأيمن والمنتظر أن يتولى عرش أبيه، ولا يفوتها أن تصاهر لنقوية شوكتها رستم باشا الوزير الأكبر فتزوجه ابنتها، ويلتفون حول السلطان يلقون فى روعه أن مصطفى يدبر الملك نفسه، ويصطنع الأسباب لتوسيع شعبيته حتى ينتزع العرش من أبيه،

فتمكن الشكوك من السلطان المنهوك، فيزعم قتل ابنه، وينتقل بنفسه إلى إرجلى حيث يدعو فلذة كبده إلى خيمته، ويقتله بيده طبقاً لرواية وول ديورانت في " قصة الحضارة "، أو يتابع قتله على مرأى ومسمع منه طبقاً لرواية يحيى حقي، دون أن تجدى صرخات واستعطافات الابن إلى أبيه أن ينقذه أو يعدل عن قتله !

كيف ساع للسلطان الأب أن يقتل أعز أبنائه بيده أو على مرأى ومسمع منه ؟! لا شك أن حماية الملك رجحت لديه على محبة الابن فهانت روحه وأسأل دماءه بيديه ! فهل توقفت بقتله أنهار الدم التي سالت على جدار السلطة ؟! يحكى التاريخ أن " بايزيد " ابن سليمان القانوني خشى على نفسه من أطماع أخيه سليم ابن روكسيلانا، ووجد أو تعلل بأن مصيره المحتوم سوف يكون الذبح، شئ عصا الطاعة وأعد جيشاً يتحدى به السلطان، فلما انهزم فر إلى فارس، ولكن الشاه الفارسي سلمه لقاء رشوة كبيرة، فماذا كان مصيره ؟! قتل شنقا سنة ١٥٦١، ولحق به أبنائه الخمسة الذين نبهوا محافظة على أمن العرش ..! يقول وول ديورانت إنه يُروى أن السلطان المتألم على قتل ولديه ثم أحفاده الخمسة - قد توجه إلى الله بالشكر والحمد على مصرع هذه الذرية المزعجة التي كانت تهدد عرشه، وأنه يستطيع الآن أن يعيش في رغد وأمن وسلام !!!

قد بلغ سليمان القانوني أعلى مراتب المجد والعظمة، وخاض حروباً كثيرة سجل فيها الانتصارات وطار صيته في البلدان، ولكنه ذبح نصف نريته، وأمر بذبح وزير مبدع دون إنذار أو محاكمة .. كانت عظمتُه عظمة ملوك، وكانت أخطاؤه أيضاً أخطاء ملوك، انضمت إلى مشاهد كثيرة سابقة ولاحقة سفكت فيها الدماء وسالت أنهاراً على جدار السلطة !

من

تراب (٢٥٥) الأنا وأمل الوعى ! (*)

الطريق!

الفرق بين الأنا وغير الأنا هو أمل وعينا .. وإدراك الفرق بين الحي وغير الحي فى المحيط المكشوف لحواسنا درجة أخرى من الوعى والتمييز بين حال الأحياء .. وحال الأموات لا يعرفه نوع معرفة إلا الأحياء من الآدميين وحدهم بفضل نشاط الذاكرة المباشر وغير المباشر الذى يتناول ذكر الماضين وآثارهم وعالمهم .

وإذا انطفأ وعي البشر بانطفاء جنسهم - انمحي وجودهم كله بكل ما يميزه .. لأنه لا يحفظه ولا يذكره ولا يفهمه إلا حافظه ذاكرة وإدراك ووعى آدميين فقط .

فالذى يموت تموت ذاكرته معه وتتطفئ تماماً، ولكن روحه التى مهمتها إنكاء الحياة فى أجزائه وتتميتها أسبق من وجوده فلا تتأثر بموته . أما هل تتأثر بفرديته أو هل تحتفظ بتأثيرها دائماً ؟ - فغيب محض .. لا سبيل إلى معرفته من طريق التفكير وإنما من طريق الإيمان فقط . ولهذا لم يحاول العلم الوضعى أن يدخل الروح فى معطياته وموضوعاته المقصورة على ما يفترض أنه ثابت لا يزيد جوهره ولا ينقص .. طاقة كان أو مادة وعلى ما يقبل التكرار ومن ثم يقبل القياس والحساب البشريين بمكوناته ومركباته .. مسبقاً كان هذا الحساب أو تالياً .

والعلم الوضعى أياً كان وأياً كان زمانه ومكانه - لا يتجاوز موضوعه الذى يحكمه هذا الافتراض الأساسى القائم على النظر إلى الظواهر وحدها

(*) المال ٢٠٠٩/٥/٦

.. ونظرتة دائماً نظرة جزئية .. لعلها ترى جانباً من العام ثابت الأسس
تتغير صور مكوناته باستمرار وتكرر في حدود إحصائية معينة أو قابلية
للتعيين مقدماً .

وهذه النظرة الإحصائية الجزئية يرى وعى الآدمي أنها جزئية لا تكفيه
ولا تستوعب مطالبه وأشواقه ولا تغطي واقعه كله .. وهو واقع يحس
ويشعر ويوقن أنه شامل يشمل كل الوجود ظاهره وباطنه .. أوله وآخره ..
بكل ما يعرفه الآدمي وما سيعرفه وكل ما لم يعرفه وما لن يعرفه .

هذا الوعي بوجود المجهول والغيب وبوجود المحتمل والجائز المتخيل
إلى جانب وجود الحاصل والواقع والمحقق - أحد شطري وعى الآدمي ..
ليسا منفصلين ولا متناقضين، بل هما أردنا أو لم نرد متلازمان دائماً
يتبادلان الخدمات ويتعاونان على جعل حياة الآدمي ممكنة وممتدة مهما
قست عليها الظروف، وغنية بالفرص الجديدة الحسنة مهما بدا افتقارها
وفاقتها ظاهرين لكل عين !

إن اليقين من انقضاء الحاضر يفتح أبواب الأمل كما يفتح أبواب القلق
.. لأنه يفتح على المستقبل والمستقبل إما غير مقطوع به، وإما غيب
محض بالنسبة للأفراد وللمجاميع .. يستوى في ذلك العالم الفذ بالعلوم
الطبيعية والإنسان العادي .. كل منهما يتفاعل ويتشاعم ويعيش حياته بين
الأمل واليأس في نفسه وفيمن يحب وفيمن يتصور وما يتصور من العالم
حوله . وهذا أكبر شطري الحياة .. بل لعله أغلبها .. لأن كل حاضر كان
مستقبلاً محجوباً تتنازعه الآمال والمخاوف . وكفة الآمال كانت غالبية إلا
عندما يستحكم اليأس لمرض أو شيخوخة أو مأزق خائق تسد فيه جميع
أبواب الفرج في نظر الآدمي !

وجل أولئك العلماء المنصرفين إلى العلوم الطبيعية لا يعيشون من
أجلها فقط، ولا ينسون قط أنهم بشر أحياء يحبون ويكرهون ويرضون
ويسخطون ويحيون ماضيهم مع حاضرهم مع مستقبلهم .. يسعدون

ويشقون بأنفسهم وعقولهم وعواطفهم وأجسامهم وآمالهم وأحلامهم
ومخاوفهم وهمومهم ومطامعهم وشهواتهم، ومع ذويهم وأمثالهم وأحبائهم
ومخالفهم وخصومهم من الأحياء ومن الأموات بقدر ما تسمَح به المناسبة
من الالتفات أو الاهتمام أو التذكر .

فكرة للتأمل : الناس يرفضون الاقتناع حين يخسرون، ويخشون ترك
الماضي ويستمسكون به مخافة ألا يجدوه !

من

تراب (٢٥٦) أدعية وتسابيح (٢)

الطريق!

باسمك اللهم .. يا قريب نستهل يومنا .. ونبذل قرباتنا .. فَعَمِر اللهم
قلوبنا بنور الإيمان واليقين .. واملأ عقولنا وألبابنا هدايةً وعلماً .. وأسبغ
على نفوسنا الأمان والسكينة .. وخشع قلوبنا لك .. وحرك ألسنتنا بذكرك
وحمدك والتسبيح لك .. أنت سبحانك مولانا وخالقنا .. وإليك اتجهنا
وقبلتنا .. وعليك يا قوَى يا مَنِّين استعانتنا وتوكلنا ..
اللهم فَتَقَبَّل منا .. وامدِّ يدك الكريمة إلينا .. وأقض علينا بنعمك
وخيرك .. وأسبغ علينا رضاك ورحمتك .. يا رزاق .. يا وهاب .. يا
رحمن .. يا رحيم ...

* * *

**** عن نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام :**

" يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بى شفتاه "

صدق رسول الله

* * *

اللهم .. رَطَّب ألسنتنا بذكرك .. واهدنا بك إليك وإلى كل ما تُحب ..
اللهم وَتَقَبَّل منا قرباتنا إليك .. وأرشدنا إلى ما ترضاه لنا ومنا .. اللهم
واشملنا بعونك وعنايتك ولا تنسنا .. واعصمنا مما قد يُضِلُّنا وسد خطانا
على كل درب تعلم سبحانك أن فى نهايته خيراً لنا .. وانكرنا يا كريم
فيمن تذكر عندك .. وَتَحَف بهم ملائكتك .. وتغشاهم رحمتك .. يا رب

(*) المال ٢٠٠٩/٥/٧

* * *

باسمك اللهم .. نُقبل على حياتنا وسعينا على هديك وصراط نبيك
المصطفى .. نمضي مُضى الشرفاء الكُرماء .. ونعمل عمل الجادين
المُخلصين .. فافتح اللهم نفوسنا للإقبال على واجبنا بالعزم والإخلاص ..
وتوج بالنجاح سعينا وجهدنا .. وتم لنا رزقنا .. وثمرات عرقنا وكدنا ..
وبارك لنا فيما تقسمه لنا .. وحقق لنا آمالنا وأمانينا ..

باسمك اللهم .. نسألك نقاء يومنا .. وتوفيق سعينا .. نسألك أن تهبنا
فيه التقى .. وتقيمنا على درب الخير والصلاح .. أن تجعلنا خيراً فيه
لديننا ودنيانا .. لحاضرنا ومستقبلنا .. لأنفسنا وأحبابنا .. وأن تثيبنا عندك
بما قدمناه .. ورضيت سبحانه عنه .. وأن تُمي إقبالنا عليه ..

* * *

باسمك اللهم .. ننزل ليومنا بما عاهدناك عليه .. فحقق لنا رجاءنا
وآمالنا .. وأجب سؤلنا .. واجعل منهاجنا على ما عزمنا عليه بصادق
نوايانا ومُهجننا .. فأنت سبحانه الهادي ولا هدى إلا بك .. وأنت سبحانه
الرازق ولا رزق إلا ما أنعمت .. وأنت سبحانه المُغنى ولا غناء لنا أبداً
عنك ...

ربننا .. عليك توكلنا .. وإليك أنبنا .. وإليك المصير ...

من

تراب (٢٥٧) معجزة القرآن (٢)

الطريق!

يقرأ المطالع للقرآن الحكيم : من قول الحق جل شأنه : " أَمْ يَقُولُونَ
افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (هود : ١٣) ، ويقرأ من سورة يونس :
" أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (يونس : ٣٨) ، ويقرأ في سورة البقرة : " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي
رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عِبْدِنَا فَأتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (البقرة : ٢٣) ، ومن سورة الإسراء : " قُلْ لِّئِنْ
اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ
كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " (الإسراء : ٨٨) .

وقد مضى على نزول القرآن الحكيم نيف وأربعة عشر قرناً، فما
استطاع أحد أن يجاوب هذا التحدى أو يأتى بشيء مثله ولو كان بعضهم
لبعض ظهيراً .. وقل أن يوجد فى الكتاب العزيز آية ليس فيها ذكر الله
عز وجل أو تمهيد أو تعقب لذكره . وقد نزل الكتاب المبين على مدى
ثلاث وعشرين سنة وهو ملازم لهذه الحال وهذا التركيز التلقائى إلى أن
انقطع نزوله بوفاة الرسول عليه السلام .

وما جاء فى الكتاب الحكيم من الأحكام أو القصص - إنما جاء تفرعاً
على التذكير بالله سبحانه وتعالى .. يبدأ منه ليعود إليه . لم ينقطع هذا
التذكير قط فى أية سورة مهما صغر حجمها وقل عدد آياتها .

(٢) المال ٢٠٠٩/٥/١١

وبهذا تفرد الكتاب المجيد عن كل كتاب آخر .. مقدس أو غير مقدس . واستحال أن يكون موضع تقليد سواء بالنسبة لسورة منه أو لعشر، وذلك لاستحالة توجيه أى إرادة واعية لذاتها إلى ذلك التركيز التلقائي المطرد على ذكر الله وبداية كل شيء منه وإليه ثلاثة وعشرين عاما . لأن الإرادة الواعية لذاتها أيا كان حظها من الاقتدار والاستغراق - سرعان ما تمل وتجد من وحدة الموضوع الذى لا يزيد ولا ينقص، وتعجز عن المحاكاة دون أن يظهر فيها الاصطناع والتكلف لستر الملل والإجهاد .

قالوا إن نزول الوحي على الرسول المصطفى كان دائما شديد الوطأة بدنيا، وكان يتخلف عن مجيئه رضا وثقة هائلان لديه عليه الصلاة والسلام، فلم يكن ما يوحى به إليه ثمرة تدبر وتفكير ونظر لوعى يراقب ذاته فيما يعيه ويتتبع مشاهداته ومعلوماته وأفكاره وخواطره ومصداقاته إلى أقصى ما يستطيع وينتقى عباراته فى روية وصبر وبعد موازنة ومفاضلة . لم يكن عليه السلام يرتقب وعيه لتقييد ما قد يوحى به إليه فيكون ردًا حصل عليه واقتضه وصار منتسبا إلى ذاته كنتاج من نواتج قدرته .

لم يكن ما يوحى به إليه من عمله هو، أو مصدره ذاته هو، وعقله أو إرادته هو، أو أن من حقه أن يحجبه أو يمس به أى تعديل أو حذف، لا هو ولا غيره . فكل آية نزلت عليه من آيات الكتاب المجيد وكل سورة من سوره ليس لها مصدر بشرى على الإطلاق، ويستحيل من ثم عليه هو أو على غيره من البشر أن يأتى بمثلها تقليداً أو محاكاة لها . لأن مصدرها هو الله تعالى، وهى من عند الله عز شأنه الذى انصرفت آيات الكتاب المبين إلى التذكير أو التمهيد للتذكير به أو التعقيب على هذا التذكير .

وبرغم ابتعاد اللغة العربية الآن - مقولة أو مكتوبة - عما كانت عليه إبان التنزيل، برغم ذلك ومعها زيادة الاختلاف فى اللهجات والأدواق والثقافات خلال أربعة عشر قرنا فى البقاع التى تتكلم العربية - فإنه قد صار الإيمان بإعجاز القرآن جزءا لا يتجزأ من عقيدة المسلم .. عربيا كان أو أعجميا . ولم يعد ذلك موضع جدل أو نقاش أو مفتقرا لبينة أو إبانة لأنه

جزء من إيمان المسلم . وبات حمل المصحف أو حيازته أو قراءته أو سماع تلاوته - بات قرابة إلى الله تعالى وفيه كل الغناء، ولم يعد ثم مجل بأى وجه لتجدى الكتائب المبين أو لأى محاولة لتقليد آياته وسوره رغم تعدد نسخه بملايين الملايين وتعدد المسلمين وقراء العربية بألوف الملايين !

لم يوجد من يفتري آية أو سورة أو سورا على القرآن الكريم، ولم يوجد من يدعى قدرته على شىء من ذلك، ولم يعد يشغل أحداً من المهتمين بالكتاب المجيد سوى حماية طبعاته المتزايدة من حذف كلمة، أو تحريف لفظ أو الإخلال بترتيبه، حماية لهذه المعجزة الربانية الباهرة التى طفقت تهدى البشرية من أربعة عشر قرناً وإلى ما شاء الله .

من

تراب (٢٥٨) أغراض آدميين (*)

الطريق!

بخلاف سائر المخلوقات الحية على المسكونة الأرضية، فإن آدمى وحده هو صاحب الأغراض التى لا تنتهى، ولا تنحصر، وليس لها ثبات .. ولذا فإن أنماط سلوكيات آدميين وصورها فى تغير دائم، ملحوظ هذا فى الجيل الواحد، وملحوظ أكثر فى مقارنة الأجيال المتعاقبة بعضها ببعض . وهذا يجعل ثبات أحوالهم وعاداتهم وأعرافهم وقوانينهم نسبيا على الدوام .. يتحرك ببطء أو بتسارع مع اشتداد حركة الأفكار والأذواق وتقلب ظروف الزمان والمكان، ناهيك بتعاقب الأجيال !

فالأحفاد لا يكادون يعرفون عن حياة أجدادهم إلا أسماءهم القريبة، ولا يجدون شيئا فى حياتهم هم وأساليبها التى يعيشونها اليوم يطابق قليلا أو كثيرا حياة الأجداد، مع أنهم يرددون فى بعض أو كثير الأحيان نفس الأسماء والمصطلحات والمسميات التى كان يتداولها الأجداد ويرددونها عن الأسرة والزواج والطلاق والميلاد والوفاة والعبادة والعمل والبطالة والدولة والحكومة والسلم والحرب . هذه المسميات وأمثالها تختلف مفاهيمها من جيل إلى جيل اختلافا يتزايد مع توالى الزمن وتعاقب الأجيال واقتران الأفكار وانتشار الأغراض أو تقلصها وما يتبع ذلك من انتقال وتنوع اهتمامات آدميين من أمور إلى أخرى، ونسيانهم ما كانوا يقبلون عليه سلفا أو يحتفلون به من قبل، واحتفالهم فى حاضرهم هم الآن بما لم يكونوا يتصورونه أو يأبهون له !

(*) المال ١٢/٥/٢٠٠٩

فكم من ملة أو دولة أو ملك أو نظم سادت قرونا ثم انقضت وانطمرت هي نفسها أو عاداتها وتقاليدها، وحل محلها شيء لم يكن في السالف أو في أوله شيئا مذكورا، ثم نما وكبر وقوى واشتد وانتشر حتى غطى على ما سبقه ومحاه، ليعيش بدوره زمنا ثم يرد عليه ما ورد على سالفه فيأخذ في التحلل والانقراض والانقضاء بعد أن أخذ حظه من البقاء، ثم يطمره النسيان هو الآخر وينساه الناس بعد أن انمحي ولم يعد له وجود في حياتهم الحاضرة، ولا يغير هذا المصير ما تحفظه كتب التواريخ من أخبار تناقلها من رددوها من مصادر أغلبها ظنى أو ميتور !

ومحاولات البشر كتابة وتكوين تواريخهم وتسجيل أمجادهم وأحداثهم - صحيحة كانت أو مبالغ فيها أو باطلة - وحنينهم لسماع الأخبار عن الأولين والماضين وما كانوا عليه - صادقة كانت أو مغالى فيها أو كاذبة - هي كاشواق المسافرين الذى يشعر أنه راحل وحكاية القادم الذى يحس أنه بدوره سوف يرحل هو الآخر .. وفى هذا كله اعتراف ضمنى بالتغير والزوال وباستحكامهما فى حياة الأسمى ووجوده ونوع مقومة نما يصحب ذلك من الخوف من العدم والمحو والنسيان !

ومقاومة الفناء والخوف من العدم تشغل معظم اهتمام الأئمين الأحياء فى جميع المجتمعات والعصور، بتخليد ذكراه وإكرام مثواه . فهذه المقومة وثيقة الصلة بإقامة وزخرفة المدافن والجبانات والآثار، وبقتناء الأموال وجمع الأمجاد وإنشاء الأسر ورعاية القرابات والاهتمام بالصدقات وتبائل الخدمات والمروءات والمودات والاتصاق بالأوطان والقوميات واعتق الملل والعقائد والمذاهب .

ولن تجد لذلك شبيها أو مقابلا لدى غير الأئمين من الكائنات الحية، لانهصار أغراضها وطول ثباتها واكتفائها فى المحافظة على البقاء - بالنوالد كثرة أو قلة، والانتفاع بالمحيط فى التغذية المباشرة التى لا يتجاوز الانخار لها فصل الشتاء أو فصل الجفاف، وفى المأوى الساذج فى كهف أو جحر أو حفرة أو عش أو مريض .. لا تمد هذه الكائنات أغراضها

ورغابها إلى ما وراء ذلك، سواء في ذلك حيوان البر أو البحر أو نباتهما .

هذا بينما الأدمي دون غيره من الأحياء - يدرك في وعيه وشعوره الوجود والعدم، والحضور والغياب، والماضي والمستقبل .. ويستطيع أن يتصور الغيب ويستشرف المستقبل ويسترجع الماضي وأن يتصور أموراً ممتنعة وأخرى ممكنة، وأن يغرق في التعامل بين ما يبدو له محققاً مؤكداً، وبين ما يمكن أن يأخذه على أنه جائز الحصول قابل للتحقق، وبين ما يعامله على أنه خيال مقصود به المتعة والاستمتاع ووهم محض أو كذب أو خرافة، وأن يرتاح إلى ما يقتنع به على أنه صدق وحق، وأن يرفض ما يوقن أنه كذب و زور .

لهذا كله امتدت وتمتد أغراض الأدمي إلى غير نهاية، إذ موضوعات الوعي والشعور والتناول والتعامل والقبول والارتياح والرفض والإعراض - لا تنتهى .. كما أن هذه جميعاً عمليات نفسية ثباتها دائماً نسبي ولا حد لتقلباتها وتحولاتها وتداخلها وتراكبها مع اختلاف الأزمنة والأمكنة والظروف والأشخاص والمستويات والأجيال .

فيقين الأدميين وممكناتهم ومحالاتهم وباطلاتهم قابلة للتغير والتغيير مع زيادة أو نقصان المعرفة واتساع وضيق الفهم . وواهم كبير الوهم من يتصور أن الأحوال تبقى كما هي بلا تغيير أو تبديل، أو أنه يمكن رد الحاضر لمحاكاة الماضي الذي كان !

من

تراب (٢٥٩) الماكيافيلية الحناء (*)

الطريق!

لعله لا يوجد كتاب حظى بالشهرة ككتاب " الأمير " الذى وضعه " ماكيافيللى " فى القرن السادس عشر .. تعرف الكتاب من قائمة أشهر قرائه بأكثر مما قد تعرفه من عنوانه .. لم ينكر أحد أن " طغاة " كل عصر وجدوا فى مبادئه بغيتهم، علت بالبعض، وهوت بالبعض . أورد روبرت . ب . دوانز فى مؤلفه : " كتب غيرت العالم " الذى ترجمه أمين سلامة لهيئة الكتاب سنة ١٩٧٧ .. أن قائمة الطغاة القراء الذين أعجبهم الكتاب شملت فيمن شملت : الإمبراطور شارل الخامس، وأوليفر كرومويل الذى اعتنق مبادئه وطبقها فى حكومة الكومنولث، وكلاً من هنرى الثالث وهنرى الرابع الفرنسيين، وساعدَ فريدريك العظيم على صياغة سياسة روسيا، وجعل منه لويس الرابع عشر " طاقيته الليلية المفضلة "، ووجدت منه نسخة معلق بحواشيها فى عربة نابليون فى ووترلو، واستمد منه نابليون الثالث معظم أفكاره، وكان بسمارك تلميذاً مخلصاً لما جاء فيه، واحتفظ به أدولف هتلر فى مخدعه، واعتبره موسوليني دليله السياسى الرائع !

من اللافت أن تبقى الماكيافيلية التى بشر بها كتاب " الأمير " - عالقة فى الأذهان لما يزيد على الأربعة قرون، يتقدمها شعار كثر ترديده لمن يعرف ولمن لا يعرف : " النهاية أو الغاية تبرر الوسيلة " .. أو " تخلق الملاءمة السياسية " .. لم ينشر الكتاب إلا سنة ١٥٣٢ م بعد وفاة

(*) المال ٢٠٠٩/٥/١٣

مؤلفه بخمسة أعوام وإن سبقت مخطوطته إلى طغاة عصره . أفرغ فيه المؤلف الإيطالي خلاصة تجاربه في خدمة الحكومة في فلورنسا ثم في توسكاني ثم في روما ثم في ما وراء جبال الألب، وتعرف فيها على كثيرين من أعلام عصره، واتخذ بطلا للكتاب القائد القدير " سيزار بورجيا " ابن البابا ألكسندر السادس .. أوحى بالكتاب آمال ماكيافيلي في أمة إيطالية موحدة ارتأى فيها صالح الدولة، ولكن على مستويات أخلاقية تتعامل تعاملًا مختلفًا مع الحياة، فحواها أنه من اللائق بالسياسي أن يقوم لصالح الشعب (!؟) بأعمال العنف والخداع التي تستحق اللوم وتوصف في المعاملات الخاصة بالإجرام !

على مدار القرون الأربعة ظل كتاب " الأمير " ضروريا للطغاة، لا تعلمهم فقط كيف يحصلون على السلطة، ولكن أيضا كيف يحتفظون بها .. ولكن كيف ؟! تختلف النصائح أو الوصايا تبعا لمناطق الحكم الأصلية أو المحتلة، ولكن تظهر في هذه وتلك معتقدات ماكيافيلي .. طباع الجماهير متقلبة، ومن السهل إغراؤها بقبول أى شيء، وإن صعب ثباتها على هذا الإغراء، لذا فإن من لم يؤمن من الناس طوعا، وجب إجبارهم على الإيمان بالقوة !!

لذلك فالقائد الفذ القوى البأس : "سيزار بورجيا"، يستحق التقريظ والتمجيد .. يقدمه ماكيافيلي كنموذج واجب المحاكاة .. المهم أن يتغلب الحاكم سواء بالقوة أو بالغش، وأن يجعل نفسه محبوبا ومرهوبا في آن واحد . أن يفرض مسيرة الجنود ورءه واحترامهم له، وأن يستأصل شائفة كل من كان ذا قوة أو عقل يمكنانه من إلحاق الأذى به، وأن يكون قاسيا وخيرا في نفس الوقت .. يحطم العسكرية غير الوفية ويخلق بدلها عسكرية جديدة، ويحافظ على صداقة الأمراء وذوى الحول والقوة بطريقة تضمن مساعدتهم إياه .

من المبادئ الماكيافيلية أنه يجب الإسراع بإنزال الأضرار بضربة واحدة، بدلا من الاضطرار إلى تجديد إيقاعها يوميا، وليسهل بعد ذلك

طمأنة عقول الناس واكتسابهم بالمنافع . ولا ينبغي للأمير أو الحاكم أن يجرى أو يعيش كما يجرى الناس ويعيشون . من الضروري له إذا أراد المحافظة على مركزه أن يتعلم كيف يتصرف بشيء آخر غير الطيبة، وأن يستعمل الطيبة أو لا يستعملها حسب مقتضيات الأحوال . ولأنه من المستحيل أن يتحلى الأمير الحاكم بكل المناقب، توجب عليه أن يكون حاذقاً بما فيه الكفاية بحيث يعرف كيف يتحاشى مطالب الرذائل التي تهدد حكمه ! ليس مهماً ماذا تتفق، ولكن الأهم أن تتفق بسخاء مما لا يخصك أو يخص رعاياك .. ما يضررك هو أن تتفق مما يخصك، أما القسوة فهي محمودة ما دامت إحدى وسائل الاحتفاظ باتحاد الرعايا وطاعتهم، فقمع الفتنة بإجراءات فورية أكثر رحمة من ترك الأمور تجرى فى أعنتها، فينتج عن ذلك الاغتصاب وسفك الدماء !

ولكن ماذا هو الأفضل للأمير أو الحاكم، أن يُحَبَّ أكثر مما يُخَاف، أم أن يُخَاف أكثر مما يُحَبَّ ؟. وهذان نقيضان قلما يجتمعان معاً، لذا وجب الاختيار بينهما. من الأكثر أمناً - فيما يقول ماكيافيللى - أن يُخَافَ الأمير أكثر مما يُحَبَّ، إذ من المؤكد أن عموم الناس ناكرون للجميل ومتقالبون وخائنون وجشعون يقفون إلى جانب من فى وسعه أن يغشق عليهم المناقب، ويجافون غيره، وهم على استعداد للتضحية مادام الخطر بعيداً عن التضحية بممتلكاتهم وحياتهم وأولادهم، فإذا جاء وقت الجد أداروا ظهورهم!

أبرز ما استحق الشجب والاحتقار والإدانة فى كتاب " الأمير " - ما ورد بالبَاب (١٨) من أنه وإن كانت المحافظة على الثقة جديرة بالثناء، إلا أن الخداع والنفاق والزور ضرورة مغفورة من أجل الاحتفاظ بالقوة السياسية . ومادام معظم الناس خائبين لا يتقنون، وجب فى المقابل عدم الثقة بهم . والطريقة المثلى أن يمزج الأمير أو الحاكم فى استخدام القوة بين المناسبة للبشر وتلك المناسبة للوحوش، وأن يختار من بين الوحوش الأسد والثعلب، ثم يجب ألا ينسى أن يقوم بنفسه بتوزيع الهدايا والهبات،

وأن يترك للمرعوسين مسؤولية توقيع العقاب أو التصرف في كل ما يثير
عدم الرضا أو الحنق العام .. هنالك سوف تبدو الماكيا فيلية جميلة "
حساء " .. مقبولة مرغوبة في عيون الناس !

من

تَراب (٢٦٠) العارف (٢)

الطريق!

العارف اسم ديوان للشاعر المحامي الأديب الفقيه محمد عبد الله محمد، ديوانه " العارف " الذي منه أغترف، وصفته: "العارف" الذي نهلت منه حياً وراحلاً .. ما قصدته إلا وجدت ما يضيف إليّ، وما طالعت مؤلفاً من مؤلفاته، أو بعضاً من أشعاره - إلا ووجدتني أغوص وراءه في الأعماق، وأحلق معه في السموات ..

طففت في " أحاديث " قصيدته " الدوم " من ديوانه " العارف "، فرأيت في الحديث الثالث يتتبع الإنسان في جريه وراء الدنيا الغرورة، ثم في تأمله في حكمة خلقه والمفارقة المتجلية بين حكمة وتدبير الرب، واضطراب وحمق العبد . فأين قصور الإنسان أمام العلم اللدني، وكيف تكون مناجاته إلى خالقه :

قد دبرَ الربُّ أجزائي بِحِكْمَتِهِ وَسَقَتْ بِالْحُمُقِ أَحْزَائِي وَإِجْمَاعِي
لكلِّ شيءٍ بهذا الكونِ خُطُوْتُهُ وَلَا اِنْتِظَامَ لِأَنْغَامِي وَإِقَاعِي
لَا سَقْفَ فَوْقَ خِيَالِي فِي تَطْلُعِهِ وَلَا حَدُودَ لِإِشْرَافِي وَأَطْمَاعِي
فَكَيْفَ يَمُنَّحُ مِثْلِي قَلْبُهُ سَلَفًا لَمْ يَكْتَمَلْ أَبَدًا بِالْحُبِّ إِقْنَاعِي

* * *

لَا تَدْعَى الْعِلْمَ إِنَّنَا بَشَرٌ لَنَا انْتِبَاهٌ وَإِدْرَاكٌ وَإِلْهَامٌ
وَلَا نَهَابٌ مِنَ الْأَفَاطِ سَطَوْتَهَا فَتُكِّ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ أَصْنَامٌ

(*) المال ٢٠٠٩/٥/١٤

سَكَرَى تَخَاطَبُ نَفْسَانَا فَتَحَسَّبَهَا
تَبَارَكَ الرَّبُّ هَلْ تَحْتَاجُ رُؤْيَتَهُ
حَقِيقَةٌ وَهِيَ أَحْلَامٌ وَالْغَمَامُ
إِلَى فَصِيحٍ وَهَلْ يُخْفِيهِ إِعْجَامُ ؟!

رَبِّى تَقَاتَكَ وَالْعَاصُونَ مُشْكَلَةٌ
نَوْمٌ وَصَحْوٌ وَإِسْفَافٌ وَتَعْلِيَةٌ
هُمْ صَغَارٌ وَأَوْغَاذٌ ذَوُو حَيْلٍ
وَهُمْ جَمِيعاً لَدَى الرَّحْمَنِ فِي كَنَفٍ
جِسْمٌ وَعَقْلٌ وَأَشْبَاحٌ وَأَرْوَاحُ
نَارٌ وَنُورٌ وَأَتْرَاحٌ وَأَفْرَاحُ
وَهُمْ كِبَارٌ لَهُمْ شَأْوٌ وَأَوْضَاحُ
وَلُطْفٌ ذِى اللُّطْفِ غَدَاءٌ وَرَوَاحُ

صَمَمْتُ بَلَابِلُ هَذَا الرُّوضِ مِنْ حَقَبٍ
وَلَا تَبَارَحُ أَيْكَأُ جَفَّ مَعْظَمُهُ
فَهَلْ يَعُودُ لِهَذَا الرُّوضِ نُصْرَتُهُ
وَشَدُو كُلِّ طَيْرٍ الْجَوِّ يَمْلُوهُ
فَلَا تُغْنَى ضِيَا فَجْرِ وَلَا شَفَقُ
وَلَا تَطُوفُ يَنْبِغُ فِيهِ مِنْبِثُوقُ
وَقِظَةُ الْمَاءِ رَقْرَاقُ وَمُنْدَفِيقُ
بِحُبِّ مُنْطَلِقٍ مِنْهَا لِمُنْطَلِقِ ؟

لَقَدْ تَعَيَّنَا مِنَ الْإِنْصَاتِ فِي مَلَلٍ
وَلَمْ نَصَادِفْ كَلَاماً قَطُّ - أَفْتَعْنَا
نِمْنَا وَلَمْ نَكُ أَيقَظاً وَشَجَّعْنَا
بِهِ نُرَدُّ إِيقَاعاً يُخْدِرُنَا
لِذَلِكَ الْجَيْشِ مِنْ شَرَّاحِ مَاضِينَا
بِهِ نَوَاجِهُ دُنْيَانَا وَيُجَدِّدُنَا
عَلَى الْمَنَامِ غَنَاءٌ نَائِمٌ فِينَا
وَيَمْلَأُ النَّوْمُ بِالْأَحْلَامِ وَادِينَا

أَكْبَحُ جِمَاحِكَ مَعْنَى الشَّيْءِ خَارِجُهُ
أَنْتَ الَّذِى تُقَرِّزُ الْمَعْنَى وَتُلْصِقُهُ
هَذِى الْعَيُونُ لَدَى الْغُزْلَانِ خَالِيَةٌ
وَلَيْسَ يَسْنَهُرُ نَجْمٌ فِي الدُّجَى أَبْدَاً
وَلَيْسَ جُورَاهُ جَلَّ الشَّيْءُ أَوْ هَانَا
بِالشَّيْءِ حَسَنَ هَذَا الشَّيْءِ أَوْ شَانَا
مِمَّا تَصَوَّرُ فِيهَا الشَّيْءُ أحياناً
إِلَّا إِذَا كُنْتَ يَا مُسْكِينُ سَهْرَانَا

ماذا تُريدُ ؟ لقد غاصَّتْ منابعُنا
 وذلك الشوكُ فِينَا هل يغيِّرُهُ
 وقلْ في رَوْضِنَا الأندادُ والمطرُ
 تدفقُ الماءُ إنْ يأذنَ به القَدْرُ ؟
 أم نحنُ كالِدومٍ لا يَسْخو بفاكهتهِ
 ولو تتَاهد فيه السَّيْلُ والنَّهْرُ
 ورغمَ هذا فإنَّ اللهَ يملؤُنَا
 إذا تهاَمَسَ صَمْتُ البِيدِ والقَمَرُ

من

تَراب (٢٦١)

الطريق!

زاهد عفيف (٩)
من الزمن البعيد

فى زيارة لعمر بن الخطاب للشام، يتفقد فيها أحوال الرعية ومسار
الولاة، سأل أهل حمص عن رأيهم فى واليهم سعيد بن عامر، فأثثوا عليه،
ولكنهم أفصحوا أنهم يستغربون منه أربعة أشياء لا يجدون لها تفسيراً !
فهو لا يخرج إليهم حتى يتعالى النهار، فسأله عمر عما يؤخره فى
الخروج، فأجابه بأنه ليس لأهله خادم، ولذا فهو يعجن عجين بيته حتى
يختمر، ثم يخبز خبزه، ثم يتوضأ للضحى ويخرج إليهم !

فسأل عمر عن الثانية، فقلل له إن والى لا يجيب أحداً بليل، فاستفسر
منه عمر، فأجابه بأنه قد جعل النهار لهم وجعل الليل لربه .

والثالثة، ماهى: قيل لعمر إن له فى الشهر يومين لا يخرج فيهما ولا
يراه الناس حتى آخر النهار، فطلق ابن عامر يفسر ما غمض من أمر
احتجابه يومين فى الشهر، فهو لا خادم له يغسل ثيابه، ثم هو ما عنده ثياب
يبدلها، فيغسل ثوبه وينتظر حتى يجف ثم يخرج إلى الناس فى آخر النهار .

فسأل عمر عن الرابعة : قال أحدهم : إنه تأخذه الغشية بين الحين
والحين، فسأله عمر عما به حتى تأخذه هذه الغشية، فقال لعمر : تعلم
ياأمير المؤمنين أننى شهدت مصرع خبيب الأنصارى بمكة، وقد بضعت
قريش لحمه وحملوه على جذعه . فقال له عمر : صدقت . فاستأنف ابن
عامر يقول فى أسى : كانوا يقولون له يوماً : أتحب أن محمداً مكانك

وأنت سليم معافى، فكان يجيبهم : والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى،
معى عاقبة الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة .

أضاف سعيد بن عامر : فكلما ذكرت يا أمير المؤمنين ذلك المشهد
الذى رأيته، وأنا يومئذ من المشركين، وتذكرت تركى يومها نصره خبيب،
أرتجف خوفا من عذاب الله .. ويغشاني هذا الذى يغشاني .

* * *

ما ذكرت هذا الموقف بين عمر وعامله النقي العفيف الزاهد إلا وهزى
من الأعماق هذا .. أين نحن من هذا الزمن، ومن هؤلاء الناس؟! أين
ولّى هذا العفاف الزاهد الذى جعل الوالى يخبز عيش بيته بيده، ويغسل
ثوبه الوحيد بنفسه وينتظره حتى يجف، ويمضى الليل قائما فى عبادة ربه،
ثم لا يطوف به طيف ما حدث يوم مصرع خبيب بن عدى، حتى تأخذه
الرعدة ويتغشاه ما يتغشاه ندما على عدم نصرته إياه، وخشية من عذاب
الله.

لا مرأى فى روعة هذه المواقف فى زمانها .

ولكن هل عناصر هذه المواقف الرائعة الأربعة مناسبة بشكلها - ولا
أقصد جوهرها - لتحمل ذات المعنى وذات الأثر فى زماننا؟! لقد كتبت من
سنوات أن قيمة هذه المواقف فى المعنى والجوهر لا فى الشكل
والصورة، فقيم الزهد والعفاف والاستقامة لا تتغير، ولكن قد تتغير الصور
دون أن تفارق هذه القيم . بل قد يعد الالتزام الحرفى بالصورة مجافيا لا
يحقق فى الحاضر ما كان يعنيه ويحققه فى الماضى .

إذا استثنينا العبادة والقيام ليلا لله تعالى، واستثنينا ما كان يتغشى الوالى
حين يذكر مشهد مصرع خبيب، فهو أمر لا حيلة له فيه، فإن " صور "
الزهد فى العجين والخبيز وغسل الثوب وانتظار جفافه لأنه الوحيد، لا
تحمل فى زماننا ذات الأثر، بل قد لا تعد فى باب المكارم المطلوبة .

أجل مطلوب من كل صاحب ولاية ألا يسرف فى الخدم والحشم، أو

فى اقتناء الثياب التى تملأ صفحة الأفق، فذلك إسراف وتفريط يناقض العفاف والزهد فى كل زمان .. ولكن ما استوقفتى، هل يمكن لصاحب ولاية فى زماننا أن يترك قضايا وهموم الناس التى تزامت مع إيقاع العصر على خلاف ما كان فى زمن هؤلاء الراشدين، ويجلس فى بيته ليعجن ويخبز ويغسل وينتظر جفاف ثوبه الوحيد حتى يلبسه ويخرج إلى الناس؟! كانت هذه ولا شك مكرمة رائعة فى زمن الراشدين، حيث كانت بساطة الحياة وقلة المشكلات تسمح بهذه الصور المبهرة للعفاف والزهد دون أن تتأثر مصالح الرعية أو تتأخر واجبات رعاية الأحوال، بيد أن اليوم لم يعد فى أحواله ومشاكله كالأمس، وما كان بوسع الناس انتظاره فى الزمن البعيد لم يعد ممكنا احتماله فى زحام ومعضلات وأحوال الحاضر . الأجدى للناس أن يكون للحاكم مصدر - معقول - للنهوض بأعمال بيته، وثياب كافية - معقولة - تتيح له أن يكون بين الناس قائما برعاية شئونهم، فهذا أجدى وأنفع لهم من الصورة البعيدة الرائعة التى لم يعد تراحم مشاكل العصر يسمح بتكرارها .

ما أردت أن أقوله إن " القيم " باقية خالدة، ولكن " الصور " المعبرة عنها متغيرة تبعا لتغير ظروف وأحوال واحتياجات الزمان . ومن الوهم أن نتخيل أننا يمكن أن نسترد الماضى بكل ما فيه، وأن نزهو بتطبيقه حرفيا كما كان ! من الواجب نعم أن يبقى التزامنا بالقيم، ولكن هناك من الصور الرائعة فى زمانها - ما قد يعد التزامها الآن ضررا محققا وابتعاداً لا شك فيه عن مقتضيات العقل والحكمة !

من

تراب (٢٦٢) العقد ومجانية الثقافة (٥)

الطريق!

حدثتك سلفا عن مجانية الثقافة التي تأكلت في زماننا، وعن القروش المعدودة القليلة التي كنا نفتتئ بها روائع وأمهات الكتب فصارت الآن بعشرات الجنيهات وجاوزت أحيانا حدود المائة . وباعتباري من هوة التفتيش عن الكتب، ومعجبا حتى النخاع بسيرة وعقل وفكر وأدب وإنتاج العقد، وجدنتي أتابع دليلا وقع بيدي بالصدفة لأعداد كتاب الهلال منذ بدايته عام ١٩٥١ وحتى عام ١٩٩٢، وتراوح سعره في هذه الحقبة بين (٨) و(١٠) قروش، وقد لفتني حضور العقد الكثيف اللافت منذ أول عدد وعبر جميع السنوات، أثر فيها العقد أن يتيح كتبه الضافية للقارئ بقروش زهيدة دون أن تجذبه إغراءات المكاسب التي قد توفرها طبعات أو دور نشر أخرى .

استفتح كتاب الهلال أول أعداده في يونيو ١٩٥١ بكتاب : " عبقرية محمد " للأستاذ عباس العقد، وقدم له بشهر سبتمبر من نفس العام (١٩٥١) كتاب : " أبو الشهداء "، ومنذ ذلك التاريخ لم يمر عام دون أن تحمل إصدارات كتاب الهلال عددا أو أكثر من مؤلفات عباس العقد . في فبراير ١٩٥٢ : سعد زغلول . زعيم الثورة، وفي يونيو من ذات العام (١٩٥٢) " عبقرية خالد "، ولم ينصرم عام ١٩٥٢ دون أن يقدم كتاب الهلال المؤلف الثالث للعقد : " القائد الأعظم محمد على جناح " .

(٥) المال ١٩/٥/٢٠٠٩

وفى عام ١٩٥٣ قدم العقاد لكتاب الهلال : " عبقرية عمر"، و
 "قائمة الزهراء والفاطميون"، وفى عام ١٩٥٤ قدم كتابين آخرين : "نو
 للتورين - عثمان بن عفان"، و كتاب : " الله ". وقدم فى عام ١٩٥٥
 كتابين أيضا : " مطلع النور " فى مقدمات وآيات النبوة المحمدية، و
 عبقرية الصديق" (أكتوبر ١٩٥٥). وشهد عام ١٩٥٦، تقديم كتاب الهلال
 لربعة كتب لعباس العقاد : " معاوية بن أبى سفيان"،
 و " جحا الضاحك المضحك"، و " عبقرية الإمام على"، و " الصديقة بنت
 الصديق".

وقدم فى عام ١٩٥٧ : " لا شيوعية ولا استعمار"، ثم قدم فى عام
 ١٩٥٨ ثلاثة كتب لكتاب الهلال : " حياة المسيح" (فى يناير)،
 و "سارة" - رواية (فى مايو)، و " إبليس" (فى أغسطس)، وفى عام
 ١٩٥٩ قدم فى أكتوبر كتابه : " المرأة فى القرآن الكريم"، وقدم كتابين
 عام ١٩٦٠ : " الإسلام فى القرن العشرين"، و " أبو نواس الحسن بن
 هانى".

وأعاد كتاب الهلال فى فبراير ١٩٦١ طبع كتابه : " عبقرية الإمام على
 "، وأخرج له فى سبتمبر من نفس العام كتابه اللافت : " الإنسان فى القرآن
 الكريم"، وقدم فى مايو عام ١٩٦٢ كتابه الضافى : " الفلسفة القرآنية"،
 وفى عام ١٩٦٣ كتاب " الشيوعية والإنسانية"، ثم كتاب : " رجال
 عرفتهم"، وفى عام ١٩٦٤ نشر له كتاب الهلال كتابه " أنا" - والعنوان
 من اختيار الأستاذ طاهر الطناحى الذى جمع فيه مقالات العقاد عن سيرته
 وأسلوبه فى عقود حياته المتتابعة، ثم نشر له " حياة قلم" فى ديسمبر
 ١٩٦٤.

وفى عام ١٩٦٥ قدم العقاد لكتاب الهلال : " حقائق الإسلام وأباطيل
 خصومه" كتبه بناء على طلب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ونشر
 بعدد أبريل ١٩٦٥، ثم قدم فى عام ١٩٦٦ كتاب : " ما يقال عن الإسلام
 "، وأعاد كتاب الهلال فى مارس ١٩٦٧ طبع كتابه : " إبليس"، ثم كتابه "

حياة المسيح " فى يناير ١٩٦٨، ثم كتابه : " الله " فى يونيو ١٩٦٨، ثم " مطلع النور " فى ديسمبر من نفس العام .

وفى مطلع ١٩٦٩ نشر كتاب الهلال بعدد يناير الكتاب الفريد للعقاد عن الشاعر " ابن الرومى "، وأعاد فى نوفمبر من نفس العام طبع كتابه : " الحسين أبو الشهداء "، وفى عام ١٩٧٠ أعاد كتاب الهلال فى مارس نشر كتابه : " الفلسفة القرآنية "، ونشر له فى نوفمبر كتاب : " الإسلام دعوة عالمية " .

ظل العقاد وفيا لتقديم كتبه إلى كتاب الهلال منذ بداية السلسلة وطوال حياته، واستمر كتاب الهلال فى تكملة نشر المتبقى بعد وفاته فى منتصف الستينيات، وأعاد فى أغسطس ١٩٨٨، بمناسبة ذكرى ثورة ١٩١٩ نشر كتابه : " سعد زغلول زعيم الثورة " .

هذه شهادة للعقاد على اهتمامه بإتاحة مؤلفاته بقروش زهيدة .. ليعبر بلا جلبة ولا استعراض عن فهم حقيقى لرسالة الثقافة، والابتعاد بمجانيته عن أن تكون وسيلة لجنى الأرباح . الالفت أن العقاد فعل ذلك رغم أنه لم يكن له مصدر للإعاشة غير الكتابة، وباع مكتبته الخاصة أكثر من مرة لضيق الحاجة . هذه تحية متواضعة لعملاق ملأ حياتنا فكرا وثقافة ونورا .

من

نراب (٢٦٣) حصاد لويس عوض (٩)

الطريق!

لا يكاد يمضى شهر إلا وترى طبعات جديدة لمؤلفات توفيق الحكيم، والعقاد، وطه حسين، وهيكمل، ونجيب محفوظ . لا أدرى لماذا انقطعت إعادة طبع هيئة الكتاب لمجموعة مؤلفات يحيى حقى بعد أن نفدت من سنوات، وبرغم كثرة الطلب عليها !

ولكن الغريب الأدهش، الذى تدور حوله الأحاديث ومعها الاتهامات من وقت لآخر، هو انقطاع نشر أو إعادة نشر مؤلفات الدكتور لويس عوض منذ وفاته فى سبتمبر ١٩٨٩ . هذا الانقطاع أيا كانت مبرراته أو مقاصده أو تصفياته، هو حجب لرأف وافر العطاء ظلت ماكينته تفرز بغزارة وتميز على مدار نحو ستين عاما، منذ محاولاته الشعرية الأولى وكتاباته منذ تخرج فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة فى الثلاثينيات . ولا يختلف أحد على أن الدكتور لويس عوض أديب وناقـد ومفكر ومترجم ومبدع مصرى كبير، ملأ الحياة الأدبية والنقدية والفكرية والثقافية بمؤلفات عديدة، أثار بعضها - ولا يزال يثير - الجدل والمساجلات التى ملأت الحياة الفكرية خصوبة .. منها كتابه : " مقدمة فى فقه اللغة العربية " الذى صودر ثم أبيع نشره بعد سنوات، والمساجلات التى دارت بينه وبين الأستاذ محمود شاكر على مقالاته التى نشرها بعنوان : " على هامش الغفران " والتى جمعها فى كتاب الهلال فى أبريل ١٩٦٦ - وتلك التى تناولتها أقلام عديدة حول كتابه عن جمال الدين الأفغانى .

(٩) المال ٢٠٠٩/٥/٢٠

على أن الدكتور لويس عوض ظل صاحب وجود شامخ لافقت في حياتنا الفكرية والنقدية والثقافية، ولازلت أذكر وأعود من وقت لآخر، لما أفرزه وكتبه لصحيفة الأهرام من واقع الرحلات السنوية التي كانت الجريدة توفده فيها إلى أوروبا لمتابعة أحدث الحركات الأدبية والمسرحية والفلسفية والثقافية، وضممتها من بعد عدة كتب، منها : " الفنون والجنون في أوروبا ١٩٦٩ " - كتاب الهلال يناير (١٩٧٠) .. أطلعنا بالمقالات المجموعة فيه، ومن قبلها بالأهرام، على ما أتيح له مشاهدته من مسرحيات بلغت زهاء (١٥) مسرحية شاهدها في لندن وباريس في رحلته السنوية (مايو ١٩٦٩) التي كان يوفده الأهرام فيها لينقل إلينا ما تموج به أوروبا من حركة مسرحية .

في هذا الكتاب الذي أتخذته مثلاً لما كان يقدمه لويس عوض دون سواه، يعرض لويس عوض كيف استقبل رحلته الرابعة إلى أوروبا منذ انضم إلى أسرة الأهرام من ثماني سنوات . كانت الأولى في صيف ١٩٦٣، والثانية في صيف ١٩٦٤ - حين شهد فيها مهرجان شكسبير وكان مادة كتابه " البحث عن شكسبير "، والثالثة في صيف ١٩٦٦ حين دعى لمؤتمر جامعة لندن للتحديث عن التطورات الأدبية والثقافية في مصر ١٩٥٢ . لا يخفى لويس عوض حفاوته بهذه الرحلة الرابعة، ويطلق عليها : " رحلة الربيع لتجفيف الدموع " - فقد جاءت عام ١٩٦٩ بعد انقطاع فرضته محنة الوطن في يونيو ١٩٦٧ .

في كتابه : " الفنون والجنون في أوروبا ١٩٦٩ " .. عرض الدكتور لويس عوض زهاء (١٥) مسرحية شاهدها على مسارح لندن وباريس لينقلها لنا، وكلها تمثل التجارب الجديدة في الفنون المسرحية منها ما شاهده من نماذج عديدة للمسرح السياسي ممثلة في " صعود أرثورو دي " لبريخت، و " الحرية والسلام " في قهوة سنيفل " حول الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩/١٩٤٤) .. التي ألفها " فوري لاني " .. راسماً فيها صورة من أروع ما خطته يد فنان في وصف بشاعة وضعف وعجز الإنسان عن أن يتجاوز ذاته . ومسرحية " آلام الجنرال فرانكو " لأرمان جاتي،

ومسرحية : " تحول لوزيزيتانيا " لبيتر فايس، و " هارديان السابع " لبيتر لوك، وغيرها .

شاهد لويس عوض ونقل أيضاً نماذج من المسرح الجنسى، وعددا من المسرحيات التقليدية، ولكنه عرج إلى دراسة هامة عن ثورة الشباب الأوروبى والأمريكى التى تبلورت فى حركة " الهيبز " وما نبع عنها من فن وفكر وسلوك.

ما بين أول أعماله المعروفة: " مذكرات طالب بعثة "، وكتبه بالعامية فى محاولة جريئة، وآخر ما كتبه : " أوراق العمر، سنوات التكوين " .. وفيها سيرته الذاتية فى جراءة ندرت فى كتابة المذكرات .. قدم الدكتور لويس عوض عشرات الأعمال المتميزة - دعنى أذكر لك منها، بالإضافة إلى ما ذكرته عرضاً : " فن الشعر " لهواراس، و " برومتيوس طليقا " للشاعر شلى، و " فن الأدب الإنجليزى الحديث "، و " خاب سعى العشاق " لشكسبير، و " دراسات فى أدبنا الحديث "، و " مسرحية الراهب "، و " المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث "، و " الاشتراكية والأدب "، و " نصوص النقد الأدبى عند اليونان "، و " المسرح العالمى "، و " الثورة والأدب "، و " أجاممنون " لأسخيلوس، و " ثلاثية أوريسست "، و " دراسات عربية وغربية "، و " تاريخ الفكر المصرى الحديث " و " دراسات أوروبية "، و " الحرية ونقد الحرية "، و " ثقافتنا فى مفترق الطرق "، و " أقنعة الناصرية السبعة "، و " ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوروبية "، " دراسات فى الحضارة " وغيرها .

فهل يحتمل ما نحن فيه من جذب وإجذاب، ومن غشاء وتفاهات، أن نعطي ظهورنا أيا كانت المعاذير، لهذا الإنتاج الضخم المتميز، ونحرم أجيالاً متتالية من الإطلال على المشروع التنويرى رفيع المستوى الذى نهض عليه وقدمه الأستاذ الدكتور لويس عوض فى صبر وفیض وتمكن وأناة ؟!

من

تراب (٢٦٤) الدوم والحديث الأول (١)

الطريق!

ما زلت أطوف معك فى رحاب أشعار المفكر الأديب المحامى الشاعر
محمد عبد الله محمد، إحدى فلكات القرن الماضى . نقلت إليك من قبل
بعضاً من الحديث الثالث من قصيدة "الدوم" فى ديوانه : "العارف" ..
ولكنى أعود بك اليوم إلى الحديث الأول فى هذه القصيدة التى تغرينا
بالتحليق معه:-

ماذا تريدُ لقد غاضتْ منابغنا وَقَلْ فى أَرْضِنَا الأنداءُ والمطرُ
وذلك الشؤكُ فينا هل يُغيرُهُ تدفُقُ الماءِ إنْ يَأْذَنَ بهِ القدرُ
أم نحن كالذومِ لا يَسْخُو بفاكهةٍ ولو تَنَاهَدَ فِيهِ السيلُ والنَهْرُ

* * *

يا مَنْ كَتَبْتَ بطاقاتٍ لِيَحْمِلَهَا مِنْ أَوَّلِ الدهرِ شاراتٌ وذراتُ
تخاطبُ الكونَ لا الأفهامَ أَحْرَفُهَا فتملأُ الكونَ بالأحداثِ عِلَاتُ
إذا أَرَدْنَا فما معنى إِرَادَتِنَا وَمَنْ يخالِفُ ما تحوى البطاقاتُ
هذى الحماقةُ فينا وحدنا أبداً فهل تُقَرِّبُنَا مِنْكَ الحماقاتُ ؟

* * *

يعدو إليه فؤادى لائذاً وجِلاً ما أَكْبَرَ الكونَ بَلْ ما أَصْغَرَ الأَمَلُ
يضيع فى رَحْبِهِ صوتى وَيَعْبُرُ بى بلا اكتراثٍ ويطوى سِيرُهُ الأَجَلُ

(*) المال ٢١/٥/٢٠٠٩

فَارْ بِجُحْرِ رَأَى قَصْرًا فَازْعَجَهُ ضَالَّةُ الْفَارِ إِنْ وَافَى أَوْ ارْتَحَلَ
يَا مَنْ جَعَلْتُمْ لَهُ عَقْلًا لِيَهْدِيَهُ تَسَانَدَ الْمَهْدَى وَالْهَادَى وَمَا وَصَلَ

* * *

أَخْفَى النَّهَارُ جَلَالَ الْكَوْنِ وَاعْتَقَلَتْ فِي ضَوْئِهِ - الْعَيْنُ إِغْمَاضًا وَإِنْصَارًا
وَعَرَّهَا لَعِبُ الْأَلْوَانِ فَانْصَرَفَتْ بِالْقَلْبِ تَلْهِيهَ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا
تَبَارَكَ اللَّيْلُ فِي نَفْسٍ تَرَاقِيئُهُ رَعَتْ نَجُومًا بِدَاخِلِهَا وَأَقْمَارًا
وَشَاهَدَتْ مَطْلَعَ الْأَحْلَامِ وَانْتَشَلَتْ مِنْ لُجَّةِ اللَّيْلِ أَسْرَارًا وَأَخْبَارًا

* * *

هَلَّا احْتَرَمْنَا وَقَارَ الصَّمْتِ أَوْ خَجَلَتْ مِنْ هَيْبَةِ اللَّيْلِ أَصْوَاتٌ وَأَصْوَاءُ
فَطَالَمَا نَسِيتُ أَرْوَاحَهَا نَسَمٌ وَأَعْرَضَتْ عَنْ نَدَاءِ الْأَصْلِ أَجْزَاءُ
تَوَقَّعَتْ قَلْقَ الْعَصْفُورِ خِفَّتُهُ وَكَمْ يَطِيرُ رَذَاذًا فِي الْهَوَا الْمَاءُ
وَذَلِكَ الزَّهْرُ أَيْدَى الرِّيحِ تَقَطُّفُهُ لَا يَعْرِفُ الزَّهْرُ أَشْمَالَ وَنَكْبَاءُ

* * *

خَلَا فَوَازِكُ إِلَّا مِنْ شَوَاغِلِهِ خَلَا مِنَ الْوُدِّ وَالْإِنْسَانِ وَاللهِ
الْكِبَرُ وَالْخَوْفُ يَحْتَاطَانِ وَحَدَّثَتْهُ تَقَاسَمًا الْبَاقِي مِنْ إِيْمَانِهِ الْوَاهِي
قَدْ سَاءَ رَأْيُكَ فِي الدُّنْيَا وَمَسْلَكُهَا مَذْكَانُ فِكْرِكَ فِيهَا الْأَمْرَ الْنَاهِي
إِنْ تَشْكُ مِنْ صَدَأِ الدُّنْيَا فَمَعْظَمُهُ صَدَى شَوَاغِلِ قَلْبٍ مُغْلَقٍ سَاهِي

* * *

مَلَأَ الْحَصَى قَلْبَكَ الْقَاسِي وَأَغْلَقَهُ يَا مَنْ يَفْضَلُ أَفْكَارًا عَلَى النَّاسِ
تُجِيزُ حَرَقَ الْقُرَى نَشْرًا لِمَعْتَقِدٍ وَفِي كَرَامَةٍ جَنْسٍ قَتَلَ أَجْنَاسِ
مَنْ لَا يَبَالِي إِذَا أَرَاؤُهُ نَجَحَتْ مِنْ أَيْ بُؤْسٍ أَتَاهَا النَّجْحُ أَوْ بَاسِ
تِلْكَ الْجَسَارَةُ فِيهَا الْخَوْفُ مَصْدَرُهَا بِهِمَا تَقَايُضَ إِفْلَاسٍ بِإِفْلَاسِ

يَا مَنْ هُوَ الْحَيُّ وَالْأَحْيَاءُ نَفَحَتْهُ . من راحةِ الأُمِّ لَا مِنْ مَخْلَبِ الضَّارِي
 قُدُسُ الْحَيَاةِ أَحَالَتَهُ تَفَاهُتَتْ . إِلَى مَجَازِرِ آرَاءِ وَأَفْكَارِ
 كَمْ يُسْتَفَكُّ الدَّمُ فِي تَقْسِيرِ مُجْتَهِدٍ . وَفِي مَطَالِبِ وَهْمِ سَائِدِ سَارِي
 كَمْ دَيْسَ أَثْمَنُ مَا فِي الْخُلُقِ قَاطِبَةٌ . وَهَانَ أَفْضَلُ مَا قَدْ صَاغَهُ الْبَارِي

من

تراب (٢٦٥) صح النوم (٢)

الطريق!

حملت صحف الجمعة ٢٢/٥/٢٠٠٩، خبراً عن مطالبة تأخرت أكثر من نصف قرن، فقالت الصحف إن مصر طلبت رسمياً من بريطانيا "المساهمة" بشكل فعال وحقيقى فى الخطة القومية المصرية لتطهير الساحل الشمالى الغربى من الألغام، وأن وزيرة التعاون الدولى أكدت خلال لقائها أمس الخميس بيل راميل وزير الدولة للشئون الخارجية أن بريطانيا طرف أساسى فى الحرب العالمية الثانية ومسئولة عن زرع ما يزيد على ٦٠% من إجمالى الألغام فى المنطقة التى تمثل ربع مساحة مصر الكلية وتزخر بموارد تنمية هائلة غير مستغلة !

ولست أدرى لماذا تقتصر المطالبة التى تأخرت أكثر من نصف قرن على مجرد "المساهمة" فى خطة التطهير، ولا لماذا تقتصر على انجلترا دون دولتى المحور ألمانيا وإيطاليا اللتين خاضتا وبريطانيا حرب شمال أفريقيا ما بين العلمين وإلى آخر الحدود المصرية مع ليبيا؟! وتبادلت جيوشهما فى الكر والفر الذى يعرفه الدارسون لمجريات هذه الحرب التى لم تكن لمصر ناقة فيها ولا جمل — تبادلت زرع الألغام فى الساحل الشمالى المصرى، فإذا كانت إنجلترا مسئولة عن زرع ما يزيد على ٦٠% من إجمالى هذه الألغام، فإن ألمانيا وإيطاليا مسئولتان عن زرع ٤٠% من حقول هذه الألغام التى لا زالت تحمل الموت فى قلب قطعة غالية من الأراضى المصرية !

(٥) المال ٢٥/٥/٢٠٠٩

والاقتصار على إنجلترا دون ألمانيا وإيطاليا تفريط غير مقبول، ففى حين يعلم الجميع أن ألمانيا دفعت مليارات المليارات من التعويضات لإسرائيل رغم أنها لا تحمل تقويضاً ممن طالتهم ممارسات ومذابح ألمانيا النازية، كما أن الاقتصار على طلب المساهمة دون تحمل كافة التكاليف بالإضافة للتعويضات، هو بدوره تفريط غير مقبول . إن إنجلترا وألمانيا وإيطاليا مسئولون جميعاً وبالتضامن فيما بينهم طبقاً لقواعد المسؤولية، عن رفع هذه الألغام، وعن التحمل بكافة تكاليف رفعها، وعن تعويض مصر عن الأضرار التى لحقت وتلحق بها من جراء وجود هذه الألغام فى بطن الأراضى المصرية البالغة ربع مساحتها لأكثر من نصف قرن .

وتعرف وزارة التعاون الدولى، كما تعرف وزارة الخارجية، والحكومة المصرية بعامّة، أن عالم اليوم يموج بمبادئ وبممارسات جديدة للمسؤولية الدولية وفرض أحكامها على العالم حتى بلغت حد تحميل ليبيا بتعويضات حادث لوكيربى دون حصرها فى الفاعلين أو المسئولين الفعليين عنه، وبلغت حد غزو وتدمير أفغانستان برمتها تفتيشاً عن أفراد ينتمون إلى تنظيم القاعدة، وحد غزو وتدمير العراق بحثاً عن أسلحة دمار شامل استبان أنه لا وجود لها . وذات النظرية التى يستريح بها الأقوياء هذه الأعمال، هى التى تنطلق منها فى عالم اليوم والقانون الدولى مسؤولية الدول عن تعويض أضرار وضحايا الحروب .

والحرب التى دارت فى الشمال الأفريقى إبان الحرب العالمية الثانية. بين إنجلترا من ناحية ودولتى المحور ألمانيا وإيطاليا من ناحية أخرى، هى حرب غريبة عن مصر وإن جرت جبرا على أراضيها، فمصر فى ذلك الأوان كانت محتلة، وكانت إنجلترا هى دولة الاحتلال المالكة لزام ومقادير القرار والفعل، ولم تكن لمصر مصلحة ولا هدف ولا ناقة فى هذه الحرب التى فرضت فرضاً على أراضيها بين المتصارعين من دول الحلفاء والمحور، وقد تأخر طويلاً إلزام هذه الدول بالمساهمة فى الخطة القومية المصرية لتطهير هذه الألغام عن أراضيها، بل الاضطلاع الكامل

بأعمال وكافة تكاليف هذا التطهير، مشمولة بتعويضات كافية عما لحق بمصر من أضرار جسيمة متراكمة على مدار أكثر من نصف قرن، فإن لم يتراض الأطراف على تعويض مصر بالقدر الملائم لما أصابها من ضرر وما فاتها من كسب بتعطيل مشروعاتها على هذه القطعة الغالية من أراضيها، وجب تصعيد الأمر إلى منظمات المجتمع الدولي ومحكمة العدل الدولية بل وإلى المحكمة الجنائية الدولية لإقامة المسؤولية وفرض كفالة التعويض المستحق لمصر حكومة وشعبا على ما لحقها ويلحقها من أضرار جسيمة، ويوقف أى مشروعات لبناء العمار والمشروعات فى هذه القطعة الغالية من أرض مصر !

من

تراب (٢٦٦) باسمك اللهم (٢)

الطريق!

باسمك اللهم .. نفتح العيون هذا الصباح الندى.. ونفتح القلوب..
ونتلمى فى عظيم خلقك .. نتأمل يا إلهى فى كونك الفسيح الذى أبدعت..
وفى خلقك العظيم الذى صورت .. ونرنو إلى دلائل إعجازك، وبراهين
وحدانيتك، ونذكرك يا ربنا ذكر العارفين بك، المهتدين إليك، المفوضين
أمورهم لك .. فاهدنا يا إلهى إلى جميل ذكرك وحسن عبادتك والتسبيح
والحمد لك .. واذكرنا يا ربنا فيمن تذكرهم عندك من خير عبادك ..
واكتبنا فيمن تحف بهم ملائكتك وتغشاهم رحمتك.. يا رحمن.. يا رحيم ..

* * *

سبحانك القائل : " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ " .

* * *

باسمك اللهم .. ننضو عن أنفسنا هنات الأمس، ونروم صلاحاً يُجنبنا
الزلل والخطأ .. فافتح لنا يا إلهى أبواب غفرانك ورحمتك، وامسح
بكرمك أخطاءنا، وتب علينا .. إنك أنت التواب الرحيم ... وافتح اللهم لنا
صفحة جديدة عندك، وخذ بيدنا لنملأها بالبر والخير والمعروف ..

واعصمنا من الأخطاء والزلات .. ما كان منها بقصد وبغير قصد ..
والحقنا يا إلهي بالصالحين .. الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .. يا الله
.. يا تواب .. يا غفور .. يا رحمن .. يا رحيم ..

* * *

يقول الغفور الرحيم : " وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غُفُورًا رَحِيمًا "

* * *

اللهم .. اجعل لنا من كل هم فرجاً .. ومن كل ضيق مخرجاً .. اللهم
ويسر لنا طريقنا وهيئ لنا أمورنا وأفضّ علينا بفضلك وارزقنا من جزيل
نعمك .. اللهم واجعلنا من أصحاب المعروف، دعاة خير، وحلّنا بكريم
السجايا والصفات .. اللهم وافتح قلوبنا للخيرات، وثبت جناننا، واجعل
أفئدتنا على صراط واحد .. يهتدى بهديك، ويروم رضاك .. اللهم واشدد
على قلوبنا لتتأخى على طريقك، وتكاتف فى سعينا، وتنازر بتماسكنا
واعتصامنا بحبلك ..

* * *

باسمك اللهم .. نبدأ يومنا، ونتابع سيرنا، ونجرب فيه على رزقنا ..
فارزقنا يا كريم من الطيبات، واقطع بيننا وبين الخبث والخبائث، فأنت
سبحانك طيب لا تقبل إلا طيباً .. وبارك اللهم لنا، وقنعنا بما قسمت لنا،
وقنا شح أنفسنا، وافتح بيننا وبين أبواب المعروف، لنحسن بدنينا آخرتنا
وننقل موازيننا ..

إلهي يا ذا الجلال والإكرام .. عليك فى يومنا توكلنا، وإليك أنبنا،
وإليك المصير ..

من

تراب (٢٦٧) الساذج الخالد (*)

الطريق!

هذا العنوان هو لمقال كتبه "مالكولم فوجان" ونشرته الريدرز دايجست منذ أكثر من خمسين عاما، عن فنان رائع ظلمه معاصروه فلم ييأس ولم يتوقف حتى احتلت أعماله ركنا في سجلات الأعمال الفنية الخالدة . ولكن لماذا هو ساذج ؟ هذه فيما يبدو كانت نظرة الناس .. فالرجل بسيط يعيش في مسكن من غرفة واحدة، بأحد أحياء باريس الفقيرة، لا تبدو عليه معالم النجابة، ولا فيه أى ميل للاستعراض، فقد وضع نفسه فى بساطة فى خدمة جيرانه، يكتب لهم الخطابات لمن لا يستطيعون الكتابة، ويعلم البلاغة والعزف على الكمان والماندولين للأطفال والكبار أحيانا، ولا يكاد يقتنص لنفسه إلا ساعات قليلة متباعدة يقضيها فى رسم صور لم تجد لها سوقا فى ذلك الأوان .

الساذج الخالد هو هنرى روسو .. مخلوق رقيق، طيب القلب، برىء مع الناس فى معاملاته، ولم يشعر بالضيق حين استقبل الناس بالضحك لوحته : " العجربة النائمة " .. ظن ضحكهم تعبيرا عن الرضا والسرور ولم تمض سنوات، إلا ولم يعد أحد يضحك على صور روسو التى أخذت تتابع فى تواصل وتميز لاقت، حتى عادت صورته الشهيرة : "العجربة النائمة " - فنالت تقديرا هائلا واعتبرت إحدى الدرر فى متحف نيويورك للفن الحديث الذى ابتاعها من هنرى روسو بمبلغ (٢٥) ألف دولار .

(*) المال ٢٧/٥/٢٠٠٩

هذا الثمن كان رقما فلكيا فى حياة روسو .. فمئذ ولد فى عام ١٨٤٤
لسمكرى فقير .. كان من النادر أن يكون بحوزته أكثر من ١٢٥ فرنكا ..
وعاش حياة عسيرة وعمل بأعمال بسيطة واشترك فى الحرب الفرنسية
البروسية، ولولا شغفه العميق بفن الرسم، لما استطاع أن يفسح له أى مكان
أو نصيب فى حياته .. عندما بلغ الأربعين قرر أن يعود إلى الرسم بانتظام
وإصرار، وأخذ يرسم فى حرص عنيد ودقة شديدة، لا يصرفه انعدام أو
نفاة المقابل، ولا يؤنسه أن يبيع لوحة أنفق فى رسمها شهرين أو ثلاثة
مقابل (٣٥) أو (٤٠) فرنكا لا تكفى ثمن اللوحة الخام والألوان، ولكن
الموهبة كانت تدفعه ومعها إصراره واقتناعه بأن يفعل شيئا ذا قيمة .

هذا الساذج الخالد، دفعته موهبته إلى الجلوس يوميا فى مرسومه من
الفجر حتى حلول المساء، وفى هذا الهدوء الذى يشبه هدوء القديسين أبدع
روسو عشرات اللوحات الرائعة .. " مكتب تحصيل المكوس " و " ضفاف
نهر الأوبز "، و " الصيف والمرعى " .. وفى سنواته الأخيرة بلغ الغاية
فقدم فيها سلسلة رائعة من مشاهد الغابة .

اللافت أن هذا الفنان الأصيل احتل فى صبر تجاهل الناس الذين ظلوا
لوقت طويل ينظرون إليه على أنه أصغر من أن يكون فنانا متمكنا، وربما
ظل بعضهم ينظرون إلى رسمه باستخفاف حتى بعد أن بدأ النقاد والخبراء
يلتفتون إليه ويتوافقون على مرسومه .

ومع ذلك لم تفارق البراءة ولا الرضا - هذا الفنان المبدع، وظلت
ماكينة موهبته تفرز بلا كلل إلى أن مات سنة ١٩١٠ لينفن بمدافن الفقراء
خارج باريس، ولكن شهد له قبل أن يموت الفنان الكبير بيكاسو، الذى أقام
قبل وفاة روسو بعامين - مأدبة تكريم دعا إليها جميع الفنانين المحدثين فى
باريس للاحتفال به .

فى البساطة تكمن العظمة، وفى العزيمة والإصرار يكمن سر النجاح .. هذا إنسان فنان استخف به المحيط فلم ييأس، وعاندته الظروف فلم يستسلم، وآمن بأن لديه ما يقدمه ففعل، فلم تتطو صفحة حياته بموته، بل ظلت أعماله تزين المتاحف الفنية دليلاً على أن المواهب أبداً لا تموت !

من

تراب (٢٦٨) أيهما المسئول ؟ (٢)

الطريق!

أيهما المسئول : المجرم أم المجتمع ؟ سؤال قديم، يعرض له البسطاء والعوام، مثلما يعرض له المنقون وتعرض له كافة نظريات الدفاع الاجتماعي الحديث، وما يدور فيها حول تفريد المسؤولية أو العقاب !

ولا أعتقد أن أحداً يملك الإجابة الحاسمة عن هذا التساؤل القديم الجديد .. فالفرد والمجتمع متقابلان، يتأوبان التأثير والتأثير، فلا يوجد فرد يخلو من تأثير ما من المجتمع بعامة ومن محيطه بخاصة، ولا يوجد مجتمع معدوم التأثير إيجابا وسلبا على أفرادِهِ .

ومن المسلم به أيضا أن أحداً لا يملك ميزانا حساسا يوازن به بين مقدار تأثير أو تأثير هذا بذاك، أو العكس .. فالمسألة مركبة وملآنة بتفاصيل وتضاعيف وعوامل مشتركة ومتقابلة ومتنازعة لا يملك أحد مفاتيحها، ولا يملك قياساً يمكن أن يقيس به كلاً منها، ناهيك عن أن يستخلص قياساً عاماً يزن بمقتضاه من المسئول : المجرم أم المجتمع !

وكثيراً ما تكتنف هذه الصعوبة، قضية مثارة من ألوف السنين، هل الإنسان مجبر مسير مفروض عليه قدره لا فكاك له منه، فلا يكون من ثم مسئولاً عما يصدر عنه أو يفرط منه، سيما وخلقته ليست صناعته وإنما خلق وولد بها، أم أنه مخير يملك عقله ومعه إرادته وقدرته على أن يميز بين الخير والشر وبين الصواب والخطأ ؟!

وأيضاً سيظل الحوار حول هذه القضية دائراً مثاراً لن يتوقف، لأن الواقع أن الوجهين متقابلان، فلا الإنسان مجبر مسير في كل أمره، ولا هو مختار مريد لكل ما يأتيه أو يصدر عنه .. هو في الغالب مزيج أو خليط من هذا وذلك، ومن المحال على الموازين البشرية إلا في حالة العامة العقلية التي تعدم المسؤولية، التعرف على قدر الجبر أو قدر الاختيار في موقف إنسان ما من أمر أو فعل ما .. والعدالة ليس بوسعها أن تقف عاجزة إزاء هذه الحيرة، فالموازين الدقيقة التي تهتدى للحق المطلق هي لله تعالى وحده جل شأنه، وموازينا البشرية مضطرة إلى التسليم بالنسبية، ومحاولة التعرف على ميزان لا ينفرط به نظام المجتمع فيجتاح الجانح بدعوى أنه مجبر مسير مقدور عليه قدره، أو يُظلم من قام به عارض من عاهة عقلية أو نفسية أو ظرفية تؤثر على مسؤوليته كلياً أو جزئياً .. من أجل ذلك فلا مناص أمام العدالة، والفكر بعامة، من التسليم كما قال أفلاطون من زمن بعيد، بأن " العقل " هو بوصلة الآدمي بين الخير والشر، وأنه إن كان التمييز والفطرة هاديين للعقل، فإن هناك عوارض عقلية أو نفسية أو ظرفية يمكن أن تعرض أحياناً للتمييز، وأحياناً لحرية الإرادة والاختيار .

الجنون المطبق - مثلاً - يعرض للتمييز، فيسقط المسؤولية إسقاطاً تاماً، وبين الجنون المطبق والمرض النفسي درجات وأطياف توصف أحياناً بعاهة في العقل من باب التوسعة وترك المجال للعلماء للتعرف والتدقيق، وتوصف أحياناً بأمراض نفسية هي بدورها على أطياف ودرجات إن لم تؤد إلى نفى المسؤولية فإنها تؤثر ولا شك في مقدار العقاب .

وحالة الضرورة التي اتفقت عليها الشرائع السماوية والوضعية، هي تسليم بإمكان تأثير الظروف على الإرادة الإنسانية أى على حرية الاختيار، وإن لم تؤثر على القدرة على الإدراك والتمييز، واختلفت وتختلف التشريعات في معاييرها بشأن حالة الضرورة التي تبيح الفعل أو يقتصر أثرها على التخفيف ..

مرة أخرى نعود إلى السؤال الذى لم أهرب منه ! من المسئول :
المجرم أم المجتمع ؟.. جوابى أنك إن فتشت فستجد المجرم مسئولا إن لم
يقم به عارض عقلى أو ظرفى يسقط المسئولية، وستجد المجتمع مسئولا
بنحو أو بآخر عن مجمل ما يشيعه فيه ويبنى عليه نظامه وثقافته
ومنظومته وسياسته وتقاليده وعاداته !

لا يستطيع مجتمع رشيد أن يغسل يديه غسلا تاما مما قد يحيق بأفراده
من جنوحات ربما كان مرد بعضها إن لم يكن معظمها إلى قعود المجتمع
عن القيام بواجبه فى التنوير والإرشاد والتقويم والإصلاح !

من

تـراب (٢٦٩) رباط الإسلام (٥)

الطريق!

لا يتصور الإسلام فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد فى كتابه : معالم التقريب .. لا يتصور الإسلام بطبيعة الحال حرية اسمها حرية ترك الإسلام، فإن الإسلام ليس انتماء إلى حزب تتضوى تحته اليوم لتخلعه عنك غداً، أو ناديا تتضم إليه لتتركه إلى غيره، وليس برنامجاً سياسياً أو اجتماعياً يلغيه الإنسان أو يرفضه متى أراد بلا معقبات .. فإمكان الإلغاء والرفض والخلع والانسلاخ والانسواء والترك مفروض أو مفترض أو متصور فى الانتماء إلى الأحزاب أو الأندية أو البرامج، ونحن الإسلام أخوة فى الله أبدية فى الدنيا والآخرة، ونوع وولاء لله، وبيعة له سبحانه وتعالى .. بيعة أبدية فى الدنيا والآخرة ..

الإسلام نوع حياة لها وجهها الفردى والعائلى والجماعى .. الاستمرار فيها عنصر أساسى .. إذ يتسلمها الأبناء من الآباء، ليتسلمها منهم أبناؤهم وهكذا .. فحرية البقاء فى الإسلام أو تركه كأنه فندق أو خان تخله متى شئت وتخرج منه حينما تشاء لتعود كيف تشاء .. هذه الحرية فى الدخول والخروج، والمناورة والمداورة، سخافة لا توجد إلا إذا كف المسلم وتوقف عن اتخاذ الإسلام ديناً ملزماً لأهله، لذلك فإن الارتداد عنه إذا وقع - والعياذ بالله - ليس ممارسة لحرية، وإنما سقوط وخيانة !

الإسلام لا يحترم الرعونة ولا الحمافة، ولا يتصور أن يكون المسلم إلا عاقلاً .. فلا يتصور حرية الطيش والهوى .. ونحن نخطط أحياناً بين

الحرية والحمافة فى مبادلنا وملاهينا .. وأحياناً فى ياسنا وفشلنا .. ففى الأولى نتصور - واهمين ! - أن الحرية تنسى وقارها وخطورتها لتحتضن وتحمى نزعات ونزوات وأهواء المآرب والمصالح أو فراغ الرءوس أو مبتدعات اللبس والزينة والتسلية... بينما هذه وتلك أشياء أو شطحات لا يحميها كونها من حرية الإنسان الحديث - بقدر ما يروج لها إقبال الناس عليها ومشاركة الكثيرين فى سخفها، وأن منعها لا يساوى المضايقة التى تتخلف عن إجراءات المنع أو القمع !

هذه النزعات أو الحماقات أو الأهواء يخدمها التهور وأحياناً الجنون، فنقدم عالمين عامدين على تصرفات نعلم أنها مخالفة للعقل .. لأننا نظن - واهمين ! - أننا أحرار فى استعمال العقل وعدم استعماله، وأن هناك مواقف لا تصلح فيها الحكمة وضبط النفس أو أغراض لا تنفع فيها المبادئ، وأنه يباح لذلك أن نواجهها بخلع المبادئ لنعود إليها من بعد أو لا نعود، أو أن نواجهها بالجنون والاندفاع .. لا من باب التظاهر، وإنما من باب الاقتناع - ربما ! - بجدوى الجنون وثمار المجانين .. وحين نمر بهذه الحال الغريبة - نعتبر الذين يصرون على التعلل والاعتدال خصوماً لنا وللحرية .. لأنهم يقاومون مداورتنا أو هوسنا الذى نريد أن تكون له الكلمة العليا، ويشيعون حوله تردداً وشكوكاً !

والناس حين تخلع المبادئ أو ترفع راية الهوس وتولى هذا أو ذاك فى حياتها هذه المكانة، تغير الأسماء المألوفة لهذه النزعات وتضفى عليها أسماء أخرى - مضللة ! - ذات بريق مداراة لسوءها ! .. ويساعدهم ذلك الخداع للنفس أو للغير على الاستمرار فى تلك الحالة التى اعتنقوها، وعلى نسيان كيف دخلوها، وربما شعروا بالزهو والذكاء لوجودهم فيها .. وربما اجتذب ذلك إليهم غيرهم من الشواذ الذين يسعون أصلاً وراء فرص للتعبير عن آفاتهم وهم آمنون من الخوف والعار !

والذين يختارون الهوس والجنون لا يعلمون إلى أين يؤديان بهم ولا أين يقفان .. فليس للهوس والجنون " حساب " يمكن معرفته مقدماً أو

ضبطه، ومتى سيطرا فلن يتخليا عن السيطرة تلقائيا عندما تدعو المصلحة .. ثم إن الناس تعتاد الحمق بالممارسة، ويتعذر عليهم أن يقلعوا عنه رغم فداحة ما يصيبهم من جرائه !!

وإقدامنا على اختيار الجنون ورفض العقل دليل نقص هائل في حريتنا الداخلية وعجز تام عن ضبط رغباتنا، وانحراف بوصلتنا عن رباط الإسلام والأديان بعامة، وابتعاد مبعد عن الولاء لله عز وجل !

من

تراب (٢٧٠) متى نفقد الصدق ؟ (٢)

الطريق!

الناس فى تعلقهم بالصدق صنوف ودرجات، وصدقهم مهما صدق
صدق نسبى لأنه بشرى .. ونحن نفقد تعلقنا بالصدق حين نكف عن
اعتباره قيمة تعلق على أنفسنا ورغابنا وعلى المصلحة والمنفعة .. حين لا
ندرك أن قيمة الصدق فيه وأنها لا تتوقف على نفعه لنا، أو حين تصبح
المصلحة هى حد الصدق وتدخل الفوائد والمنافع فى تعريفنا له !

إننا نفقد الصدق حتما حين لا ترى ضمائرنا بأسا من الترحيب بالكذب
والباطل المتوجين بأكاليل المصلحة الحاضرة والانحناء لهما- للكذب
والباطل ! وإفساح الطريق أمامهما .. حين تشعر بأن الصدق رداء ونرى
أننا أحرار فى اختيار نوع الصدق وفى صنعه وفى التحكم فى مقوماته،
وأن مشيئتنا وإرادتنا فوق فكرة الصدق والكذب والحق والباطل.

إننا نفقد الصدق - فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبد الله محمد
- حين ننسى أنه لا يعيش إلا إذا كان سقفا واحداً لمشيئة البشر، وفوق
نسبية أحكامهم وآرائهم .. نفقده حين ننسى أنه "أداة القياس"
النهائية " التى تقاس بها كل القيم، أو حين نغفل أنه قيمة مطلقة لا يرد
عليها قيد أو استثناء إلا بإذن قيمة مطلقة أعلى منها مصدرها الله عز
وجل .

إن ميل كثير من الناس إلى الكذب على أنفسهم وعلى غيرهم ميل
طاع، يبين أن الضمائر وحدها أو ما نسميه القانون الأخلاقى والإيمان

بالإنسانية - لا يقوى فى الغالب على صد هذا الميل إلى الكذب ورده،
ويبين أن الناس - بشهادة حالهم - فى أشد الحاجة إلى سلطة فوق أنفسهم
يسلمون لها بالقدرة على معرفة وكشف كذبهم، ويسلمون بأن عمل هذه
القدرة لا يمكن أن يفسد بالرشوة والزلفى أو بالضغط والقسر، أو أن يصل
بالمكر والحيلة .. هذه القدرة " سلطة " فوق قدراتنا البشرية - خيرها
وشرها - لا تضعف بالاعتیاد، ولا تفقد نفوذها ومكانتها مع طول الاتصال
والمعاملة .. هذه السلطة لا يمكن قط أن تكون سلطة أرضية، لأن كل سلطة
أرضية هى حتما سلطة بشر مهما أسبغنا عليها من أوصاف وتصورات
فلسفية أو قانونية !

هذا وبرغم ما نراه من زحام والتصاق مادی، فإن أهل هذا العصر
بُعْداء غرباء، يخافون من الود والثقة .. وفى أعماقهم وحشة وعزلة وربما
بُغض للروابط التى تربطهم بالآخرين بوثاقة وعمق . ذلك لأننا لم نعد
نمارس التعلق بالصدق، وأنسانا الذين يهمهم أن ينسى العالم قيمة الصدق -
أنسونا أننا وإن أمكن أن نختلف حول البيانات، فإنه لا يجوز أن نختلف
على الصدق ذاته والولاء له كقيمة مطلقة .

فى هذا العالم الذى لا يحب التعلق بالصدق، يبدو دين الصادق الأمين
غريبا يوشك أن يكون مطلبا بعيدا عن ممارسات ومداورات وحيل
وأساليب الناس . وليس يمكن اعتناق الصدق إلا بالشجاعة والإخلاص،
وقوامهما الإيمان بالولاء المطلق لله عزّ وجلّ، هذا الولاء الذى تتضاءل
أمامه رغاب المنافع والمآرب والأغراض، وتعلو قيم الحق والكمال
والجمال .. إلى شجرة الجمال والكمال تنتمى كل السمائل والسجایا ومنها
سجية الصدق، وهى سجية مانحة، تتعكس على كل ما يصدر عن الإنسان
فى عبادته ومعاملاته وعمله .. حين يغيب الصدق أو يهين، تختل بوصلة
الأشياء، وتتبعهم المعانى، ويتوه الناس عن الحق الذى هو قبلة كل عاقل
مدرك لمعنى وقيمة الولاء لله عزّ وجلّ .

من

تراب (٢٧١) حضانات الزمن الجميل ! (*)

الطريق!

فى عام ١٩٢٥، وهو العام الذى تخرج فيه أبى - رحمه الله - فى مدرسة الحقوق الملكية، حسب مسمى كلية حقوق القاهرة فى ذلك الزمان، اكتمل إنشاء الجامعة المصرية الحكومية وأنشئت كلية الحقوق إلى جوار كلية الآداب، وإن ظل طلاب الكليتين يدرسون معا فى السنة الأولى برنامجا تحضيريا فى الأدب والتاريخ وعلم النفس والاجتماع واللغات الكلاسيكية .. فى ذلك العام جمع الصف الدراسى بكلية الحقوق بين عبقريتين فنتين ملأتا الحياة فيما بعد : أستاذى الجليل محمد عبد الله محمد، والأستاذ الكبير محمد مندور .. كلاهما عمل بالمحاماة وظلا يلتقيان من وقت لآخر، وإن رجح النقد والأدب فى حياة محمد مندور، دون أن يترك المحاماة، بينما لم يحل القضاء أولا ثم العمل بالمحاماة بين محمد عبد الله محمد وبين أن يقدم كتابه غير المسبوق فى معالم التقريب، ولا ديوانى شعره : " العارف " و " الطريق " .

يحكى محمد مندور فى حديثه إلى الأستاذ فؤاد دواره (كتاب عشرة أدباء يتحدثون) - أنه فى تلك السنة التحضيرية التى جمعت بين طلاب الحقوق والآداب، حاضرهم الدكتور طه حسين فى " الشعبية وانتحال الشعر " .. معلنا للطلاب أنه سيقلى عليهم المحاضرة فى ثلث ساعة، ثم على كل طالب أن يكتب ملخصا لها فى مدة لا تزيد على خمس دقائق .

(*) المال ٢٠٠٩/٦/٣

أتاهم الدكتور طه حسين ليعلن عليهم فى اليوم التالى أن أحسن تلخيص قرأه هو ما كتبه الطالب محمد عبد الحميد موسى مندور، واستدعاه لمقابلته بعد المحاضرة، وهنا سبب ما أرويه لك ..

سأله الدكتور طه حسين عن الكلية التى طلب الالتحاق إليها، فلما أجابه محمد مندور بأنها كلية الحقوق، سأله : لماذا ؟ فأجبه : ليصير وكيلا للنياحة . هنا قهقهه الدكتور طه حسين وهو يسأله : لماذا وكيلا للنياحة بالذات ؟ فأجابه محمد مندور لأنه الرجل الذى تهتز له بلدتنا كلها عندما يحضر إليها .

" أما فلاح صحيح " .. عبارة أطلقها الأستاذ الدكتور وهو يراجع تلميذا بالسنة الأولى لا يعرفه، ويعطيه اهتمامه ووقته .. أتبعها بنصحه بالالتحاق بكلية الآداب لأن لديه استعدادا أدبيا ملحوظا لا شك فيه . ولكن الطالب يصمم على كلية الحقوق ولا يستجيب لنداء الأستاذ ! فهل ضاق به الأستاذ أو صرف عنه النظر ؟!

يجيب محمد مندور بأن الدكتور طه حسين جعل يحاول إغراءه بأنه سوف يتفوق فى الآداب وسوف يسافر بعد تخرجه فى بعثة إلى أوروبا ثم يعمل أستاذا بالجامعة، ولكن يأبى محمد مندور إلا الإصرار على ما يريد، فلا يغضب الأستاذ، ولا يضيق صدره، ولا ييأس، ولا يرضى على التلميذ العنيد بوقته، ويمضى لأداء رسالته فى احتضان من ارتأى فيه موهبة جديرة بالاحتضان، فيقول له :

" أما فلاح مخه ناشف . طيب يا سيدى، ابق فى الحقوق كما تريد، ولكن على أن تلتحق بكلية الآداب فى نفس الوقت، وأنا أنعهد بإعفائك من مصروفات كلية الآداب، ولن يصعب عليك الجمع بين الكليتين لأن الدراسة بعد السنة الإعدادية ستكون فى الصباح بالحقوق، وبعد الظهر بكلية الآداب."

بأقى القصة معروف، فقد جمع محمد مندور بنجاح بين دراسة الحقوق والآداب، وحصل على إجازة الآداب بقسم اللغة العربية وكان ترتيبه الأول سنة ١٩٢٩، ثم أتم دراسته فى قسم الاجتماع وليسانس الحقوق سنة ١٩٣٠ حيث تخرج مع الأستاذ الكبير وأول الدفعة الدكتور محمد عبد الله محمد، وصار محمد مندور علما من أعلام الأدب والنقد وأستاذًا وشيخًا لجميع النقاد منذ كتابه اللافت الذى حصل به على الدكتوراة : " النقد المنهجى عند العرب " .

هكذا كانت الدوائر الحاضنة فى ذلك الزمن الجميل، ولو لم يتوقف الدكتور طه حسين ويعطى ما أعطاه من اهتمام ورعاية لمن توسم فيه الموهبة الأدبية، لربما حرمت الحياة الأدبية والنقدية من العطاء الغامر الرفيع الذى أعطاه الدكتور محمد مندور .

نضوب الدوائر الحاضنة فى زماننا، يورى بالانكفاء على الذات، وانقطاع التواصل بين الأجيال .. ظنى أن أستاذية طه حسين للأدب العربى ترجع إلى ما أعطاه وهىأه من تواصل مع تلاميذه، بالتوازي مع ما كتبه وأبدعه فى الثقافة والأدب العربى .

من

تراب (٢٧٢) أدعية وتسابيح ! (*)

الطريق!

باسمك اللهم .. يا مالك نواصينا ننهض مع إشراقة كونك .. مع ضياء
شمسك .. نملاً قلوبنا ثقة وبشراً، وعزائماً صلابة .. نؤهل أنفسنا ليوم
عمل على أديم أرضك .. ونأخذ لآخرتنا زاداً يصح به مآلنا يا الله عندك ..
إليك يا رحمن اتجهنا وأملنا .. دعاؤنا وضراعتنا .. صلاتنا ونُسكنا ..
فَتَقَبَّلَ اللهم منا، وحقّق غاياتنا .. يا عزيز .. يا سميع .. يا بصير ...

* * *

باسمك اللهم .. نمد أيدينا لكل أخ فاتته الركب .. ندرأ عنه أنقاله
ونُشجعه ونعيد بسمه الثقة إليه .. نمُنحه من أنفسنا حتّى يقف على قدميه
ويمضى معنا لما نمضى إليه .. متكافلين يا الله غير متباذنين، متحدين غير
متفرقين، متآزرين غير مشنتين .. نتبادل الأخذ والعطاء .. نتقارب بالحب
.. فهو يفعل المعجزات .. يُحيل الحياة إلى رحلة سعد وبشر .. يشد القلوب
والأفئدة ويربط الأيدي ويوحد الخطى .. ونحن يا ربنا أحوج ما نكون إلى
كل ذلك .. إلى إيقاع واحد ونبض واحد .. إلى طريق واحد وخطوة واحدة
.. فامنحنا يا وهاب الحب الذى يشدنا إلى بعضنا ويوحد على درب الحق
خطانا .. إنك يا كريم واسع الدعاء واسع الإجابة ...

* * *

باسمك اللهم .. نُفتش فى الآفاق .. نضرب فى ربوع أرضك .. نبحث
عن اللقمة الطيبة والعمل الطيب .. والمعنى الرشيد .. نبنى بكل ذلك

(*) المال ٢٠٠٩/٦/٤

صرح حياتنا ومستقبلنا .. ونعمق أيضاً قيمنا ومبادئنا .. فهبنا اللهم نقاء
 الضمير وحلاوة اللسان وقوة العزيمة .. وحلنا بكل خلق حميد وسجية
 كريمة ... بالصبر لنصمد في رحلة الحياة وعناءات الكفاح .. بالإخلاص
 لنخلص جهادنا وعزمنا .. بالشجاعة لنقدم ونقدم ولا نهاب .. بالكرم
 لنعطى بالجد والسخاء .. نعطي النصيحة الخالصة والكلمة الحلوة والعون
 الصادق .. نعطي بالحب والسماحة .. والإيثار .. بالصدق لتصدق عزائمنا
 وألسنتنا .. وبذلنا أيضاً على طريق العاملين الشرفاء .. الذين يقولون
 ويفعلون .. يعدون ويوفون .. بالأمانة لنحمل مسئولياتنا ونؤدى واجباتنا
 وودائعنا أداء الأمانة ...

ربنا .. إذا كنا قد أسرفنا في الطلب في دعائنا فلأنك يا وهاب واسع
 الإجابة .. رحيم بنا .. كريم علينا .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

" وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
 عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ "

هذه يا إلهي آمالنا .. غايات إليها وسائل .. رجوناك هذه وتلك ..

باسمك اللهم .. طلبناها وباسمك اللهم سنسعى إليها مُخلصين غير
 متواكلين .. باذلين غير متقاعسين .. فوقنا اللهم فى مسعانا، وحقق
 رجاءنا، ولب بكرمك ضراعتنا .. أنت مولانا وناصرنا .. يا نعم
 المولى، يا نعم النصير ...

من تراب (٢٧٣) المسلمون و تيار العصر ! (*) الطريق!

ماذا بوسع المسلمين أن يفعلوه أو يتخذوه إزاء تيار العصر؟! هل مطلوب منا كمسلمين كيما نمسك بديننا أن نعتزل الدنيا ونجأ في العصر؟! .. أم المطلوب المرغوب أن نشارك عن فهم وبيئة في التيار الرئيسي النافع للحياة في هذا العصر .. وأن تكون مشاركتنا بوعى وشجاعة وإخلاص تام للحق عز وجل؟

لا يُطلب من المسلم أن يخاف كما يخاف معظم الناس من ممارسة الصدق، ولا يُطلب منه أن يتغابي وأن يعرض عن الفهم العميق لأفكار العصر وعقائده وتصوراته وأذواقه والقوى المؤثرة في أحداثه ..

ليس في وسع المسلم أن يخلد إلى هذا الخوف والتغابي إذا كان يشعر حقيقة بمسئولية الانتماء للإسلام .. ففي هذا المعمعان يجب أن يعرف المسلمون دائما وبدقة ووضوح - ولاء للإسلام ذاته - بماذا وكيف يتعاملون مع هذا العصر .. ماذا يقدمون أو يبيعون له، وماذا يأخذون أو يشترون منه .. متجنبين في جميع الأحوال خداع أنفسهم أو خداع الغير لهم في الأسس .. ذلك أن يقظتهم والتفاتهم الدائمين إلى اختلاف الأسس، معناه أنهم متيقظون ملتفتون إلى أصول وكماليات الإسلام وحريصون عليها .. لأن الحلول العادلة الفاضلة المعتبرة من مقومات الحضارة الحديثة، لا يمكن - فيما يقول أستاذنا الجليل محمد عبدالله محمد في معالم التقريب - لا يمكن أن يكون بينها وبين الإسلام تعارض أساسي .. مع الالتفات والتفطن إلى أن الأفكار الأساسية التي في إطارها وجدت هذه الحلول - قد تعارض أو

تتعارض مع كليات الإسلام، كما يبدو مثلاً في نظرية الحقوق عموماً، وفي فلسفة الحرية والمساواة بصفة خاصة .

تختلف نظرية الحقوق التي تشغل معظم مساحة القاعدة الفكرية الاعتقادية لحياتنا، عن نظرية الحقوق أو فلسفة الحرية والمساواة في العالم المعاصر . ومع ذلك يستطيع المسلم أن يأمن التصادم بين النظريات مادام التزم فيما يسلكه ويتخذ بما يتفق مع مجمل وكليات وتفاصيل عقيدته .. فلا تستطيع نظرية العالم المعاصر أن ترغم المسلم على اعتقاد يجافي عقيدته، أو أن يقبل ما لا يريد قبوله، أو يرفض ما لا يرى داعياً لرفضه، أو يسأى ما لا يحب أو يدع ما يحب . ولا يوجد في نظريات العالم المعاصر ما يمكن أن يصادم المسلم فيما يراه ويفعله ويسلكه ويأتيه، أو فيما يرضيه أو يشبعه .. فأفعالنا وأعمالنا الحرة هي ترجمة عن اعتقادنا نحن فيما لنا أو ليس لنا من مطالب مشروعة أو غير مشروعة في ذمة الدنيا وأهلها.

يقول الأستاذ الجليل محمد عبدالله محمد، إن أية نظرية للحقوق يتراءى فيها حتماً — مهما كانت بدائية — اجتهد آدمي في توفير قدر من الانسجام والمسايرة بين فكرته عن حقوقه، أى ما يعتبره مشروعاً أو غير مشروع، وهذا الانسجام لا رقيب عليه إلا الآدمي نفسه، وهو ملك إرادته الحرة المختارة، فنظرية الحقوق تقوم دائماً وفي كل صورها على عملية فصل وتمييز بين المطالب المبررة والأخرى غير المبررة، وتمييز ذلك مناطه إلى الإنسان نفسه، وعلى أساسه فإنه هو الذى يوجه سلوكه ويوزع رغباته وينفق طاقاته العاطفية والعصبية والمادية، ونظرية الحقوق هي أيضاً عند التأمل نظرية واجبات، بمعنى أن الممنوع هو الذى يحدد دائرة الجائز، ويتقّم فيها الواجب على ما عده . وظهور تضاريس الواجبات في خريطة الحقوق، ووضوح الفروق والحدود بين المشروع وغير المشروع، هو بوضلة الإنسان التي تحفظ له التزام دينه وتواعمه مع نفسه ومع الآخرين .

من

ترب (٢٧٤) حينما يكون النصر هزيمة ! (*)

الطريق!

كانت هزيمة ١٩٦٧ زلزالاً هائلاً لم يخف زلزلته أو يعوق دون مواجهتها أن أطلق عليها أنها نكسة .. فلم يحل اللفظ المخفف دون معرفة حجم الكارثة، ومن ثم لم يحل دون دراسة الأسباب الخفية والظاهرة التي أدت إليها .. ولولا هذه الدراسة، والبرنامج الصادق الدعوى الذي بدأه عبد الناصر لمعالجة الأسباب وبداية البناء، واستكماله السادات بعد وفاة عبد الناصر .. لولا العلاج والبناء من واقع معرفة الأسباب، لما أمكن للوطن أن يجتاز الهزيمة، ولا أن يحقق انتصار رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ .

أشر وأدهى وأخطر من الفشل والإخفاق، أن تتكره وتمازى فيه، وأشر وأدهى وأخطر من إنكاره أن تتصوره أو تصوره للآخرين نصراً، لا لأن الهزائم لا تتحول إلى انتصارات مهما أسبغت عليها من مسميات، وإنما لأن الإنكار والممارسة لا تتيح دراسة ومعرفة الأسباب، بل وتحول الفشل إلى إدمان، والإخفاق إلى عادة لا مفر من تكرار الوقوع فيه، وهذا هو من أسف حال الحزب الحاكم في مصرنا المحروسة، فهو قد ترك الزلزال الحادث في نقابة المحامين، والذي سقط من حملة المباخر أنه بالفعل زلزال، ليعود إلى الإنكار والممارسة، فيصور للناس، والأدهى أنه يصور لنفسه، أن الإخوان المسلمين قد انهزموا هزيمة منكراً، وأن الحزب الحاكم وقائمه قد انتصروا انتصاراً مبهرآ آيته النتيجة - الكاذبة ! - التي أعلنت بعد الرتق والملاحق والرافة والتعديل وبعد أن ظلت نتيجة العضوية

(*) المال ٢٠٠٩/٦/٩

محتبسة عن الإعلان ثلاثة أيام حتى تم الرتق الذى يعتبره فلاسفة التبرير
والتنظير نصرا مؤزرا ؟!

قد يستطيع فلاسفة التنظير والتبرير أن ينبعوا باللائمة على الكتلة
التصويتية المصمتة للإخوان المسلمين، وعلى مبدأ الولاء والطاعة التى
تحول دون المناقشة أو المعارضة، وتضمن مجموع الكتلة، وقد يزيدون
فيقولون إن الإسلام لم يعرف بيعة تشمل العقل والفكر والإرادة والاختيار،
وأن الإسلام أعلى مقام العقل حتى فى أمور العقيدة والتبعية والتكليف، وفى
الحديث : " الدين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له "، والإسلام قد جعل
التفكير فريضة إسلامية كتب عنها العقاد كتابا ضافيا بذات العنوان، وأقر
الحق فى المعارضة والانتقاد حتى قال الشيخ محمد الغزالى فى كتابه:
" من هنا نعلم " : " إننا إذا رجعنا إلى تعاليم الإسلام وجدناه يخلق أمام كل
حكومة - معارضة جريئة يقظة، تتعقب كل خطأ بالنقد، فإذا فرط جيل من
المسلمين فى هذا الواجب - خرج عن تعاليم الإسلام " . وقد يضيف
المنظرون اللائمون أن جذور ذلك واضحة فى سنة الرسول صلى الله عليه
وسلم الذى كان يشاور وينزل أحيانا على رأى غيره (ماء بدر / حفر
الخنق / تلقيح الأشجار) .. وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
فريضة مفروضة، وفى الحديث : " لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس
إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساءوا أسأت، وإنما وطنوا أنفسكم إن أحسن
الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم " .. ولم يتعال الراشدون
أنفسهم على حق الرعاية فى نقدهم، بل والحث على ذلك، فقال الصديق أبو
بكر: " إن أحسنت فأعينونى، وأن صدفت (ملت وأعرضت) فقومونى " .
ودارت صيغ جميع الروايات لخطبته حول هذه المعانى التى تحترم العقل
وحق الناس فى التفكير والنقد والاختلاف فى الرأى والإعراض عن الخطأ،
حتى قال عمر بن الخطاب للرعية: " من رأى منكم فى أعوجاجا
فليقومه " .. ولم يغضب ممن قال له : " والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه
بسيوفنا "، بل قال له مرحبا: " الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم
عمر بسيفه " .

قد يتعلل المنظرون والمبررون بأن كتلة الإخوان التصويتية مصممة ولا تتناقش ولا تراعى أى اختلاف فى رأى، وأن هذا هو مناط غلبتها .. ولكنك لا تملك حين حاجى أن تتناقش الآخر فيما يلزم ولا يلزم نفسه به، وإنما واجبك أن تعرف وتبحث وتناقش فى أسباب إخفاك أنت، ولو ناقش فلاسفة التنظير فى الحزب الحاكم أسباب الإخفاق المتكرر، لعلموا أن السبب يكمن فى غياب المنظور ذاته عن آفات الحزب الناشبة فى جذوره، والتي أفقدته قوام الأحزاب الحقيقية، ولعرفت أنك حين تغلق أبواب الحرية وتصادر على الآخرين بقوة ونفوذ السلطة، فإنك لن تجنى فى تنظيمك نفسه إلا الحصرم .. إن مشهد الكتلة التصويتية المصممة للإخوان أولى بالاحترام من المشاهد المهترئة التى قادها بلا جدوى المهندس أحمد عز بكل أدوات المال والسلطة ونفوذ وآليات الإدارة، ولعرف أن من أسباب الفشل أن يترك الحزب قمامات عالية فى المحاماة والقانون من أعضاء الحزب، ويعطى ملف نقابة المحامين لمن لا شأن ولا معرفة له بالمحاماة والمحامين .

سوف يظل الحزب الحاكم على إخفاقه لو لم يقرأ الانتخابات قراءة جيدة وصادقة، وهو لو قرأها لعرف أن كتلة الإخوان التصويتية تبلغ (٣٢) ألف صوت وتتجلى فيما حصل ويحصل عليه عادة الأستاذ أحمد سيف الإسلام حسن البنا (٣١٩٨١ صوتا) .. وهو الرقم الذى دارت بالقرب منه الأصوات التى حصلت عليها باقى القائمة الإخوانية ولم تنزل عنه إلا قليلا، وذلك لا يكشف فقط بهتان عمليات الرتق التى جرت فى العضوية على مدار ثلاثة أيام، وإنما يؤكد أن هذه الكتلة إضافة إلى أصوات مجموعة الخرباوى / نوح / بثينة القماش - هى التى دفعت بمرشح الإخوان إلى مقعد النقيب، واللافت أن الأستاذ الخرباوى صرح هو الآخر بتصريح قريب من التصريح الضمنى لمسئول الملف بالإخوان فقال : إنهم يعطونه أصواتهم رغم إقراره بأنه لا يملك الشخصية الكاريزمية ولا الخبرة ولا الحنكة، وإن لم يقل كما لم يقل مسئول الملف بالإخوان : ماذا يملك من

قدرات حتى يدفع به إلى هذا الموقع الجليل في كارثة غير مسبوقة في
نقابة المحامين !

ظنى بل يقينى أن الحزب الحاكم يحمل المسؤولية الأكبر من أضرار ما
جرى لنقابة المحامين والمحاماة !!

من

نظرية مالتس (٢٧٥) تراب

الطريق! والانفجار السكاني!

لازلت أذكر ما تلقيناه من دروس فى الاقتصاد السياسى بحقوق القاهرة ١٩٥٥ على يد الأستاذين الكبيرين الدكتورين سعيد النجار ورفعت المحجوب، وما سمعناه منهما وقرأناه لهما عن النزعة التشاؤمية فى إطار النظريات الاقتصادية فى السكان، فبعد أن كان الزمن الفائت يرى القسوة والمنعة والرخاء فى زيادة السكان، حتى كتب هنرى الرابع ملك فرنسا فى سنة ١٥٩٩ أن قوة وثروة الملوك والأمراء تتوقف على رخاء وزيادة السكان، وتوسط الاقتصادى " كيزنيه " فقال إن الاعتقاد بأن السكان هم سبب الثروة لا يعدو أن يكون أخذاً للنتيجة على أنها سبب. إذ الثروة هى التى تحدد السكان . بمعنى أنهم نتاج الظروف الاقتصادية .

نعود إلى النزعة التشاؤمية التى ارتبطت بالقس الإنجليزى "كوماس مالتس"، الذى عين أستاذا للتاريخ الاقتصادى فى الكلية الهندية الشرقية، ففد بحث أهم مشاكل عصره وهى بؤس العمال، وعالج حلولاً عديدة لمساعدتهم، ثم خلاص فى النهاية إلى أن قانونين هامين غير قابلين للتغيير يحكمان طبيعة البشر : القانون الأول : ضرورة الطعام لوجود أو حياة الإنسان . والقانون الثانى ميل كل من الجنسين إلى الآخر . فالقانون الأول يترجم حاجة الإنسان إلى الطعام، بما يعنى أن المواد الغذائية والإمكانات

المتاحة تحدد بالضرورة عدد السكان، بينما يترجم القانون الثانى " تزايد السكان " !

ارتأى مالتس (١٨٣٤/١٧٦٦) أن رغبة الإنسان على التناسل أكبر من قدرته وقدرة الأرض وسائر العناصر الإنتاجية على إنتاج ما يلزم لبقاء الإنسان، فإذا تزايد السكان - وهم يتزايدون بمتوالية هندسية (أى يتضاعفون) كل (٢٥) عاما، بأكثر من قدرة العناصر الإنتاجية على الإنتاج، اختل التوازن الواجب بين الكتلة السكانية والكتلة الغذائية، فيفقد الإنسان فى محيطه ضرورات حياته، ومن هنا نشبت وتنشبت المجاعات وقامت وتقوم الحروب التى تقنى البشر حتى تعود المعادلة إلى التوازن !

لم تسد هذه النظرية، وناهضتها نزعات تفاؤلية، ومع ذلك لا تزال هاديا لمجتمعات اختل فيها التوازن، ونحن هنا أحوج إلى الالتفات إلى مخاطر الانفجار السكانى مع تواضع أو تراجع الإنتاج .. ففى الوقت الذى نفسر به حديث : " تراوجوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة " - بأن الزيادة المتغياة هى أى زيادة عددية مهما افقدت التربية والتأديب والتهديب والتثقيف، وأن التزايد بالتناسل غاية فى ذاته لا تلتفت إلى الكيف، ولا تهتم إلا بالكم، الأمر الذى قاد ويقود إلى تفشى الفقر والبؤس والتعاسة، وضياح أى أمل فى حصد أسباب القوة والتقدم والرقى .

ومن اللافت الموجه أننا مع استسلامنا بلا عقل للتناسل فى حد ذاته، دون أى التفات لمقتضيات القدرة على التربية والتنشئة الصالحة، فإننا أيضا نعطى ظهورنا للإنتاج، لأننا نعطى ظهورنا للعمل، وآية ذلك أنه لا قيمة لدينا لوقت .

فى المجتمعات المتحضرة يقدسون " الراحة "، لأنهم يقدسون " العمل " .. فالراحة فى استخدامها الصحيح تقابل عملاً وجهداً منتجاً مبذولاً، وبغير ذلك تكون الراحة فراغاً ومضيعة للوقت وتغليقاً لكل أبواب الإنتاج، فكيف إذن يكون التناسل والتكاثر، بينما الإنتاج يتراجع بتراجع

العمل وقيمة الوقت حتى إن الإجازات تصل لدينا فى المرة الواحدة إلى أسبوع، والمحصلة لهذه حماقة هى تزايد الفقر لا القوة، وشيوع البؤس والتعاسة لا الرضا أو السعادة ..

الغريب أننا مع حاجتنا إلى التبصر إزاء الانفجار السكانى الذى لم نكتف بعوادمه وآثاره المدمرة، فزدنا عليه فى قانون الجنسية المصرية أن تمنح لكل مولود لأم مصرية، حتى لو كان الأب إسرائيليا !! .. لنضيف إلى أحمالنا أحمال المولودين لأباء أجنبى كان الأجدر أن يحملوا جنسية آبائهم، نفعل ذلك ونحن نئن بما نحمله، ونئن بالانفجار السكانى مع الخمود الإنتاجى ! فهل تبصرنا بما نسوق أنفسنا إليه فى عمى ضرير لا فطنة فيه ولا بصيرة ولا تمييز ؟!

من

تراب (٢٧٦) لا تعكز صفو فكرك ! (*)

الطريق!

يستسهل بعضنا بوعى أو بغير وعى، العصف بهدوء نفسه، أو بلبله خواطره، أو تعكير صفو فكره بالأوهام أو المنغصات أو الترهات وما شابه .. ولو عرف الآدمى معنى وقيمة وصفاء فكره لما استخف بتكديره .. حين يتكرر صفاء الفكر ينصرف صاحبه بعيداً عن الصواب، منقاداً لفكر غير سديد احتل صفحة وجدانه بدلاً من الفكر الصافى .. وهو انحراف فى بوصلة الآدمى وفكره يتزايد بتزايد التعكير أو العكارة التى أدخلها عليه !

ظنى أنه يجب على كل منا أن يتذكر دائماً أن العقل أداة جوهرية دقيقة جداً - يفسد دقتها الهزات والانفعالات والانفعالات، وأن يتذكر أن الآدمى يعتاد على هذه الاضطرابات وتأثيراتها إذا تكررت .. يعتاد على عدم المبالاة بارتكاب الأخطاء وعدم الاهتمام بالنقص أو القصور أو قلة الإتيان والدقة، ويصبح ذلك كله اعتياد على الترخص ونقص فى الإحساس بالمسئولية، وعلى نقل ذلك ومحاكاته عن الآخرين من طريق التقليد الإرادى وغير الإرادى .. وقد يتوافر ذلك فى المجتمع ويكتسب تواتره قوة الإلزام ويصبح من المعتقدات والمصدقات والقيم وأصول السلوك !

واجب على كل عاقل أن يهرب بعقله وفكره - من الإنصات إلى الخطائيات والنداءات والصيحات المتشنجة، ومن إطالة النظر إلى حركات الوجوه والأيدى .. ومن أمثلة هذه الجنوحات حب المغالبة والانتصار

وإسكات الخصم المنافس والمنازل .. وواجب على كل فطن أن يعرف
آفة العناد، وأن يهرب من العناد والمعادنة، فلا تقود هذه المعاندات إلا إلى
الأنفعالات والاشترائك فيها .. وهو ما يعكر حتماً صفاء الفكر - ولا يفيد
منه العقل لأن الانفعال خصيم العقل دائماً وأبداً !

يقولون إن الغواني يغرن الثناء، وتقول التجارب الإنسانية إن الناس
بعمامة، والقادة بخاصة، يستهويهم المديح والإطراء .. فلا تلتفت لكثرة
الهاتفين والمؤيدين والمتحمسين، ولا تبال بكثرة الغاضبين والساخطين
والناقمين، ولا يحزنك كثرة المتشككين والمعترضين والمكذبين .. فذلك
إيجاباً وسلباً انفعال من منفعلين يتبادلون قضايا انفعالية - ينبغى عليك ألا
تلتفت إلى هذا الانفعال أو تشغل به نفسك إذا أردت أن تحتفظ بصفاء ذهنك
وهدوء فكريك واتزان عقلك .

إن حياة الناس واعية وغير واعية في كل مجتمعاتهم قديماً وحديثاً،
أغلبها انفعالات خاصة وعامة، وما يبدونه ويتبادلونه بأى وسيلة من وسائل
الأداء والتعبير - أغلبه إعراب عن انفعالات .. لكن ذلك لم يستطع أن
يطرد العقل من العالم .. ولم يلغ احتياج الحق والصواب والمعرفة إلى
صفاء الذهن وروية واتزان العقل وهدوء التفكير، وهذا وذاك لا يتثنى العقل
عن مداومة كفاحه لإعلاء كلمته في خضم الانفعالات التي لا يزل
الآدميون يعيشون فيهما حتى الآن !!

لو أدرك الآدمي قيمة عقله الذي إليه كل مقاليد ما يفعله أو يأتيه أو
ينتهى أو يعف عنه، لعرف أن لهذا العقل سياجا يجب أن يحميه من أى
عكارة تدخل على العقل فتشوش تفكيره، وتجعل قياده إلى انفعالات تفوت
استعمال ملكات العقل وتفسد وظيفته وتعكر صفاء رؤيته، وتؤدي بصاحبه
إلى نقيض كل ما يحترمه العقل ويوجه بوصلة البصير المتفطن إليه !

من

تراب (٢٧٧) ما دخلنا بالهولوكوست ؟ ! (*)

الطريق!

لا أدرى ماهى علاقة المسلمين الذين وجه إليهم أوباما خطابه من القاهرة - بالهولوكوست .. الهولوكوست جريمة غربية / ألمانية، لم يقارفها مسلمون، ولا حتى وقعت فى وطن إسلامى أو يحكمه مسلمون .. ومن حق الرئيس أوباما وغيره أن يتحدث فى شأن الهولوكوست ما شاء له الحديث، وأن يتعاطف مع ضحاياها ما شاء له التعاطف، وأن يصف منكريها أو منكرى المبالغة فى تقدير أعدادها بما يعن له من أوصاف .. ولكن ما مناسبة هذا الحديث الذى ألقاه من مصر إلى العالم الإسلامى، بينما المسلمون أبرياء من هذه الجريمة ولم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل !

فماهى إذن حكاية الحديث عنها من القاهرة إلى العالم الإسلامى؟! لم يبق إلا أن المراد الخفى هو تبرير زرع إسرائيل فى فلسطين وإبادة أو تهجير شعبها، وهذا خطأ تاريخى ومنطق مغلوط هو أس البلاء فى الصراع العربى الإسرائيلى المعزرو إليه، وإلى المظالم الواقعة على العرب، كل مظاهر وحركات التطرف التى هى فى الواقع صرخة اعتراض على هذه المظالم التى فات الرئيس الأمريكى أن المحرقة الغربية الألمانية لا تبررها !

شرائع السماء، وقوانين الناس، تتفق على أن الجريمة شخصية، لا يسأل عنها إلا مرتكبها .. فإذا كانت جريمة المحرقة واضطهاد اليهود فى أوروبا جريمة غربية / ألمانية، فإن الغرب وألمانيا هم فقط الذين يتحملون

أوزارها وعلاج نتائجها .. بأموالهم وعلى أراضيهم، لا بأراضي ووطن من لا دخل لهم ولا مسئولية عليهم ولا علاقة أو صلة لهم بهذه الجريمة من قريب أو بعيد !

يقولون في الأمثال لكل مقام حديث .. ولا مجال في الحديث من القاهرة إلى المسلمين - لا مجال لاستدعاء قصة الهولوكوست .. لقد عاش اليهود قرونا بين المسلمين، فلم يلقوا إلا كل سماحة تلقاها كل من عاشوا من الذميين في المجتمعات الإسلامية .. منهم من تولى الوزارة والقيادات .. ومنهم من تولى قيادة الجيش إبان الحكم الإسلامي في الأندلس، ووضعت جميع المدارس في عهد هارون الرشيد تحت رقابة حنا مسنية .. ومنهم من نبغوا في العلوم في الحضارة الإسلامية لتي تلقاها مرصعة بنجوم من اليهود والنصارى - ووا مع المسلمين في كل شيء .. نبغ منهم علماء وأطباء وكيميائيون، وفتح لهم الإسلام الباب بلا جواز مرور ديني أو عرقي .. رأى المسلمون رسول القرآن عليه السلام يندب الذمي الحارث بن كلدة لعلاج سعد بن أبي وقاص في حجة الوداع .. وكثير اشتغال اليهود والنصارى بالطب في شتى الأقطار الإسلامية في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب ! .. منهم العشرات المذكورون في موسوعة الحكماء للقفطي .. ومن أعلامهم في الحضارة الإسلامية اليهودي موسى بن ميمون، ومعاصره ببغداد الطبيب اليهودي إسحق بن عمران، وهبة الله بن جميع الطبيب المصري اليهودي الذي كان طبيباً للناصر صلاح الدين .. وفي عصر الدولة الفاطمية استوزر العزيز بالله الفاطمي (٩٧٥ - ٩٩٦ م) وأتاب عنه في الشام اليهودي منشأ بن إبراهيم .. صحيح أن هذا الوزير حاد وظلم وأثار السخط، ومع ذلك تبقى دلالة استوزاره آية على سماحة الإسلام .. وصار " حسداى بن شبروط " وزير لعبد الرحمن الناصر .. ومن هؤلاء البازغين إسحق بن حنين المترجم (٩١٠/٩١١ م) .. وإسحق بن سليمان الإسرائيلي الفيلسوف اليهودي المولود بمصر عام ٨٥٠ م .. وغير بعيد عن أذهان المعاصرين ولاية

اليهودى موسى قطاوى باشا وزارة المالية فى مصر فى القرن الماضى !
صحيح أن الرئيس أوباما ذكر بعد استحضاره حكاية الهولوكوست
الغربية الألمانية - ذكر المظالم واللاإنسانية التى تعرض ويتعرض لها
ال فلسطينيون على مدار (٦٠) عاما، ولكن يبقى فارق جوهرى لم يستوقف
الرئيس الأمريكى .. الفاعل فى الهولوكوست هم الغرب والألمان، وليس
المسلمين، وأن الجناة هنا هم اليهود الإسرائيليون الذين شملت جنائياتهم
أرض وأرواح المسلمين .. نحن لم نكن الفاعلين هناك، وهم الفاعلون
المقارفون لما أصابنا ويصيبنا هنا .. فهل لم ير الرئيس الأمريكى هذا
التقابل أو هذه المفارقة ؟!.. لو رآها لما أدخل حكاية المحرقة فى حديثه
إلى العالم الإسلامى من قلب القاهرة المعزية !

بغير فهم هذه المفارقة، سيبقى الغرب وعمدته أمريكا بعيدا بعيدا عن
فهم طبيعة المأساة أو إدراك الحل العادل الذى يعيد السلام الحقيقى إلى دنيا
تغولت فيها القوة وشطحت أدواتها دون أن تدرك أن عناقيد الغضب تتوالد
وتكبر فى الأرحام، وأن تراكم المظالم هو الذى يؤلّد الانفجار !

من

تراب (٢٧٨) ابتسامة الطفل ونشاط الروح (*) الطريق!

ابتسامة الرضا العريضة على وجه الطفل قديمة قدم الإنسانية كلها - لكنها ليست مكررة ولا تتكرر قط، لأنها ابتسامة روح تحمل تعبيراً عن أمل وود لروح معينة، ولا يعجز عن الانجذاب إليها إلا حجر أو آدمى قد تحجر، حَجَرَه خوفه أو شهوته أو أنانيته الكثيفة التي لا يمكن أن تَرى إلا نفسها ومن هم في حكم نفسها .

إن نشاط الروح هو الذى يعطى الطعم الحقيقى لحركات البشر، وهو الذى يضمن وجود الجدة والحدة وليس تغيير الشكل أو تغير الزمان أو المكان.

الجدة تصدرها الحياة ذاتها .. لا توجد إلا في الأحياء .. ولا توجد قط في الكون الطبيعى المادى، ولا يستولدها ليفرح وينطلق ويفخر بها إلا آدمى .

هل ذلك لأن الحياة طارئة على الكون الطبيعى كما تقول الكتب المقدسة، ولذا يشعر الآدميون بأن الكون الطبيعى شئ يقع خارجهم دائماً، وأنه دائماً غريب على الأنا والذات والنفس ؟ هذا السؤال بطرحه الآدميون على أنفسهم من قديم ومازالوا بعيدين عن إجابة صحيحة عليه .. لأنهم مازالوا بعيدين عن أى حوار حقيقى مع الكون الطبيعى يخرجهم من سلبية العنيدة تجاه الآدميين .

بل مازال الآدميون يحاولون الاتصال بأحياء واعية قد توجد فى كوكب أو كواكب أخرى . ويرصدون لذلك العلماء والأجهزة والأموال على غير طائل حتى الآن .

اقتنع الآدمى الآن تماما - أنه وحده وبرغم كل ما حققه وحده من التقدم فى المعرفة - لن يستطيع أن يزيح الأستار الكثيفة والأسرار التى تحيط بوجوده أصلا وغاية ومستقبلا، ولا أن يعلم علما قطعيا بالكون الطبيعى أو بعالمه هو، أو أن يعلم بحقيقة الروابط بين هذين العالمين وأيهما تطور عن الآخر أو طرأ عليه .

ومكتوب على معظمنا أن يعيش حياته كلها قبل أن يفهم شيئا يُذكر عن نفسه أو عما يحيط به - لأنه مشغول باستمرار بمطالب العيش، ليس لديه فرصة للتأمل . والمتأمل إذا أراد الفهم كتب عليه أن يصبر حتى ينمو فهمه مدة عمره، وعليه أن يستعين بما فهمه الآخرون أمواتاً وأحياء حسب ذوقه وحظه وقدر تقبله، وعليه أن يستكمل القصور ويصحح الخطأ ما وسعه، وعليه أن يغير الفهم ويعيد تغييره من زمن لزمان إذا دعا الداعى لذلك التغيير .. لأنه يجب أن يستمر فى لهته وراء معرفة الحقيقة التى لا يعرف الآدميون منها إلا جوانب وأجزاء ورؤى ونظريات بشرية .. إذ لا يشارك فى هذا الكون الهائل فى الجرى من أجل الفهم إلا بعض الآدميين هم دائما قلة قليلة !! .. فى لقوة الأمل عند هؤلاء ويا لشدة الإصرار والمثابرة وعظم الثقة عند المتمسكين بالفهم وضرورته والزيادة المستمرة فيه !

واكتسحت موجة التجزئة ساحة الفهم منذ القرن التاسع عشر خاصة فى العلوم الطبيعية التى انقسمت إلى فروع والفروع إلى أقسام والأقسام إلى بحوث وهكذا .. وصار فهم الباحث مقصورا فقط على ما رُصد له واعتبر ذلك تخصصا مباشره .. وقد أفاد هذا فى تعميق المعرفة فى تلك العلوم، لكنه قطع اتصالها وقطع وشائجها وأوجد علماء يعرفون رقعة محدودة جدا من المعرفة شديدة العمق والتخصص .. قد ينتفع بها التكنولوجى فى أغراضه، لكن لا يستفيد منها المتأمل الذى يريد فهم من أين وإلى أين وهل

لنا دور خاص أو عام - أو ليس لنا دور على الإطلاق شأننا شأن غيرنا من الكائنات حيّة وغير حيّة .. توجد وتزول لا ينقص بزوالها ميزان ولا يزيد بوجودها !

أما جمهور الأدميين الذى يكاد عدده يغطى المسكونة - فلا يحتاج لفهم الذى هو ثمرة التأمل .. لأنه لا يعرف التأمل ولا يفقده .. وهذا الجمهور هو الذى يبني الجماعات فعلا وواقعا ويوجد الحكام والمحكومين .. ومن أجله توجد السياسات والأنظمة والإدارات والمرافق والصناعات والتجارات والزراعات، وهو مشغول دائما بمشاغله العامة والخاصة التى لا تنقطع .. سواء تعلقت بالنولة أو بالاقتصاد أو بالعمالة أو بالأسرة والأصدقاء أو التعليم أو بالرياضة أو باللهو أو بالأخبار والأحداث العالمية والمحلية .. كل ما يدور بين هذا الجمهور بمحكوميته وحكامه وفقرائه وأثريائه - عرضى وقتى يفقد أهميته بحصوله أو بمرور وقت قصير على إخفاقه واختفاء الذين يظن أنهم مسئولون عن هذا الإخفاق .. وزادت هذه العرضية حدة وشدة بازدياد الازدحام والحركة والمرور والأسواق ووسائل الإعلام وصحافة الصحف وبيوت النشر والرعاية والإعلان .

والسؤال الذى يجب أن يسأله الإنسان العاقل هو : هل هذه الحال التى أشرنا إليها وإلى تفاقمها يمكن أن تصحح نفسها تلقائيا - وكيف ؟ .. كيف تعود البلايين من البشر التى ألقت الاعتياد وعدم القدرة على إمعان الفكر وعدم الوقوف أو التوقف للتأمل - كيف يعود من ألفوا هذا إلى نشدان الفهم والتمسك به وإعطائه حقه من الروية والتثبت والمثابرة ؟ !!

من

تراب (٢٧٩)

الطريق!

تغير المجتمعات (*)

بين العاديين و الساخطين !

أغلبية الناس فى أى مجتمع، هم المنصرفون بهوموم العيش ومطالبه إلى شئونهم الخاصة العادية التى توفر مطالبهم وأسرهم ومن يعولون .. تجد هؤلاء هم الأغلبية فى أى مجتمع أيا كان نصيبه من الحضارة .. وهؤلاء يكرهون عادة ما يعكر مسيرة حياتهم، ولا يرحبون بالقلق والاضطرابات وكل ما يفقدهم الأمن أو يعطل أعمالهم التى منها يتعيشون .. ومثل هؤلاء هم على ما درجوا عليه، لا ينتظر منهم تغيير .. مهما بتلوا أو غيروا فى ظروف حياتهم الخاصة ومساعدتهم إلى أرزاقهم !

وغالبا ما يتعرض هؤلاء للإيذاء والعدوان ممن لا يطبقون رتابة الحياة المعتادة .. بسبب سرعة الملل أو الميل الشديد إلى الكسل والتسطر، أو إلى المغامرة والمضاربة والتسلط، أو بسبب الطبيعة أو الاعتياد الذى يفقد الأدمى قدرته على ضبط النفس واحترام الأصول، وهؤلاء وأولاء دائما أقلية فى مجتمعهم، ولا يتغير المجتمع بوجودهم تغييرا يذكر .

وإذ يأتى التغيير فى المجتمع من الساخطين عليه إذا كثروا وزادوا عن الحد المعتاد .. فهم فى سخطهم الذين ينشدون التغيير وينتظرونه ويستعجلون حدوثه ويتصيدون مقدماته وإرهاصاته، وقد ينشغلون فى البحث فى اقتراحات التغيير وكيفيته ونطاقه والترويج له والتبشير به .. يقبلون على ذلك لبواعث وأغراض دائما ما تكون مختلفة مختلطة قابلة

(*) المال ١٧/٦/٢٠٠٩

للتطوير والتعديل فى البدايات، ولكنها فى النهايات تنشأ الوصول إلى السلطة والزيادة فيها إذا ما أمسكت بأطرافها !

وكما زادت السلطة مالت إلى الانفراد وهانت فى عينها أقدار الآخرين، واستهانت بالتالى بأرائهم وإرادتهم، فى الوقت الذى تستضيف ويحسن عندها المترلفون والموافقون والمسايرون .. وكثيرا ما يتنامى مع ذلك سخط مكثوم يسرى فى الخفاء، ولا تهمل السلطة قياس نبضه وحركته ومحاولة تفريغه أو محاصرته أو إخماذه بالمسكنات تارة، أو بالدهاء تارة أخرى، وبالبلطش إذا لزم الأمر !

لذلك فأمثال هذه السلطات تصطنع الأعوان والأنصار اصطناعا يطرده بقدر معدلات الضيق أو السخط .. وتدخل السلطة وأدواتها الرقابية والرصدية فى تناسب طردى يزداد إيقاعه كلما ابتعدت ممارسة السلطة عن استبصار الواقع وقياس كنهه قياساً حقيقياً .. فتستعير - بمنطق النعامة - رؤية المترلفين المزخرفين المزينين، وترتاح إليها تجنباً لإزعاج خاطر الذى لا يريد أن ينشغل بما يثيره أو يقلقه، متصورة أو واهمة أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان !

ويبدو أن هذا الداء مزمن عصى العلاج .. فالسلطة التى تشكل البناء النفسى لصاحبها، وتتغلغل فى حناياه، ترفعه فى نظر نفسه إلى نوع من التآله .. ولا تزوده حينذاك بأكثر من طاقات آدميته .. وتآله صاحب السلطة يحول تعاون الأدميين إلى طاعة وولاء وامتنال .. فمثل هذا التآله ينقل صاحبه إلى الأعلى فى خياله وخیال الناس، فلا تكاد أقدامه تمس الأرض التى يكافح ويكدح عليها البشر، ولا يكاد اهتمامه يصل إلى هؤلاء " الموالى " إلا معجوناً مجدولاً مضفراً بحرصه على بقاء سلطته وشعبيته بينهم !

ويبدو أن السلطة لازمة من لوازم المجتمعات، لا غنى عنها فى كل مجتمع بشرى .. وهى فى كل صورها المتحضرة والبدائية نوع من

الألوهية بطول تعاطيها وإدمانها .. وكذلك فإن السخط عليها ملازم لوجودها .. فهي لا تبرأ أبداً من المآخذ والمعائب والتثريبات .. والانتباه إلى هذه المآخذ يحاصرها ويوفر علاجها أولاً بأول، ولكن لو غفلت عنها عيون وبصيرة السلطة تنامت وأرهصت، وجعلت تتصاعد وتتجمع حتى تنتهز أى ظروف سيئة للخروج من الكمون إلى الانفجار فتتعرض المجتمعات لأخطار القلاقل أو الثورات أو الانقلابات، لا ينجى المجتمعات منها إلا مجيء الانفراج والرواج !

وقد لا تتجح محاولة التغيير، فتفتك السلطة بها وبمن حاولوها وبمن ساندوهم .. بل ولا يؤدي نجاحها - إن نجحت - إلى إصلاح ما روجت له المحاولة أو نشدته من تغيير، وقد تؤدي بجهالة أصحابها وتمنية أنفسهم بالأمانى غير المبحوثة - إلى المزيد من الضيق والكساد .. فالرخاء لايجيء أبداً مع الاضطرابات والقلاقل، ولا يجيء - إن جاء - إلا بعد استقرار الأحوال واستتباب الأمان وهدوء النفوس واتخاذ الوسائل واتحاد الأغراض وملاك الأمور إلى سلطة بصيرة خبيرة مطمئنة ساعية إلى تحقيق مقاصدها فى أمان وسلام وارتقاء مجتمعاتها !

من

نراب (٢٨٠) الدوم (٠)

الطريق!

فى الحديث الثانى لقصيدة الدوم من ديوان " العارف " للشاعر المحامى العالم الأديب محمد عبد الله محمد، يتابع الشاعر الحكيم أحوال الإنسان فى تيهه وبحته عن الحقيقة التى ينشدها، وحيرته فى استطلاع مراده وفهم ما خفى عليه من أسرار الكون، بين الأرض التى عليها يعيش، والسماء التى إليها يتطلع، متأملاً دور العبادة التى جعل الإنسان يسرف فى زخارفها حاصراً نفسه فيها دون أن يدرك أن مسكن الرب سبحانه وتعالى فى القلوب .. فهل فى وسع الآئمة الباحث عن الحقيقة أن يعرف ربه ؟ .. لا سبيل إلى ذلك إلا بأن يصاحب الإنسان ربه .. هذه المصاحبة ليست فى وصف وصاف، ولا فى حبات مسبحة، ولا فى تصايح الأولياء والأقطاب .. إنه هنا قريب إلى عبده يتجلى له فى إعجازه المتبدى فى عظيم خلقه .. يقول محمد عبد الله محمد :

ذا همُّ الأرضُ أعطى الأرضَ مُهَجَّتَهُ تنسى السماءَ وتنسى الشُّهْبَ عيناها
وليس فى أَيْكِهِ غصنٌ لِيُبْلَغَ .. ولا نداءً من الأجواء ناداهُ
ولا صلاةً من الأعماق قد وصلتْ .. ولا صفاءً من الينبوع صافاهُ
وإنما فى نرابِ الأرضِ قَبْضَتُهُ لا تترك الأرضَ يُمتأهُ ويُسْراهُ

* * *

هذا البناء حسيّنا الربّ يسكنه لمّا ملأناه سجاداً وأخشاباً
وأرسل المسك في أطباقه سحباً وجلجل الصوت بالتطريب وأنساباً
قد تسبخ العين في أجواء منذنة لا تلمح الربّ أفعالاً وأسباباً
إذ لا نفكر أن الربّ مسكنه في القلب - يتركه - إن خان أو حابى

لن نعرف الربّ إلا أن تصاحبه ولن تذوق الهوى من وصف وصف
ياواهم الشوق ليس الشوق مستحّة ولا تصايح أصحاب وآلاف
ولا تذكر جيران بذى سلم ولا توقع إيلاف وإخلاف
ولو علمت بأن الربّ داخلنا كفيت رؤية أوصاف وأطراف

أشقّ شيء على الأفهام موقعها من البساطة فيما يصطفى الباري
تحبّ ألا ترى إلا عجائبه لا تبصر النهر في تياره الجارى
كانما الربّ لا يُمضى إرادته إلا خلال أعاجيب وأسرار
هذا وليّ وذا قطب وذا وتد وذاك يأمر في الفردوس والنار

هذى الوريقات حول الثوب موقعها من دودة القرّ مرعاهاً ومأواها
تشكّ من فقر الأيام خضرتّها ولا تعطل غزل القرّ أو شأها
نكالب ذى لبّ على مائة من العناية تمنّاها وخلاها؟
وكيف يطمع أن تبقى حماقتة فلا تموت ولا تفنى رزاياها؟

قد صار لنا ذاق القلب راحتة لم يبق قشاً وأوراقاً وريشات
حامت عن بعض حتى الموت قبرة لمّا احتوى عشها أغلى اللبانات
تبنى النفوس عشيات مذهبة تعاقب الأمن في دفء القشيشات
لم تفهم الربّ يا مسكين ترى سوى تشابك ريشات وقشّات

إِنَّا رَبَطْنَا مَرَاسِينَا بِخَالِقِنَا
وَأَنَّا فَوْقَ هَذِي الْأَرْضِ مَوْضِعُنَا
وَنَقْبَلُ الْمَوْتَ كَمَا نَبْقَى بِرَفَقَتِهِ
وَلَيْسَ فِي يَدِنَا مِنْ ذَلِكَ سِوَى أَمَلٍ

وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْبَخَرَ دَوَّارٌ
فِي قَشْرَةِ الْقَشْرِ قَدْ تَبَلَّى وَتَهَارَ
مَعَ الْحَيَاةِ وَيَفْنَى التَّلْجُ وَالنَّارُ
فِي الرِّبِّ سَيَّارٌ وَفَرَّارٌ

من

تراب (٢٨١) بئر الخيانة (*)

الطريق!

لبعض الناس قدرة عجيبة على لوى الأشياء، وتسميتها بغير مسماتها فتقلب المعانى والقيم إلى أضدادها، فتعتبر الخديعة أو الخيانة شطارة، وقد تعد السطو فروسية، أو تصم الحذر من الخيانة بأنه جاسوسية، وتخلط المبادئ بالسياسة والسياسة بالمبادئ، لتختار حين تريد المسمى الذى تريد ! قرأت مؤخراً رواية لقصة مؤسفة سقطت فى بئر الخيانة حتى القاع، ومع ذلك لا ترى ما كانت فيه من خسة وإفك ووضاعة، والأغرب أن تحرص على روايته للناس، لا ترى ولا تستطيع أن ترى ما سقطت فيه، وتتصوره من قصص البراعة فى مقاومة السياسة انتصاراً للمبادئ والدعوات، مع أن ما فعلته هو عين السياسة ولكن فى ضعة وخسة أبعد ما تكون عن القيم والمبادئ الدعوية التى تتشج بها وتأخذ على الآخرين مخالفتهم عنها !

لا تجد مجرماً أو صاحب خطيئة إلا ويحاول تبرير جرمه، وقد يرتاح بينه وبين نفسه إلى تبريره المصطنع .. هذا ما يسميه علماء النفس بحيلة "التبرير"، وهى من الحيل والآليات الدفاعية التى يهرب بها الأدمى من مواجهة ذنبه أو خطيئته .. والتبرير كذب واحتيال على النفس، ولكن باللاعى، بيد أنه إذا استهدف التبرير إقناع الآخرين خرج من منطقة اللاوعى إلى منطقة الوعى، وصار كذباً مكشوفاً لصاحبه، ولذلك فغالبا ما يسعى لتغليفه لينطلى على الآخرين، ويتقبلوا ما يسبغه على أفعاله السيئة أو

(*) المال ٢٢/٦/٢٠٠٩

المخادعة أو المنحطة من تبريرات تردّها إلى الحصافة أو النباهة أو
السواء !!

لا يختلف أحد على أن الطعن في الظهر ذميم لا ينتمى إلى شمائل
الفروسية أو شجرة المبادئ .. فلا بد له إذن من تبرير حتى لا يصطدم
الطاعن بالفروسية والمبادئ التي يتظاهر بالتمسك بها .. وهذا التبرير
معروف في علم النفس ولدى علمائه وأطبائه، ولكن العجيب أن يُقدم
التبرير إلى الناس فيكشف سعيه لتبرير فعلة ذميمة لا يقرها الدين ولا
الأخلاق وإن نفشت في دنيا السياسة !

ربما كان عذر صاحب " آليّة " التبرير، أنها عملية تلقائية تجري في
اللا وعى، فلا يلمسها بدقة أو بوضوح، ولكن حال التبرير يمضى بلا عذر
ولا ذريعة إذا كان مجدولا في منطقة الوعي، يتشجّ اتشاحا كاذبا بالنين
ليمضى إلى نقبض الدين، وبالمبادئ التي يقضها ويريد انخداع الناس
بذرائعه وربما بتباريكم لها !!

لست أريد أن أشغلك بماذا فعل السيد الراوى الأريب ؟! ولا بتفاصيل
ما روى تدبيره وتخطيطه وترتيبه ولقاءاته سرا وراء أستار الخفاء ليسبر
لبيل طعن من أراد طعنه في الظهر، ولا تفاصيل ما استباح به أن ينسج
خيوط مؤامرة خسيصة يستعين فيها بالشیطان للطعن غيلة، ولكن العجيب
اللافت أن يعتب على رفاقه أنهم حذرا منه رصدوا ووثقوا ما فعل،
واعتبر رصدهم تجسسا ومواجهتهم له خيانة دون أن يستطيع توصيف ما
يفعله هو بتوصيفه الصحيح !

ومع أن أمارات هذه الخيانة فاحت من قبل أن يفصح المتفاحص عنها
بل وكررها قبل ذلك الإفصاح مرتين، حتى بلغت بال تكرار حد الإدمان، إلا
أنك لن تستطيع أن تقاوم ذهولك من جرأته غير المتفطنة على سرد ما
فعله، ناهيك بالتباهى به، فلم نعرف قط صاحب خيانة نكراء يتباهى
بخيانتة، أو مقارف جرم يتفاخر بجرمه، أو جانحا عن الحق يستعرض

جنوحه فى فخر وكأنه سطر به صفحات للبطولة والمجد .. يبدو أن تكرار المغالطات واستعارة المبررات واستمراء الحيل، يطبع فى النفس خللاً تفقد به القدرة على النظر وموازنة الأمور والتمييز بين الحق والباطل، وتصاب من جرائه بمعنى ضرير لا ترى معه قبح ما تفعل ناهيك بأن تفخر وتتباهى به!!

على قدر ما يصيب القارئ من امتعاض وهو يقرأ تفاصيل خطة وخطوات الخيانة التى سطرها بطلها بيراعه، على قدر ما يشفق من انعدام فطنة الراوى المتباهى وعمى بصيرته، ويشكر الله عزّ وجل أنه سبحانه يمهّل ولا يهمل، فجعل الفاعل نفسه يقدم بيده تفاصيل ما اقترفه خلافاً للدين والحق والقيم والأخلاق ! ليلحق به الخزي وبفعلته النكراء التى ساقها على سبيل التفاخر والمباهاة !!

من

نراب (٢٨٢) فبصرك اليوم حديد ! (٥)

الطريق!

تتعدد أسباب انكشاف الغطاء أمام الآدمى لو تظن لما يمر به ولا يستوقفه .. كنت راقداً على ظهري أتابع فى جهاز " المونيتور " مسرراً القسرة التى يمررها الخبير الفرنسى الماهر جان فاجيديه فى شبكة الشرايين التاجية المحيطة بقلبي الذى أثخنه معى فى رحلة الحياة .. لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أجرى فيها القسرة العلاجية منذ أجريت التشخيص الأولى فى سبتمبر ١٩٨٩ بمعرفة الصديق الأستاذ الدكتور الخبير المصرى الرائع جلال السعيد تبتعتها جراحة " الباس " فى مستشفى القديس لوقا فى هيوستن بالولايات المتحدة فى ١٦ يوليو ١٩٩٠ .. مضى (١١) عاماً على هذه الجراحة قبل أن تسن الشرايين التاجية، فلاحقها الدكتور السعيد بقسرة علاجية ناجحة وضع فيها دعامتين للتوسعة على اختناقين يضيقان على مجرى الدم .. ومن أيامها وصرت مواظبا على هذه القسرة العلاجية مع الدعامتين، كل سنتين .. فلم أكن مستجدا وأنا أتابع عمل الخبير الفرنسى على شاشة " المونيتور " بأحد مستشفياتنا الكبرى .. وبالاعتياد زال القلق الذى يعترينى فى البدايات، ولكن فجأة انقطع التيار الكهربائى، وانقطع " المونيتور " واضطر الطبيب الفرنسى للتوقف عن العمل .. وانحبست الأنفاس، بما فيها نفسى طبعاً .. ولكن الدكتور فاجيديه كان أهدأ الجميع .. يبدو أن آلاف العمليات التى أجراها قد أكسبته إلى جوار الخبرة ثقة وطمأنينة وثباتاً .. فى هذه الدقائق

(٥) المال ٢٣/٦/٢٠٠٩

العشر التي مرت على وكأنها عشرة قرون، كنت معلقاً بين السماء والأرض .. سلك القسطرة ناعم بمكانه بداخل الشرايين لا يزحزحه الخبير الفرنسي لأنه لم يعد يمكنه متابعته، وليس أمامه إلا أن يسحب أو يصبر حتى عودة التيار الكهربائي المقطوع .. تنفست الصعداء مع الجميع حين عاد واستأنف الطبيب عمله، لأرى بوضوح أن مصائرنا تبدو في لحظة معلقة على شعرة .. هذه اللحظة ومضة فارقة ينكشف عنك فيها الغطاء فيبدو بصرك حديداً يرى ما لم يكن يراه .. مضى الطبيب يحرك سلك قسطرته بمهارة، وسمعته يطلب موافاته بالدعامة الأولى .. التقطت أذنأي رقم المقاس المطلوب، وتابعت المساعدين وهم يبحثون عنه، لالتقط أنفاسي حين وجدوه .. ولكن ما للمقاسات ودعامة شرايين قلبي .. لقد عاد الطبيب الفرنسي يطلب مقاساً آخر للدعامة الثانية، وتابعت في الثانية كما تابعت في الأولى رحلة البحث عنه .. لم يرحنى أنهم لم يعثروا له على المقاس المطلوب بالضبط، فاستعاض عنه بمقاس قريب .. لا أدري لماذا ورد إلى خاطري في هذه اللحظات حيرتي حين لا أجد مقاس ٤٢,٥ لحذاء أعجبنى، فأتماحك في نصف نمرة فوق أو تحت لأن الحذاء يروقني، ولا أحب أن يفوتني .. ولكن المقاس هنا مقاس " دعامة " سوف تستقر بداخل الشرايين التاجية المحيطة بقلبي لتوسع المجرى على الدماء .. ترى هل يمكن أن يرد عليها مايرد على الأحذية من تليين لتتسع وتريح، أم أنها قد تحتاج شذها على " قالب " لتوسعتها إذا استعصت ؟! .. كنت أتابع بقلب واجف رحلة البحث عن المقاس ثم رحلة " الدعامة " وهي تدفع بالشرايين لتستقر في المكان المطلوب . وللمرة الثانية، بنفس العملية، ينكشف الغطاء الكثيف لأبصر كيف أننا في كل لحظة بيد السماء، تمنّ علينا إذا منبت، وتحرمنا إذا ضنت، ولا مطمع لنا إلا في لطفها ورحمتها .

خرجت من غرفة العمليات وأنا أحمد الله عزّ وجل أن كشف عني الغطاء مرتين في برهة وجيزة، لأرى في هذه اللحظات الفارقة ما قد تعزّ رؤيته في السنوات الطوال، وقد يمضي بنا العمر دون أن نراه إلا لحظة

فراق الحياة التي فيها قال القرآن المجيد: " وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ
وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ
حَدِيدٌ " .

من

تراب (٢٨٣) لا تلم كفى إذا السيف نبا ! (*)

الطريق!

لم يستطع كثير من الزملاء أن يخفوا دهشتهم من مظهرى بعد الانتخابات الأخيرة لنقابة المحامين، وربما ظن بعضهم أن هذا الاطمئنان البادى على محض تماسك أحجب به فقط أو أخفى مرارة أو حزنا أو إحباطا !

ولكنى حقيقة لا أشعر بمرارة أو إحباط، وإن شعرت بالحزن، ولكن على المصير المظلم للمحاماة وللنقابة التى تعرضت لعملية سطو تنبأت بما سوف يصاحبها من اشتباكات ومشاهد مأساوية تلاحقنا الآن كل يوم بل كل ساعة! أجل تمنيت أن أنجح فى الانتخابات لأحقق رسالة الإصلاح التى طمحت إليها، ولكنك مهما فعلت وصنعت وامتلكت، ومهما أبديت وأديت وأخلصت وجاهدت - لا تملك أن تعاند الدهر، والدهر هنا يرمز إلى قوتين كبيرتين تتنازعان نقابة المحامين كل بنفوذه وإمكانياته وطريقته .. الإخوان المسلمون بكتلتهم التصويتية الكبيرة والمصمتة، والحكومة بسلطاتها ومالها ونفوذهآ وآلياتها، وأيضاً بأرتال المتابعين لإشارتها طلباً للغنائم .. فإن فانت فيكفى الرضا الذى قال فيه الحكيم الساخر المصرى : " إن فانتك الميرى اتمرغ فى ترابه " !

يبدو أن استحالة معاندة الدهر، هى التى كانت فى ضمير الشاعر حين

قال:

(*) المال ٢٤/٦/٢٠٠٩

لا تلم كفى إذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبسى !

إباء الدهر هنا لم يخل من منفعة بالحسابات الشخصية .. فيبدو أن الحقيقة كانت تحتاج إلى زلزال يكشف الغطاء عن أنه لا صحة للأكاذيب التى بُنيت على مدار ثمانى سنوات تدعى بلا منطق أننى رجل الحكومة والإخوان !

لم أك ضيقاً بأن يقال إن الإخوان المسلمين يرون تأييد ترشيحى، فالتأييد الذى يأتيك شهادة لك لا عليك، إلا أن تكون أداة طيعة فى اتفاق تبادل دخلته لتبادل التصويت والولاء . وما يقال عن الإخوان يقال أيضاً عن الحكومة .. لم تكن بى حاجة، ولن تكون، لبذل الولاء لأى طيف من أطيايف السياسة أو السلطة .. وليس معنى هذا أننى أشد محاربة هؤلاء أو أولاء، أو أحارب طواحين الهواء كما كان يفعل دون كيشوت فى رائعة سرفانتس .. ولكنى مؤمن برسالة المحاماة، وأن قوتها فى حريتها وحرية بنيتها التى منها يستمدون قدرتهم على المناضلة فى سبيل الحق .. وأن مقتلها فى تكبيل حريتها وحريةهم وتطويقها وتطويقهم .. أما على المستوى الفردى فلا شئ يعادل الإحساس بالواجب، وبقيمة الحرية وجمال الحق فى ذاته .. تعرف تجربة السنين الطويلة أن الحاجة مذنة، أو كما قال الحكيم : " لطالما أذل الحرص أعناق الرجل " .. والكريم لا يحب لعنقه أن تكون ذليلة، ويعرب أن الأذى إذا كبر نضج، وإذا نضج فهم، وإذا فهم استغنى، وإذا استغنى تحرر !

الشعور بالتحرر هو سبب الطمأنينة والرضا والارتياح .. من يضمن بنفسه حينما ينادى نداء الواجب مخافة العناء أو إشفاقاً من الإخفاق، لن ينعم قط براحة البال، وكيف تأتبه وهو أمام نفسه قبل الآخرين - قد تخاذل وتوانى وضمن بنفسه عن إنقاذ السفينة المشرفة على الغرق ويتخاطفها أصحاب المطامع والشعارات ! .. أطيب من هذا التخاذل خوض الغمار، وبذل كل ما فى الوسع للإنقاذ والإصلاح ..

الزلزال الذى حدث، لا يخلو مع مأساته المفجعة، من منفعة إيقاظ

الوعى الغائب، ولقت الأنظار للأكاذيب والشعارات ولما يدبر للمحاماة
ونقابة المحامين .. واستيقاظ الوعى هو مقدمة المقدمات لأى إصلاح ..
الأشخاص تجيء وتذهب، ولكن تبقى قوة المجموع المستمدة من يقظة
الوعى وسلامة الفهم .. ولن يخلو الزلزال المروع من المنفعة إذا أعطى
العظة والدرس وأيقظ الوعى الذى غاب طويلا .. أليس يقال : " رباً
ضارة نافعة " ؟!

ستمضى الأعوام، وتتطوى الصفحات المرة، وتفتح صفحات جديدة
وضاءة سلاحها اليقظة والوعى اللذان يتوجب الإمساك بهما .. يومها لن
تضيع هباءً جهود الذين أخلصوا وجاهدوا وانتصروا للحق ولم يشفقوا مما
ينالهم من أذى فى سبيل نصرته وإعلائه !

من

تراب (٢٨٤) من قصيدة المرجان (٥)

الطريق!

فى الحديث الخامس لقصيدة " المرجان " من ديوان " العارف " للشاعر
المحامى الأديب الفقيه الضليع محمد عبد الله محمد، بطوف شاعرنا الحكيم
بأحوال الإنسان الذى لا يحس بقيمة الثمين وسط الزحام، بل ويفتح بابيه
للبخس المألوف، ويمضى به العمر دون أن يدرك مافاته ووقع فيه إلا
بالحزن والتأنيب عند الصحوه !

وكم يحس صاحب الفكر بالإحباط، وتعتصر قلبه الأحزان على ما
يلاقيه، فى دنيا حل فيها الخوف وفروعه وجذوره محل الصدق والشجاعة
! .. وحين يرى كيف يمكن أن تتحول السلبيات بالصبر إلى نعم، ويتوارى
الجلد والمجاهدة الصادقة فى سبيل الحق والكمال والجمال - يقول الشاعر
الحكيم محمد عبد الله محمد :

قد لا نجسُ بالثمين مَعْنَا	إذ قد يغيبُ فى غمار الزحمة
وقد يمرُّ كالغريب وجِـلَا	أو كالضريح بين خُبثِ الصبية
وقد يذُقُ البابَ لا يَنظُلُهُ	ويخلُ المألوفُ فورَ الدُقَّةِ
وكم يفوت العُمُرُ لا ندرُكُهُ	بالحزن والتأنيب عند الصحوه

* * *

هذى غصُونُ الذهنِ لا تتركُهُ	إذ بناتُ الذهنِ فيها تلعبُ
يجرى على آثارها يستبقُ	صاحبُ الأفكار أنى تذهبُ

(٥) المال ٢٥/٦/٢٠٠٩

تَعْتَصِرُ الْقَلْبَ وَقَدْ تَنَهَّشُهُ
قَدْ عَقَلْتَ الْخَوْفَ كَيْ تَرْهَبَهُ

كَمْ لَهَا فِيهِ نَيْبٌ تَنْشَبُ
عَقْلُكَ الْمَسْئُولُ وَهُوَ الْمَذْنِبُ !!

إِنْ مَا حَقَّقَ هَذَا الْأَمَى
حَسَنَ الدُّنْيَا بِمَا حَسَنَتُهَا
زَادَهَا لِلْخَوْفِ فَنُونًا عِنْدَمَا
تَمَلَّ الْأَرْضُ بِمَا يَمْلُونَهَا

فِيهِ لِلْخَوْفِ فِرْوَعٌ وَجُذُورُ !
وَهِيَ فِي الْعَقْلِ عَلَى الْخَوْفِ تَدُورُ
كَثُرَتْ فِيهِ جُيُوبٌ وَبُذُورُ
بِكَلَامٍ وَخُطَامٍ وَقَشُورُ وَقُبُورُ

فَإِنَّكَ الْخَوْفُ إِلَى الصَّبْرِ عَلَى
وَمَضَى الْوَقْتُ فَصَارَتْ نَعِيمًا
وَلَقَدْ تَفَخَّرُ إِذْ تَذْكُرُهَا
وَمَنْ الْخَوْفِ عَلَى الْخَوْفِ نَمًا

غَضَّةِ الذَّنْبِ وَسَمِّ الْحَيَّةِ
وَعَلَى الْعَاقِلِ شُكْرُ النِّعْمَةِ
وَلَقَدْ تَخَشَّى حَسُودَ النَّظَرَةِ
عِنْدَكَ الْحِرْصُ وَحُسْنُ النِّيَّةِ !!

إِنَّ هَذَيْنِ عَلَى طَوْقِهِمَا
هَلْ صَقَا الْقَلْبَانِ لَا بَلْ حَقِظَا
شِدَّةَ الْعِزْمِ كَسْتَنَا جَلْدًا
وَإِذَا تَبَحَّثْ فِي دَاخِلِنَا

صَارَعَا الْمَوْتَ وَخَاضَا اللَّجَاجَا
سَالَفَ الْخَوْفِ وَكَفَا الْوَهَجَا
رَبَّمَا يُبْذَلُ فِيهِ الْمُهْجَا
بِذْرَةُ الْخَوْفِ لِمَنْ قَدْ حَلَجَا !!

خَافَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ
الرُّقَى تُتَلَّى وَقَدْ تَتَفَعَّنَا
نَحْقُظُ الْخَوْفَ بِمَا نَطْعُمُهُ
خَالَ صَوْتُ الْخَوْفِ فِي نَاصِحِنَا

خَافَ أَنْ تَحْسُدَ عَيْنُ أُخْتِهَا
شَاعَ فِي الْأَمْنِ لِمَا قَلَّتْهَا
مِثْلَمَا تَحْقُظُ أُمُّ بِنْتِهَا
دُونَ أَنْ تَسْمَعَ نَفْسَ صَوْتِهَا

انْفَضَّ الْحَيِيبَ قَلْبِنِ تَمَلَّاهُ
تَغْلِبَ الْخَوْفُ إِذَا تَغَرَّفَ فِيهِ

بَسَوَى الشُّوكِ وَقَشْرِ الْأَمَلِ
إِنَّهُ فِكْرُكَ فِي الْمُحْتَمَلِ

يَلِدُ الرَّاحَةَ ذَهْنُ الْعَجَلِ
إِنَّهُ يُحْسِنُ سَيْرَ الْمَهْلِ !

* *

ما نما عندك جسُّ العالَمِ
ومشى فيهم ضريحُ النائِمِ
مثلما جَفَّ لسانُ الصائِمِ
إنْ رأوا ظِلَّ قُدومِ القادمِ

أَرخِ الرَّأْسَ مِنَ الْحَمْلِ فَمَا
وَكَلَّ الْقَلْبَ إِلَى فِطْرَتِهِ

لم يزلْ جُؤَاكُ خَوْفُ الْقَرْيَةِ
وجَّهَ الْقَوْمَ بَنَانُ الْغَابِرِ
وحكاياتُ عليهم يَبْسُتُ
طَارَ لُبُّ الْقَوْمِ فِي قِشْرَتِهِم

من

تراب (٢٨٥) اجن العسل ولا تكسر الخلية ! (*) الطريق!

هل تأمل أحد في هذه العبارة التى تجرى مجرى الأمثال، وجعلها د. عائض القرني أحد فصول كتابه : " لا تحزن " !؟

ما معنى هذا المثل فى رفع أو مقاومة الحزن، والحيلولة دون اجتياحه حياة الإنسان ؟ إن الحزن تأتى رياحه من سوء علاقة الإنسان بنفسه أو بالناس .. والعنف والجفاء والصلف والتعالى والغطرسة هم أعداء المحبة والوئام . أليس فى الحديث النبوى أن الرفق ما كان فى شيء إلا زانه .. وما نزع من شيء إلا شانه .. هذا اللين يتجلى فى كلمة طيبة أو بسملة حانية .. إن طالب العسل لن ينال منه قطرة إذا كسر وأتلف الخلية، وهو يجده حين يشاء طالما بقيت الخلية ملاذاً للنحل ومكاناً لشهد العسل الذى يفرزه . كذلك علاقة الإنسان بالإنسان .. الرفق فى المعاملات هو مفتاح القلوب، والله سبحانه وتعالى يعطى الرفق ما لا يعطى على العنف .. اكتساب الأصدقاء فن مدروس قوامه جسور المحبة والمشاعر الإنسانية الفياضة .. دستور السعداء، مهما جنح الآخرون، هو نداء القرآن الحكيم : " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ " .. فالرفق يكفكف أحزان الآخرين، وينزع الغل والغضب، ويفتح أبواب المحبات .. الرفق مفتاح لكل العواطف الجياشة، وطاقة لا تنفذ للمشاعر الطيبة والحلم الدافئ ونسيان الإساءة والصفح الجميل ..

(*) المال ٢٩/٦/٢٠٠٩

في حديث رسول القرآن عليه السلام : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من آمنه الناس على دمانهم وأموالهم " .. وإنه عليه السلام ليقول محفزاً أصحابه : " إن الله أمرني أن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني " .. هذا هو ما قال فيه القرآن المجيد في وصف المؤمنين الذين مثواهم الجنة : " وَالكَائِمِينَ الْعِظَةِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ " .. وبشر هؤلاء بثواب عاجل من الطمأنينة والسكينة والسلام .. وهم ممن قال تبارك وتعالى فيهم إنهم إلى جوار ربهم الغفور الرحيم، في جنات ونهر " فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ " .

لا شيء كالذكر في تعمير القلوب وزراعة اليقين .. الذكر هو الجسر الموصول إلى رب العالمين .. قال فيه القرآن المجيد " وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ " .. فلا عمل أشرح للصدر وقربة من الله، إلا ذكره عز وجل . " أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " .. من اطمأن في رحاب ربه بحسن ذكره، هانت أمامه صعاب وهموم وأحزان الدنيا .. فبذكره سبحانه وتعالى تنقش سحب الخوف والفرع والهَم والحزن، وتتزاح الكروب والمنغصات، ويرتاح الذاكرون وهم بذكرهم في حضرة ربهم الذي لا تغفل عنه سبحانه ولا تنام.

الله تبارك وتعالى وعد في كتابه العزيز بأن يذكر من يذكره : " فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ " .. ومن ذكر الله سكنت روحه واطمأننت وابتهجت نفسه .. الذكر ليس محض ترديد باللسان، بل هو استحضار الرب تبارك وتعالى في وجدان وفكر وقلب الذاكر الذي لا يصرفه شيء في السماء أو الأرض عن ذكر ربه .. في هذا الذكر إيمان بالله تتجلبب أمامه كل الغشاوات، واطمئنان إلى عونه سبحانه وتعالى ومدده تهون أمامه كل الصعاب والمعضلات .. فيه يقول رسول القرآن عليه السلام : " ما جلس قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده " .

لا معنى للذكر باللسان والقلب لا .. لا بد أن يقرن الذكر على الدوام بحضور القلب مع الله تبارك وتعالى، وبه تشرف الدعوات .. وفي الحديث النبوي أن الذكر مقدم على كل العبادات .. على المسلم أن يختار له المكان الشريف، وأن يحسن فيه الخطاب . وكان صلى الله عليه وسلم يدعو ربه أمام المسلمين وأهل بيته فيحسن الذكر والدعاء .. يقول عز وجل في كتابه العزيز : " وَانْذُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ " .

من تراب (٢٨٦) وتقدرون فتضحك الأقدار! (١٠) الطريق!

لا يمكن للمتابع لمشهد " السطو " الراهن على نقابة المحامين، إلا أن يستحضر الحكمة القائلة : وتقدرون فتضحك الأقدار !

لا يمكن لأحد أن يعرف ما هي حجج أو ذرائع أو تعللات الإخوان المسلمين في الإتيان بمن أتوا به إلى موقع نقيب المحامين، ولكن المقطع به أنهم أملوا فيه خيراً .. لأنفسهم على الأقل .. فعلى قدر غياب المقومت الموضوعية في المدفوع به إلى الموقع، على قدر ما تبرز الاعتبارات الشخصية التي أقامت الأمل والرجاء، ودعت إلى التغاضي عما لا يتغاضى عنه، وذلك لا يكون ولا يمكن أن يكون لغواً بغير غرض يأمل على الأقل في العرفان بالجميل وتوابع هذا العرفان !

ولم يلق الإخوان المسلمون بالآ إلى التحذيرات بأن من كان طوعاً لك، سيكون طوعاً عليك، مادام سواك امتلك ما يجذب ويغري بالطاعة والولاء!!

وعلى الصعيد الآخر، توسم نقابيان سابقان، وتوافقا باتفاق أو بغير اتفاق، على الانتصار بالحزب الحاكم على المحاماة والمحامين، وشجعا الحزب وحرصاه، كل في دائرته وبطريقته ووسائله، على " الطمع " في نقابة المحامين، فنسى الحزب - ونسى معه المشجعان أو المحرضان، أن علة إصدار الدولة القانون ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ بخصوص النقابات المهنية، كانت تغليق الأبواب أمام تسلل الحزبية إلى النقابات والأعمال

النقابية، ولأن الغرض مرض كما يقولون، تحالف الأطراف فى حلف غير مقدس، بدأ مسئول الملف مبشراً له بأن " هوى " الحزب مع الشاغل السابق لموقع النقيب، ثم جعل يزيد الأمر وكادة مبشراً بالدعم الهائل بـ (٢٧) ألف صوت قال إن الحزب نجح فى جذبهم وجذب ولائهم إليه وإلى من يرشحه على موقع النقيب أو العضوية !

وأنت الرياح بما لا تشتهى السفن، لا سفينة الزملاء بالإخوان، ولا سفينة النقابيين السابقين اللذين حرصا الحزب الحاكم على الطمع فى " امتلاك " نقابة المحامين !

عاد الطرفان : الإخوان والنقابيان، بشروى فقير، فقد " قدروا فضحكت الأقدار " !

انقلب السحر على الساحر، فمع دخول مرشح الإخوان على موقع النقيب، لم يقلح الرنق فى مداواة موقف مرشح الحزب الوطنى المنافس له، ولم يعن الحزب أصلاً بأمر النقابى السابق مسئول الملف فتركه الحزب الوطنى دون أن يمد له يد عون، ولعله جافاه، ومن ثم لم يشمل الرنق، فكانت النتيجة أن خرج الطرفان خالى الوفاض !

خلو وفاض النقابيين السابقين واضح، فقد أخفقا فى الدخول، أما خلو وفاض الإخوان فقد جاء من خلال قراءتهم لإمكانيات وقدرات ومكونات من دفعوا به إلى موقع النقيب .. فلم تغلح التحذيرات أو النصائح التى بذلت له فى الحفاظ على توازنه بين الأطراف المتصارعة، فسلم سريعاً لكفة السلطة، وانضوى تحت لوائها، وقبل وهو يشغل موقعاً جليلاً شغله عظماء، أن يحضر اجتماعاً عقده أمين تنظيم الحزب الوطنى لـ (٢٣) عضواً من أعضاء المجلس بفندق الفورسيزونس، حيث قام أمين تنظيم الحزب الحاكم المهندس أحمد عز بتحديد تشكيل هيئة المكتب مراعيّاً ألا تشمل ولو واحداً من قائمة الإخوان التى تقترب من النصف، رغم الرنق المضاد، بمصادقة السيد المدفوع من الإخوان لموقع النقيب والسادة

الحاضرين من الحزب الحاكم ومن والاهم ليلحق بالركاب !!!

المفارقة التي تكشف لعبة الأقدار، أن الإخوان المسلمين حيل بينهم وبين أن تكون لهم أغلبية، بينما دخل مرشحهم على موقع النقيب ليعطيهم ظهره ويستقبل الحزب الحاكم والسلطة بكل جوارحه، أما النقابيان السابقان فقد وقفا بالخارج على الأعتاب، يتابعان مشهد الحزب الحاكم الذي دخل النقابة بصولجانه وبفرس المهندس عز، بينما لم يعد أى من النقابيين بأى ثمرة، اللهم إلا التحريض والدفع بالحزب الحاكم للاستيلاء على نقابة المحامين !!

لن يكابد آثار هذا السطو الواقع على نقابة المحامين، إلا المحامون .. أما ما حاق بالإخوان والنقابيين المحرضين للحزب الوطنى، فهو مصداق للحكمة القائلة : "وتقدرون فتضحك الأقدار" !

ولكن يبقى السؤال المهم : هل ما يفعله المهندس أحمد عز خروج على النص، أم أنه هو النص !!؟

مشروعية الدولة (٢)

واحترام القانون !

من

نراب (٢٨٧)

الطريق!

ينص الدستور المصري، مثلما تنص دساتير العالم المتحضر، على أن سيادة القانون أساس الحكم في الدولة، وينص - كي لا يقع أى التباس - على أن الدولة ذاتها تخضع للقانون . هذا يعنى أن احترام القانون هو أساس مشروعية الدولة، تخرج من هذه المشروعية إذا جافته أو ضربت بأحكامه وسيادته عرض الحائط !

فى ١٦ مايو قبل عدة أيام من انتخابات نقابة المحامين التى كان محددًا لإجرائها يوم ٢٣ ثم ٢٠٠٩/٥/٣٠، صدر حكم لمحكمة النقض تنقضت القرارات أنه أرسى فى مدوناته، أنه فى حالة الحكم ببطلان انتخابات نقابة المحامين، وهو ما صدر به حكم نهائى من مجلس الدولة فى فبراير ٢٠٠٨ عن انتخابات ٢٠٠٥، يكون النص الواجب التطبيق - هو نص المادة ١٣٥ مكررا من قانون المحاماة ١٩٨٣/١٧ المضافة بالقانون ١٩٩٢/٩٨، وأن هذا النص بالغ الوضوح لا يحتمل أى تأويل فى أن صاحب الولاية والاختصاص بإجراء الانتخابات فى هذه الحالة الخاصة - هو المجلس المؤقت لمحكمة استئناف القاهرة، وأنه إذ لم يصدر فى قانون المحاماة ما يعدل هذا النص، بل وزاد وكادة بصدر القانون ١٩٩٧/٢٠٠٨ خاليا من أى تعديل يمسّه، فإنه لا محل لأى التباس فى أن هذا النص هو الواجب التطبيق على حالة نقابة المحامين بعد الحكم ببطلان انتخاباتها السابقة (٢٠٠٥)، وأنه لا محل لتطبيق القانون ١٩٩٣/١٠٠ المعدل بالقانون

(٢) المال ٢٠٠٩/٧/١

١٩٩٥/٥، ومن ثم يكون المجلس المؤقت لمحكمة استئناف القاهرة القائم بإدارة النقابة تنفيذاً لحكم القانون والمادة ١٣٥ مكرراً محاماة - هو صاحب الولاية المختص دون سواء بإجراء الانتخابات .

يومها تحدث العارفون بأحكام القانون، لافتين نظر لجنة محكمة جنوب القاهرة إلى أنه يتعين عليها احتراماً للدستور الذي نص على أن سيادة القانون أساس الحكم في الدولة، وعلى خضوع الدولة للقانون، أن تطالع حكم محكمة النقض صاحبة المرجعية العليا في المبادئ القانونية، قبل أن تجرى انتخابات في ٢٣ أو ٢٠٠٩/٥/٣٠ يكون محكوماً عليها سلفاً بالبطلان بل والانعدام، لافتقاد لجنة محكمة جنوب القاهرة لولاية واختصاص إجراءاتها !

وبرغم توالى التحذيرات في الصحف والفضائيات، مشفوعة بحجتها، إلا أن لجنة محكمة جنوب القاهرة أصرت وراسها وألف سيف - على إجراء الانتخابات بمعرفتها هي لا غيرها في الموعد الذي ضربته، متذرة - ولا ذريعة ! - بأن حيثيات حكم محكمة النقض لم تصلها ولم يتح لها الاطلاع عليها !

وصممت لجنة محكمة جنوب القاهرة، حتى على عدم تأجيل الانتخابات ولو لأسبوعين كيما تطالع حكم محكمة النقض الذي تذرعت بأنه لم يتح لها الاطلاع عليه، وأشاحت عن كل الاعتبارات التي أبدت لها - أنه لا مصلحة لها ولا لأحد في إجراءات انتخابات بلا ولاية ولا اختصاص .. ون هذه الانتخابات سوف يكون مآلها الحتمى للبطلان، ولكن بعد أن تكون الجهود قد بذلت بلا معنى وأنفقت الأموال العامة بلا طائل، فضلاً عن قلقه أوضاع توجب الحكمة وسيادة القانون الترفع عن التسبب بلا حكمة ولا حجة ولا منطق في قلقاتها !

بعد أيام من انتخابات ٢٠٠٩/٥/٣٠ ذاعت حيثيات حكم محكمة النقض وظهر فيها ما كانت لجنة محكمة جنوب القاهرة عنه تحيد، وتوالت طعون

المحاميين - استناداً إلى حكم النقض - ببطلان هذه الانتخابات التى يبدو للعارفين بالقانون، أن مآلها الحتمى إلى الحكم ببطلائها إذا مضت الأمور فى إطار احترام الدولة للقانون الذى جعل الدستور سيادته أساس الحكم فى الدولة، وعلى وجوب خضوع الدولة له !

الغريب أنه تزامن مع ظهور معالم هذه الكارثة التى كانت تستوجب " استقالة " المتسببين فيها، حملت الصحف أنباء تكريم وزير العدل لرئيس لجنة محكمة جنوب القاهرة بمناسبة تعيينه مساعدا للوزير، مع أن الحساب - إن لم تكن الاستقالة - كان هو المعنى الوحيد الحاضر، لا التكريم، لقاء هذا المشهد الذى عصف بسيادة القانون ووجوب احترام الدولة لسيادته والخضوع له !

لا جدال أن من حق السيد وزير العدل أن يختار معاونيه ومساعديه، إلا أن التكريم فى هذا التوقيت المتزامن مع موجبات المراجعة والحساب، بدا وكأنه يخرج لسانه للدستور والقانون !

فهل لم يعد أحد يبالى فى بر مصر المحروسة بأن مشروعية الدولة واحترام القانون قسيما شريكا متلازمان لا يفترقان ؟!

من

تراب (٢٨٨) المنبطحون بلا نداء ! (*)

الطريق!

فى المعارك الحربية، أو التدريبات العسكرية، يتنادى الجنود بالانبطاح
تجنباً لطلقات النيران أو شظايا القنابل والمدافع .. ولكن هناك فى الحياة
السياسية من يبادرون بالانبطاح بلا نداء .. لا ينتظرون من أصحاب
السلطة والوصول أن ينادوهم أو يحثوهم على الانبطاح، فقد أضمره
وأزمرعه واتخذوه وسيلة للزلفى والنفاق والصعود !

يتلقى المنبطح والمبذول له أو لهم الانبطاح، يتلاقون على الكذب
وإدمان معانقة الخطأ .. مرد هذا إلى فقدان الصدق، والتراضى على ذلك
باتفاق أو بتوافق كالاتفاق .. يعلم الباذل المنبطح أنه نحى جانباً كرامته
وعقله وفكره وفهمه وإرادته، وأحل محلها أصدادها .. عن اقتناع يعرفه
بينه وبين نفسه مهما واره أو حاول مواراته عن عيون الناس! .. ويعلم
المبذول له الزلفى نفاقاً وانبطاحاً أن " البضاعة " المقدمة إليه هى
المطلوبة، وهو لا يريد سواها .. يريد من المتزلفين ما يجرئه على ما يريد
لا تقويته على ما يجب! .. والمتزلف المنبطح قد حسم أمره فى دنيا السياسة
والمغالطات، وعرف أن الصدق مع النفس ومع الوطن بضاعة بائنة، وأن
النافع المفيد لمآربه وأغراضه هو ما يكرس وجوده واستمراره وصعوده،
حتى وإن أظلمت الدنيا وأقسفت من الصدق والحق !

أشر ما فى هذا الانبطاح الذى شاع وذاع، أنه لا يقتصر على تغييب
عقل وفهم المنبطح والمبذول له، وإنما يحصد كل يوم إقبالاً لمجاراته ممن

(*) المال ٢٠٠٩/٧/٢

أدركوا أنهم ينالون بالرياء والنفاق والوصولية، ما لا يناله بالجهد والصدق أصحاب العقل والحق والكرامات .. معنى هذا أن يفقد المجموع - أو الأمة إن شئت - العقل الجمعى، وتتهار القيم المجتمعية، وتتوارى المبادئ ومعها الحق والجمال، ويحل محلها القبح والدمامة والتراضى على اعتناق الوهم والكذب ومجاعة التافه والرائج، والإقلاع عن التأمل والتفكير والفهم والجد، والاستسلام لما يُراد ويفتح مراقى الصعود حتى وإن كان من بعده الطوفان على الوطن الكبير أو على المحيط التشريعى أو التنفيذى أو الأمنى أو الإدارى أو النقابى أو الاجتماعى أو الثقافى أو الرياضى !

لن نخطئ قط اكتشاف حقيقة الانبطاح ومسالك المنبطحين .. فدوائر التراضى على ذلك دوائر ضيقة مهما بدت متسعة للغارقين فيها .. أنت والكل يعرف وهم يتخللون وهماً أن أحداً لا يعرف .. ولكن المصيبة أن ينطبع الأداء العام والأداء الخاص والخاص العام بهذا الطابع، فيتوارى الصدق والحق جبراً أو قنوطاً ويأساً .. وتدور الأمور هنا وهناك بهذا المنطق الضرير الذى يحرم الفرد والمجموع والأداء من عناصر الحق والصواب !

وبين هواة أو محترفى الانبطاح، ودوائر المتلقين للرياء المبذول، تراضى الطرفان على لغة عالية زاعقة للخطاب، تعتنق الشعارات وتستتر بها عورات الواقع المرير الذى تراضوا فيه على اغتيال الحقيقة، واعتناق وتصدير الوهم، والتلاعب فى قواميس المفردات اللغوية لإطلاق مسميات مستعارة تدارى الرياء والنفاق والكذب والوصولية والتفاهة والانتهازية واللصوصية والخيانة، فتطلق عليها بدائل تصدرها للناس على أنها الحيطة والنصافة والسياسة والتكتيك والمهارة والشطارة والموارة والمداورة التى لا تستغنى عنها سياسة الأمور التى لا تحتمل سذاجة البسطاء، ولا تفصح أبوابها ومسالكها ومراقبها إلا لأصحاب المهارة المنهزة التى تستغنى بما تريده وتحققه لنفسها عن مصالح وحقوق الأوطان !

أمثال هؤلاء المنافقين الكبار، عشاق الانبطاح، تلفاهم يتصدرون الصفوف أو المواقع في الجنازات وسراقات العزاء وحفلات الأفراح، يقفون أو يجلسون أو يمشون كالطاووس، وكأنهم يقولون لعباد الله : " يا دنيا انتهدي ما عليك قدى !"

لا الدنيا ستتهدم لهم، ولا التاريخ سيفسح لهم .. أمثال هؤلاء يعانون الوحدة والعزلة والمرارة بعد زوال أيام الإقبال وضياح الوهج الكاذب .. حين يستعرضون تاريخهم الذى كانت تمازجه الأهاريج ودقات الطبول، فلا يرون إلا سكاكين فى أحشائهم بعد أن انكشف عنهم الغطاء، ولم يبق لهم عمل طيب يتماسكون بذكراه فى سنوات الأقول والانعزال !

فرصة هؤلاء المتزلفين فى النمو السرطاني المريض، أن يغيب الوعي العام مع غياب قنوات التبصير المبرأة من هوى الانحيازات والتحالفات، و المنقادة لأصحاب النفوذ والصولجان، أو المتابعة لأصحاب المال والثروات، أو الساقطة فى بئر الرشاوى والعطايا، أو محترفى " التجارة بالرأى " لقاء الثمن الذى تتعدد أنواعه وأشكاله بين طلب الرضاء والترقى، أو تحاشى المطاردة والنكال، أو فتح جيوب الأكفان لتلقى الجعول والهبات!! أيها السادة لقد اختلط الحابل بالنابل فى مصرنا المحروسة بفعل تزريف حملة المباخر الذين يفردون العناوين الكبار والصفحات الطوال للحديث عن تزوير بعيد بعيد هناك فى إيران، ويضنون بسطور ضئيلة عن تزوير قريب قريب جرى هاهنا فى وطننا، تزريف به الإيرادات، ويتعانق مع الانبطاح فى إقامة صورة كاذبة تجافى الواقع المر الذى انطوت عليه قلوب المخلصين من أبناء الوطن !!!

من

تراب (٢٨٩) اذهب أنت وربك فقاتلا ! (*)

الطريق!

يبدو لى من ممارسات الحياة، ومراقبة الأحوال والناس، أن بنى إسرائيل ليسوا أصحاب التفرد فى قائلتهم لموسى عليه السلام : " اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون " !

دللتى التجارب على أن هذه الآفة باتت شائعة راسخة مستقرة فى بلادنا .. لا شيء أيسر وأسهل من التمنى، أما التعب والكد والمجاهدة لتحقيق الأمنيات فلا شأن به للمتمنى .. يكفيه أن يلقي بأمنيته لمن يتوسم فيه القدرة على إنجازها .. عليه هو إذن أن يذهب إلى ربه فيقاتلان لتحقيق المراد !

لم يكن جديدا أن ألاحظ هذه الظاهرة، ولكنها تفشت واستشرت حتى بين النخبة وصفوة النخبة .. معنى هذا أن النخبة — ومن ورائها المجموع — قد انسلتوا تماما عن الانتماء .. الانتماء للوطن وللمجموع وللمهنة أو الوظيفة أو النقابة .. وضعف أو وهن أو تلاشى الانتماء ظاهرة مرضية خطيرة تحجب المجموع عن العطاء، وتكتفى بمقاعد المتفرجين .. حتى الفرجة ربما انشغلوا عنها بهمومهم ورغباتهم الشخصية المحضة .. الأخطر من ذلك أن احتجاب النخبة والأكفاء بعامة يترك الساحة للطامحين بلا قدرات ولا كفاءات ولا إمكانيات، ويفتح المجال للطبل والزمر وطلاب المنافع والمنافقين ومحترفى " السبوبة " والمشتاقين للظهور فى الصورة مهما كان الكادر وأيا كان المضمون !!

(*) المال ٢٠٠٩/٧/٦

تتعرض نقابة المحامين والمحاماة، وخذهما مثلاً، لمنعطف خطير جداً سوف يهدم النقابة هدماً، ولعله قد هدمها بالفعل، ويقوض المحاماة نفسها تقويضاً يحتاج إلى جهود عشرات السنين لإعادة بنائها إن نجح وكف المتدخلون عن إفساد الأمور !

المشهد الراهن الذى اغتيلت فيه النقابة، والجميع يرى ويبصر، وتغتال فيه المحاماة نفسها اغتيالاً لا يرضى أحداً يحب هذا الوطن ويفهم فهمها حقيقياً دور ورسالة المحاماة .. هذا المشهد لا علاقة له بالمحاماة ولا بأصولها وثقافتها وتقاليدها .. المؤسف أن النخبة بين المحامين، وهى تضيق بل وتتآكل يوماً بعد يوم بفعل السن أو الرحيل أو الاعتزال أو الإمعان فى الانصراف للذات، تشاهد ما يجرى وتتحسر أو تعلن التحسر عليه، ثم لا تلبث أن تنصرف إلى ذاتها، تبكى أو لا تبكى على حال النقابة والمحاماة، ولكنها لا تخرج إن خرجت من القمقم إلا لتغسل يدها من القضية بالإلقاء بها إلى واحد مشفوعة بعبارة بنى إسرائيل الأثيرة : " اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا هنا قاعدون " !!

قعود النخبة هو الذى سلم النقابة والمحاماة للهاوية .. وما لا تدركه النخبة المكثفة بمؤسساتها الخاصة ونجاحها الخاص وإقبال الشهرة والمال عليها، أن ذلك سوف يطولها فى النهاية ! .. وأنه يمس كرامتها مادام يمس كرامة المهنة ونقابتها، وأن استمرار انعزالها وتآكل دائرتها مع تزايد الأعداد الغفيرة للداخلين كل عام، دخولا مقرونا بحرمانهم من أبسط فرص العلم والتدريب والتثقيف والممارسة، هذا التآكل والتزايد المقابل — يعينان أن المشكلة تتفاقم، وأن الحل يبتعد، لأن الكتلة المتزايدة المحرومة حقيقة من المحاماة، تشكل فى النهاية أغلبية عدية تصويتية، يقع معظمها فريسة للخديعة والأوهام وأفاعيل تدخل فى دائرة الاحتيال، فتصدق أو تميل للتصديق متعلقة بالوهم لعل فيه مخرجاً من الاختناق الضارب من حولهم، أو تسلم إرانتها وأصواتها لمن لا يحسنون توظيفها فى الاتجاه الصحيح، لغلبة المنافع الصغيرة أو النظر الضرير، وتتراكم هذه الآفات

والسلبيات وتتنايد وتقوض الحاضر وقد قوضته وتلبد جو المستقبل
بغيوم كثيفة لا سبيل لاجتيازها إلا بعزائم وهم صادقة من محامين
حقيقيين صادقين !

عار على أى محام، ناهيك عن النخبة، أن يعطى ظهره للمحامية التى
أعطته وبوأته ما هو فيه، وعار عليهم أن تنهار مهنتهم وتقوض أركان
نقابتهم وهم يتفرجون .. الحسرات التى يطلقونها من وقت لآخر - لن
تصلح رتقاً ولن تنقذ السفينة الغارقة ! .. إن الذين يركبون المشهد الراهن
غرباء عن المحاماة ورسالتها وعلمها وثقافتها وقيمها وتقاليدها .. والذى
مكن لهم هو انكفاء النخبة على ذاتها وانصرافها عن شئون الدار .. لا
يشفع فى حسر المسؤولية عن هذه الكارثة التذرع بأفاعيل وتداخل الحكومة
والحزب الوطنى، أو الأثر السلبي للكتلة التصويتية المصمتة للإخوان
المسلمين .. فالفرقاء : الحكومة وحزبها، والإخوان - يستخدمون
محامين، أغلبهم ممن ضاق عليهم الخناق فى المهنة ولا يجدون متفهما
لتحقيق ذواتهم فيها، وبعضهم من المترلفين الطامحين المتطلعين إلى
الصعود فى أروقة الحكم أو الحزب، وهؤلاء وأولاء منصرفون إلى مآربهم
وأغراضهم ولا يعنيتهم شىء من أمر المحاماة التى باتت من مهن الزمان
الماضى !!!

رأيت فيما يرى النائم، حلم الزمن الجميل الفائت، يوم قال الأنصار
لرسول القرآن عليه السلام : " لن نقول لك ما قاله بنو إسرائيل
لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت
وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون !"

من

تسراب (٢٩٠)

ملك والأ كتابة ؟! (*)

الطريق!

لا أدري لماذا كثر ويكثر الحديث هذه الأيام عن حل مجلس الشعب .. وتكثر الاجتهادات مع الحديث، هل الحل قادم، أم أنه إشاعة .. وما هي مبررات أو تعلّات الحل إن كان قادمًا، وما هي الحالات التي يجوز فيها حل المجلس، ويتحدث الأستاذ الدكتور أحمد فتحي سرور رئيس المجلس في عدة تصريحات، ثم يتحدث فيطيل الحديث لمجلة المصور التي نزلت بحديثه على ورقة الغلاف تحت عنوان : " حيثيات حل مجلس الشعب " !

إن فالحل قادم، وإلا ما جاء عنوان الغلاف : " حيثيات الحل " .. ولكنك تتابع الحديث بالداخل فلا تجد في التضاعيف والتفصيلات ما يفيد أن رئيس المجلس قال إن الحل قادم وأن هذه هي حيثياته، ولكنك تراه يقول إن القول بحل مجلس الشعب هو رجم بالغيب، ويقول لمن نشروا أخباراً عن الحل لا يوجد من هو عليم ببواطن الأمور، ولكنه يعود فيقول : ' لا أعلم هل سيتم حل البرلمان، والضرورة للحل قد تتوافر وقد لا تتوافر " .

ويلق المحرران : " إنك لا تستطيع الإمساك بالحل من فم الدكتور سرور، كما لا تستطيع أن تستنطق باستمرارية المجلس، لتسأل : حل أم لا حل " !

إذا كان الأمر كذلك فمن الذي طرح أصلاً أو أطلق إشاعة الحل؟! — هل هي نبت شيطاني جاء من فراغ ؟! . علمتنا الأيام أن لا شيء بهذا الحجم يطرح بهذه الكثافة طرحاً عشوائياً يتوه مصدره !

(*) المال ٢٠٠٩/٧/٧

حل المجالس البرلمانية من أخطر السلطات التى تمنحها الدساتير لرؤساء الدول، لأنها تخل بمبدأ الفصل والتوازن بين السلطات الثلاث : التنفيذية والتشريعية والقضائية .. لذلك أحاطتها الدساتير بشروط وأسباب بالغة الأهمية، وهى فى جميع الأحوال لا تكون مقدماتها وأحداثها بعيدة عن الشارع السياسى وعن الجماهير .. فكما أن سحب الثقة من الحكومة بمعرفة البرلمان باب خطير لا يجىء بغير أسباب معلنة ومعروفة وواضحة، ولا يكون إلا بأغلبية خاصة، فإن حل السلطة التنفيذية للبرلمان خطير بل أبلغ خطراً ومن المحال أن ينبت فجأة بلا مقدمات وأسباب .. هذه الأسباب لا تجرى فى الخفاء ولا وراء الكواليس، وإنما أمام الكافة .. وتكون هذه الأسباب من الأهمية والخطورة بحيث تبرر قرار الحل الذى لا يجرى بمعزل عن جماهير الشعب ناهيك عن السلطة التشريعية ذاتها !

لاحظت فى تصريحات الدكتور سرور قوله إن : " الدستور ينص على أن رئيس الجمهورية من (حقه) الحل " .. ولعل سيادته يريد أن يقول إن من " سلطته " الحل .. فالحق غير السلطة، لأن السلطة قد تمارس بحق وقد تمارس بغير حق، وقد توصف ممارستها بأنها تتطوى على عيب إساءة استعمال السلطة .. فالحق هو هدف السلطة التى ينبغى أن تتشده، فإذا خرجت عنه كانت ممارسة السلطة غير مشروعة !

ولاحظت أيضاً أن الدكتور سرور أضاف لهذه العبارة قوله إنه : " مع دعوة البعض للحل والبعض للتريث، وبالتالى فإن ما يدور من لغط الشارع السياسى حول احتمالات الحل هو أمر طبيعى فى أى حياة سياسية يوجد فيها نص دستورى يسمح لرئيس الجمهورية بالحل بدون استفتاء ولكن غير الطبيعى الشائعات بأنه بعد أسبوع أو غداً سوف يصدر القرار " !

لقد توقفت طويلاً أمام هذه العبارة .. ليس فقط لأننى لم أر أو أسمع أحداً يدعو للحل، ولكن لأن الدكتور قابل بين الدعوة للحل وبين ما أسماه " التريث " !! .. فهو لم يضع " اللا حل " مقابل " الحل "، وهى المقابلة الطبيعية، وإنما وضع " التريث " .. وهى مقابلة لا تقوت من مثل الدكتور

سرور، ولا تعنى سوى أن الحل قادم قادم، وأنه لا يوجد فى المقابل سوى: التريث " !! .. هذه واحدة، والثانية التى استوقفتنى أن سيادته قفى فقال إن ما يدور فى الشارع السياسى حول الحل أمر طبيعى، فلما راد المقابلة لم يضع فيها " اللأ حل "، وإنما قصرها على الشائعات بأن الحل " بعد أسبوع أو غداً "، ليزيد الأمر وكادة أن الحل قادم قادم، وأن " اللأ حل " غير مطروح وإن كان مطروحا " التريث "، وأن غير الطبيعى هو فقط التنبؤ بأن الحل بعد أسبوع أو يوم !!!

لماذا أفردت المصور غلافها وصفحاتها - الآن - لهذا الحديث وهذه العناوين، وهو ما جرت عليه صحف غير حكومية ولكنها تضرب أخماساً فى أسداس، وتكثر الاجتهادات والتحليلات أن الحل بغرض التهيئة للتوريث، وتقلص نسبة المعارضين والمستقلين للمصادرة على إمكانية جمع أى منافس للتوقيعات التعجيزية التى نص عليها الدستور لخوض انتخابات رئاسة الجمهورية .. ويكثر الحديث والاجتهاد والتحليل واللغط، والناس حائرون، يتحدث الكل، ولكن الرئاسة تلتزم الصمت التام !

هل السكوت علامة الرضا، وهل هذا الطرح الكثيف بالونة اختبار لفكرة تدور فى الأروقة رأى الراعون لها أن يهيئوا لها أو يجسوا نبض رد فعل الناس ؟!

ليس فى وسعى أن أجزم بما وراء السطور .. سطور هذه المعالجات الملحة فى هذا التوقيت بالذات، ولكن ظنى أنه لا يوجد ما يقلق القلقين حول ردود أفعال الناس ! .. فالناس ملهية عن التوريث وغير التوريث بهموم لقمة العيش التى صارت من اليد للفم، وبأخبار كرة القدم والاتهامات الموجهة للمنتخب القومى وفرصه فى كأس العالم، وانتخابات اللجنة الأولمبية، وبقضية سوزان تميم وقضايا كلافين والشاذ جنسيا المحكوم بعقابه بنصف قرن !، وأنفلونزا الطيور وأنفلونزا الخنازير وأوهام الطاعون، وتدخلات أمين تنظيم الحزب الحاكم لتشكيل هيئة المكتب وإدارة نقابة المحامين، والتراشق المؤسف الذى جرى فى الرباط فى اجتماع اتحاد

(!؟) المحامين العرب !، وقانون مضاعفة الرسوم القضائية، واحتكارات الحديد والأسمنت، وإثارة المعارك في أندية القضاء !، ومباغثة تغيير تشكيل مجلس القضاء الأعلى، والاحتقانات الطائفية التي لا تكاد تهدأ حتى تتفجر، والقضايا الطائفية المتبادلة في مجلس الدولة، والخلاف حول لائحة الأقباط للأحوال الشخصية، والتطبيع بين الضغط على مهرجان السويس لحضور إسرائيلي أو الحوار الدائر حول الترجمة هل لا يجوز أو يجوز من العبرية للعربية أم من خلال لغة وسيطة وناسر وسيط، وانتخابات ومخاطر إيران !، وملاحقات واعتقالات الإخوان المسلمين، وانفتاح شهية الإحالة للمحاكمات العسكرية، والحديث القضائي المطول للأميرة فريال بنت الملك فاروق !!

غريب بات أمرنا وبات اغتراب حقوقنا في بلادنا .. صرنا جميعا متفرجين على مشاهد تعد من وراء الكواليس لا نعرف عنها ولا عن مطبخها شيئا، مثلما لم نعرف من هي اللجنة الخفية التي نهضت على وضع التعديلات الدستورية الأخيرة التي زادت الحصار فجعلته تطويقا، مع أننا عرفنا أسماء لجنة الثلاثين التي أوكل لها وضع دستور ١٩٢٣ في زمن الملك المستبد أحمد فؤاد الأول ؟!

من

تراب (٢٩١)

حق الصمت ! (*)

الطريق!

يجرى فى الحكَم والأمثال أنه إذا كان الكلام من فضة، فإن السكوت من ذهب ! . فلماذا ؟! . يقال إن الكلمة إذا خرجت منك ملكتك ولم تعد تملكها، وهذا صحيح .. وهى فى هذه الحالة يمكن أن تكون عليك، ولا فكاك لك منها إن لم يكن لك فيها عذر يقبله المنطق ويقبله القانون !

ويقال إنك حين تتكلم لا تنصت، مع أن كل إضافة لتقافة ومعلومات ومخزون معارف الآدمى تأتيه حين ينصت أو يقرأ، ولا تأتيه حين ينكلم، وأن الحصيف هو الذى يقاوم شهوة الكلام وله مزلقه، ويؤثر الإنصات وله بالتأكيد مزاياه وفوائده، فهو أمان لصاحبه فضلا عما يضيفه الإنصات إليه.

ويقال إن الكلام شهوة ورغبة، وإن الصمت والإنصات وقار واتزان وحكمة .. والحكيم من يقاوم الشهوات والغرائز، ويؤثر التأمل والتدبر والتفكير، وهم ضيوف لا يطرقون باب المشغول بشهوة الكلام، ويهربون إلى من امتلك زمامه وقاوم شهوته وجعل الحقيقة والمعرفة قبلته وغايته !

هذا وغيره كلام يقال وصحيح فى مجال الفكر والاجتماع، ولكن القانون يعرف حالة خاصة يطلق عليها " حق الصمت " .. وهذا الحق يعطيه للمتهم ولا يعطيه للشاهد، فالشاهد يعاقب إن نكل عن أداء الشهادة أو هرب من أدائها أو كذب فيها، وهو فى جميع الأحوال لا يملك إلا أن يلبى

طلبه لأداء الشهادة، وأن يحلف اليمين القانونية على أدائها بالصدق والحق، وأن يلتزم بذلك فعلا فيما يقوله ويدلى به ..

أما المتهم فلا يلزمه القانون بالكلام، وأول ما يلحق للمتهم المقبوض عليه في الدول المتحضرة التي تحترم القانون والشرعية - تنبيهه إلى أن من حقه الصمت، وإلى أن أى كلام قد يصدر عنه يمكن أن يؤخذ عليه ويحسب دليلا ضده !

وقانوننا المصرى لم يفته حق المتهم فى الصمت، وإن فات التطبيقات العملية رعاية هذا الحق وتنبيه المتهم المقبوض عليه إليه .. وأقرت الأحكام وقضاء محكمة النقض حق المتهم فى الصمت، وأكدت أن استعمال المتهم لهذا الحق لا يجوز أن يؤخذ كدليل عليه أو قرينة ضده، لأن الحق فى الكلام حقه، يؤديه متى يشاء ويحجبه إن أراد، ويعفى من أداء اليمين إذا أراد أو قبل الكلام، وتبطل أقواله مهما تضمنت من اعترافات، لعدم مشروعية إلزامه بأداء قسم أو يمين أعفاه منه القانون، فيصير سماعه بعد القسم عملا غير مشروع يبطل كل ما يترتب عليه !

قد يصعب على غير رجال القانون فهم حكمة وغاية إعفاء المتهم من الكلام إذا أراد الصمت، أو إعفائه من اليمين إذا تكلم، ولكن المتأمل سوف يدرك أن " العدالة " هى غاية هذا الضمان لتأمين أى متهم فى موقفه الضعيف من أن يتعرض لأى صورة من صور الإكراه، بما فى ذلك إكراهه ولو بالوعد على كلام قد يضره ويؤذيه، وبما فى ذلك ضغط القسم أو اليمين الذى ربما يجبره على أن يدلى بما لا يريد الإدلاء به .. والقوانين حين تفعل ذلك، لا تفعله استهتاراً بشأن الجريمة أو رغبة فى فتح الأبواب أمامها، وإنما تقديرا لاعتبارات أسمى تتعلق بالحرية والعدالة .. هذه الحرية لا تتجزأ ولا تنفصل عن العدالة .. فهما قسيما مشاركان لغاية واحدة هى حق الإنسان فى أن يكون له ضمان يحفظه ويصونه من أى تغول أو افتتات عليه، لذلك قالوا إن تبرئة ألف مذنّب، أفضل وآمن من إدانة برى واحد .. فإدانة البرى تفزع الضمائر الحية، وتقوض أركان

وأمان المجتمع حتى قيل إنه تتشقق له السموات، وجاء فى الحديث الشريف أنه " ظلمات يوم القيامة "، وقال القرآن المجيد فى شأن الظالمين : " مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ "

. حضرتتى هذه الخواطر وأنا أقرأ عن لؤذ الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح ومن حذوا حذوه ممن قبض عليهم من الإخوان المسلمين فى القضية الأخيرة من ضمن القضايا المتكررة التى تفتح عليهم من وقت لآخر، تسم فيها رائحة السياسة قبل اعتبارات ودوافع الحق والقانون .. هنالك لا يجد المقبوض عليه أمام جدار السلطة العالى، وقدراتها اللامحدودة، إلا أن يلوذ بالصمت الذى أعطاه له القانون وكفل استخدامه حين لا يجد الإنسان ملاذاً له سواه !

لقد كان لى موقف مشابه فى المحاماة، يرجع إلى ثمانينيات القرن الماضى، حين كنت حاضراً بتحقيق فى نيابة الأموال العامة، وأردت أن أسجل قبل بدء سماع موكلى اعتراضاً، اعترض المحقق على تسجيله إلا بنهاية التحقيق، وهو ما يفرغه من مضمونه وقيمه، فلم أجد أمامى إلا أن أطلب إلى موكلى أن يلوذ بحق الصمت، وأن يمتنع عن الإجابة على أى سؤال، وقد فعل .. لا زلت أذكر كيف تفهم المرحوم المستشار صلاح عبد الستار المحامى العام عدالة ومنطق ومشروعية طلبى، وحق المتهم إزاء ذلك فى الصمت، وأذكر أيضاً كيف أبى الأستاذ المحقق - وكان عادلاً - فأنصف من نفسه، وسجل الطلب وأتاح لنا طبقاً للقانون أن نطلع على ما سوف نُسأل فيه - قبل ٢٤ ساعة على الأقل من الاستجواب!

أحياناً يكون " الصمت " أبلى حجة وأثراً من أى كلام !!

من

تراب (٢٩٢)

الطريق!

الدين والدولة (*)

والمصالح و الناس !

يبين للمتأمل أن الدين بعمامة لا يأخذ مساحته كدين جديد لقوم أو لمحيط،
إلا مع إيجاده لمعتنقيه مصالح وأغراضاً جديدة خاصة لم تكن لديهم أصلاً
من قبل .. أو لم تكن بالقدر الكافي أو بهذا القدر من القوة التي تصاحب
الدين الجديد .. والذي يوجد لهم أيضاً في ذات الوقت مثلاً أخلاقية جديدة
تعيش في ظلها هذه المصالح والأغراض، أو يوجد صوراً جديدة لمثل
أخلاقية قديمة تعيش في ظلها هذه المصالح والأغراض وتتمو وتقوى
وتتكاثر .

لذلك رأينا أن كل دين يشكل حتماً وفي النهاية " حركة سياسية "،
ويخلق حتماً وجوداً جديداً في المحيط السياسي .. والملاحظ أن
معظم " المقاومات " التي شجرت أو شبت في مواجهة الأديان !- صدرت
من منطلق الاعتراض أو التحفظ على الحركة السياسية أو الوجود
الدينامي!

هذا وخروج الدين - أي دين - من المحيط السياسي، معناه أنه فقد جدته
.. أي فقد ركني هذه الجدة وهما : المصالح والأغراض الخاصة بالمتدينين
به والمثل الأخلاقية التي تعيش في ظلها هذه المصالح والأغراض الخاصة
بالمتدينين .. هذا يحدث حتماً حينما تنتسج دائرة انتشار الدين وتعتنقه الأغلبية
الغالبة، ومن ثم تصبح تلك المصالح والأغراض أغراضاً ومصالح للمجتمع
كله، وتصير في كفالة القوى السياسية التي لديها القدرة والقوة الفعلية -

(*) المال ٢٠٠٩/٧/٩

على قيادة الناس وتدبير شئونهم ومصالحهم والسيطرة على المحيط
السياسى سيطرة تتناسب تناسباً طردياً مع مقدار ما تمتلكه القوى السياسية
من قدرة وقوة .

ولا يوجد تلازم حتمى فيما يتعلق بالدين الجديد، بين إيجاد المصالح
والأغراض الجديدة والمثل الأخلاقية الملائمة لها، وبين أن تكون نشأة هذه
المصالح على يد صاحب الدعوة أو الرسالة أو الداعى إلى الديانة .. بل إن
المثل الأخلاقية تسبق فى تشكيلها نشأة المصالح والأغراض .. فهذه المثل
الجديدة هى التى تنشأ وتثبت ثم تنمو وتتكاثر من حولها هذه المصالح
والأغراض .. فصاحب الرسالة أو الدعوة لا يتقدم إلى جمهور المتلقين
بمصالح وأغراض، وإنما يتقدم إليهم بالمثل الأخلاقية والقيم الدينية التى من
خلال اعتناقها وانتشارها واشتداد عودها - تثبت وتتنامى من حولها،
مصالح تدفع أشخاصاً آخرين غير النبى أو صاحب الرسالة - فى اتجاه ما
تشكله المصالح والأغراض الجديدة من قوة اجتماعية تساندها فتصير حتماً
وفى النهاية - موجوداً جديداً فى المحيط السياسى .

على أن انتصار المصالح والأغراض الجديدة، هو فى ذاته شوكة أو
نفوذ أو سلطان دنيوى .. فإذا بلغ هذا الانتصار مبلغاً مؤثراً - استجدَّ معه
التسيّد على مقدرات المجتمع .. عندئذ تصير الدولة - أى دولة -
محكومة فى الدرجة الأولى بتلك المصالح والأغراض الجديدة التى تنامت
وقويت واشتد عودها وصارت بحكم اعتناق الأغلبية الغالبة لها تعبيراً عن
المجتمع وحاكمة بالتالى للدولة .. والواقع أن الدولة موجود سياسى فقط،
يسوس ويدير واقعه، ويدبر الأمور العامة المشتركة للخاضعين لشوكة هذا
الموجود السياسى وسلطانه .. ووفق السياسة التى يرسمها هو بحسب
ظروفه وحاجاته وأطماعه ومثله .. ويكون ذلك كله ممتزجاً على الدوام
ومخلوطاً على نسب تقديرية بحتة .. لأن الكلمة الأخيرة تكون للجهة
صاحبة الشوكة والسلطان النهائيين .. وهى دائماً وأبداً شوكة سياسية
دنيوية وسلطان سياسى دنيوى .

ولكن أى شوكة سياسية أو سلطان سياسى، لا يستطيع بلا عقاب عاجل أو آجل - أن يتحدى بطريقة أو بأخرى ظروف أتباعه وعواطفهم القوية طويلة العمر .. دينية أو غير دينية .. لأن الشوكة ليست ولن تكون شوكة إلا بطاعتهم، والسلطان ليس ولن يكون سلطانا إلا بمساندتهم ومساعدتهم، وهنا يكمن الفارق الجوهرى بين النظم الدكتاتورية التى تتوسل إلى ما تريد بفرض الشوكة والسلطان بالقوة والقهر والاستبداد، وبين النظم الديمقراطية التى تتغيا مساعدة وتعاون وتجاوب الناس عن فهم وحب واقتناع !

من

تسراب (٢٩٣) تحالف الفقر والجهالة (*)

الطريق!

وسط زحام أخبار الأغنياء الذين جمحوا وجنحوا واستشروى جموحهم وجنوحهم في البلاد في كل باب، قرأت خبراً يقطع نياط القلوب على بؤس الفقر ومزالق الجهل .. أسرة بسيطة أكلها الفقر، ويبدو أن الرجال غابوا عن جيلين بالأسرة لأسباب لم يغطيها الخبر، فاضطرت الأم وابنتها للعمل بالخدمة .. المشكلة أن الابنة لديها طفلتان .. مَلَك بنت عام وبُوسى بنت عامين، فماذا تفعل الأم والجدة بهما حين يحين موعد خدمتهما في البيوت كما فهمت .. إن أم الطفلتين لا تستطيع أخذهما معها إلى مقر عملها، وهكذا الجدة، فما الحل ؟!

المفارقة أن أسباب " الجرى " على إعاشة الطفلتين، هي أسباب التصرف الأحمق الجاهل الذى لجأت إليه الجدة .. إنها تخشى على الطفلتين إذا تركتهما طليقتين - من مخاطر الكهرباء أو غيرها من مصادر النيران أو الطاقة، فلم يهدأ عقلها العقيم أو قل جهلها المتعاقب مع بؤس فقرها، إلا إلى ربط الطفلتين بحبل إلى السرير لحمايتهما من الحركة .. لم تتصور فزع الطفلتين بعد أن تغادرهما، ولا تصورت وخز الحبل فى معصميهما أو كاحليهما - لست أدري، ولا توقعت بجهلها وضغط بؤسها أن الطفلتين ستروعان وتملآن الدنيا صراخاً وبكاءً .. لم تدرك الجدة أن الوضع الذى كبلتها به أشد وقعا وإفزاعا من المخاطر التى أرادت - على قدر عقلها ! - حمايتهما منها .. من لطف المقادير أن صراخ الطفلتين قد

(*) المال ٢٠٠٩/٧/١٣

استلقت الجيران، فسارعوا بإبلاغ الشرطة التي لم تجد أمامها سوى كسر باب الشقة لإنتقاذ الطفلتين قبل أن تعود الجدة لتفاجأ بما لم تتوقعه، فتبرر تصرفها الأحمق في بلاهة بأنها أرادت حمايتهما من المخاطر بتقييدهما إلى السرير .. دون أن تدرك أن الطفلتين كانتا يمكن أن تموتا من الفرع والبكاء !!

هذا الخبر المأساوى، لم يأخذ من الصحف التي نشرته أكثر من مربع أو مستطيل لا تزيد مساحته على ٢٠ سم٢، بينما ذات هذه الصحف أفردت وتفرّد الصفحات الطوال لإشباع أشواق النميمة بتغطيات ما أنزل الله بها من سلطان عن جموحات ونزوات وجنوحات وجرائم الأغنياء .. لوازم الشغل وتلبية الإثارة والتقاط الصور فى جميع الأوضاع، ورصد الدموع والتأوهات أو الحركات والسكنات والإيماءات، وأخبار وتعاطف وأحزان وصدمات الأهل والأصدقاء والأحباب، والحوادث التي فجأة طفقت تشغل المجتمع كله ويفتى فيها العارف والجاهل، كيف يمكن الخروج من المأزق ومشاهدة مصر على مدى شهور فى الصحف والمجلات والفضائيات والأرضيات !!

لم يلفت تغطيات الإثارة التي تلاحق أفراح أو تأوهات الأثرياء وتحصى ضحكاتهم وهمساتهم ولمساتهم، لم يلفتها ما فى خبر الجدة التعسة التي دفعها بؤس الفقر وظلام الجهل إلى هذا الحل الضريع بتكبير حفيدتيها اللتين لم تفارقا بعد سن الرضاع بهذه الصورة التي لم تدرك ما فيها من نبو عن الرحمة التي كانت هى هى دافعا إلى ما تصورت بجهلها أنه حماية لهما .. هذا المشهد الجهول البائس يستحضر مشهد القطعة التي تأكل صغارها لحمايتهم من الخطر ! .. لو التفتت إليه الصحافة المقروءة والمسموعة والمرئية، لوجدت فيه مادة خصبة مليئة بقضايع تحرك الماء الأسن وتوقظ الفكر والضمير الراكد وتفجر قضايا بالغة الخطر والأهمية تاه المجتمع حكاما ومحكومين عنها، ولم يعد يلتفت أو يبالى بما تحمله من نذر شؤم بتعرض المجتمع كله للانهييار ما لم يتداركه الله بلطفه ورحمته!

قبل أن نملأ الدنيا هتافاً واهتماماً وتفاسيحاً بعمل المرأة وتمثيلها فى البرلمان إلى آخر جدول وأجندة اهتماماتنا التى نتجمل بإثارتها والتسابق إلى إظهار التقدمية فيها، علينا أن نفكر وندير البدائل لعمل المرأة فى رعاية أطفالها فترات غيابها للعمل أو التمثيل النيابى أو الشعبى أو المحلى أو الاجتماعى، فإذا كانت هذه المستويات لديها الثقافة والفرصة والإمكانيات لإحضار مربيات أو شغالات أو الدفع بالأطفال إلى دور حضانة ورعاية، فإن الأغلبية الغالبة لنساء مصر من نوعية وفقر وجهل وانعدام ثقافة وقلة حيلة وإمكانية هذه الجدة التى ربطت حفيدتيها إلى رجل السرير فترة غيابها فى العمل الذى لم تقدم عليه من باب العياقة، وإنما تحت ضغط الفقر والحاجة !!

إن الهوة بين الأغنياء والفقراء فى بر مصر، قد بلغت حداً هائلاً من الاتساع.. لا يمكن التغاضى عنه، ولا تصور علاجه بالمسكنات والمهدئات.. مثلما لا يمكن تصور استمرار الأحوال على ما هى عليه وعلى المتضرر أن يلجأ إلى حيث ألفت.. ظنى أن مشهد الجدة والطفلتين ابنتى عام وعامين، يوقظ الموتى ويبصر العميان بما لحق بقاع المجتمع من فقر وجهالة وبؤس وتعاسة وشقاء.. فهل استيقظنا مما نحن فيه من سبات !!!

كتب وإصدارات أ. رجائي عطيه

- (١) أوراق - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .
- (٢) من هدى ثلثوبة وفى مدرسة للرسول - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٧ .
- (٣) من هدى للقرآن وذلك الكتاب لاريب فيه - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ١٩٩٨ .
- (٤) بشاير - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٥) باسمك اللهم - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٦) بسم الله - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٠ .
- (٧) نواب للقروض - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (٨) يارب - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (٩) قضية للنقابيين - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠١ .
- (١٠) أبو ذر الغفارى - روز اليوسف، هيئة الكتاب - ٢٠٠٢، ٢٠٠٥ .
- (١١) قضية الجمارك الكبرى - المركز المصرى للأبحاث والإعلام - ط ٢٠٠٢ .
- (١٢) مواقف ومشاهد إسلامية - دار الهلال - ط ٢٠٠٢ .
- (١٣) ماذا نقول لكم - دار الشروق - ط أولى ٢٠٠٣ .
- (١٤) عالمية الإسلام - مركز الأهرام للترجمة والنشر - ط ١، ط ٢ - ٢٠٠٣ .
- (١٥) يحلر فى هموم الوطن والحياة - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .
- (١٦) الإنسان العقل وزاده الخيال - دار الشروق - ط ٢٠٠٤ .
- (١٧) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الأول - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣ .
- (١٨) السيرة النبوية فى رحاب التنزيل - المجلد الثانى - روز اليوسف - ط ٢٠٠٣ .

(١٩) السيرة النبوية في رحاب التنزيل — المجلد الثالث — روز اليوسف — ط ٢٠٠٤ .

(٢٠) السيرة النبوية في رحاب التنزيل — المجلد الرابع — روز اليوسف — ط ٢٠٠٥ .

(٢١) السيرة النبوية في رحاب التنزيل — المجلد الخامس — المكتب المصرى الحديث — ط ٢٠٠٦ .

(٢٢) الإنسان والكون والحياة — كتاب الهلال — أكتوبر ٢٠٠٥ .

(٢٣) تأملات غائرة — دار الشروق — ط ٢٠٠٦ .

(٢٤) الأديان والزمن والناس — كتاب الهلال — سبتمبر ٢٠٠٦ .

(٢٥) شجون وطنية — المكتب المصرى الحديث — ٢٠٠٦ .

(٢٦) الهجرة إلى الوطن — كتاب الهلال — نوفمبر ٢٠٠٧ .

(٢٧) رسالة المحاماة — دار الشروق — سبتمبر ٢٠٠٨ .

(٢٨) فى الوحدة والجماعة الوطنية — المكتب المصرى الحديث — سبتمبر ٢٠٠٨ .

(٢٩) فى رياض الفكر — كتاب الهلال ٢٠٠٨ .

(٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب — المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .

(٣١) من تراب الطريق — الكتاب الأول — المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .

(٣٢) من حصاد المحاماة — المجلد الأول — المكتب المصرى الحديث .

(٣٣) من حصاد المحاماة — المجلد الثانى — المكتب المصرى الحديث

(٣٤) من حصاد المحاماة — المجلد الثالث — المكتب المصرى الحديث

(٣٥) من حصاد المحاماة — المجلد الرابع — المكتب المصرى الحديث .

(٣٦) من حصاد المحاماة — المجلد الخامس — المكتب المصرى الحديث

(٣٧) من حصاد المحاماة — المجلد السادس — المكتب المصرى الحديث

(٣٨) من حصاد المحاماة — المجلد السابع — المكتب المصرى الحديث

- (٣٩) من حصاد المحاماة — المجلد الثامن — المكتب المصرى الحديث
- (٤٠) من حصاد المحاماة — المجلد التاسع — المكتب المصرى الحديث
(تحت الطبع)
- (٤١) دولة الأيام ! — كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩
- (٤٢) عبقرية إنكار الذات - أبو عبدة بن الجراح - تحت الطبع .
- (٤٣) قراءة فى الأمن المجتمعى فى الإسلام — المكتب المصرى الحديث
(تحت الطبع)
- (٤٤) من تراب الطريق — الكتاب الثانى — المكتب المصرى الحديث

الفهرس

الصفحة	العنوان
٣	تقديم
٥	الموت شرفا ١٥٩
٧	ماذا حدث للمصريين ١٦٠
٩	هل تركنا اللغو والتفاهات ١٦١
١١	الشاعر الأديب : محمد عبد الله محمد ١٦٢
١٣	بطولات مغلوطة ١٦٣
١٦	هدايا إسرائيلية ١٦٤
١٩	فارس من الزمن الجميل ١٦٥
٢٢	نظارة محمد عبد الله محمد ١٦٦
٢٤	صيرورة لا تتوقف ١٦٧
٢٦	هل عرفنا وزن مصر ١٦٨
٢٩	هل تتقطن الثروة ١٦٩
٣١	عبقريّة القبح ١٧٠
٣٣	المرفأ ١٧١
٣٥	المسرح الحر ١٧٢
٣٧	نقل الأعضاء ١٧٣
٤٠	عشوائيات الحظوظ ١٧٤
٤٣	في النبوة المحمدية ١٧٥

الصفحة	العنوان
٤٥	١٧٦ التصميم والإصرار
٤٧	١٧٧ الثقة والاحتمال
٤٩	١٧٨ قراءة القرآن
٥١	١٧٩ الحذاء الطائر
٥٤	١٨٠ شطط ضرير
٥٦	١٨١ بوصلة تائهة
٥٨	١٨٢ عالم الذات
٦٠	١٨٣ تنقيقات ومظالم
٦٣	١٨٤ مسرح محمد عبد الله محمد
٦٥	١٨٥ حدود الاحتمال
٦٨	١٨٦ إينحة الجرم
٧١	١٨٧ الرجاء قاطرة الإنسانية
٧٣	١٨٨ لآهتات إنسانية
٧٥	١٨٩ من صناع المجد
٧٧	١٩٠ فكرة الجنوى والحياة
٧٩	١٩١ لمن صارت القيادة
٨٢	١٩٢ المحامي الصديق الشاعر
٨٥	١٩٣ هل تنكرنا مصطفى الفحاس

الصفحة	العنوان	
٨٨	مرآة الحياة	١٩٤
٩٠	الخيال رحم العقل الخصيب	١٩٥
٩٣	العناية التى تتطلبها الحياة	١٩٦
٩٦	هل التفتنا إلي نواتنا	١٩٧
٩٨	الخداع الضريع	١٩٨
١٠٠	منطق النعمة	١٩٩
١٠٢	ومع ذلك فإنها تُدْفَع	٢٠٠
١٠٤	من المتسبب	٢٠١
١٠٩	تطريز الكوارث بالقانون	٢٠٢
١١٢	سمك لبن تمر هندي	٢٠٣
١١٥	قل ما يعجب واصنع ما شئت	٢٠٤
١١٨	يقظة مرجوة	٢٠٥
١٢١	الشجاع	٢٠٦
١٢٣	هبة سماوية للإنقاذ	٢٠٧
١٢٦	باسمك اللهم	٢٠٨
١٢٨	جوار غريب	٢٠٩
١٣٠	سبحان من بيده الملك	٢١٠
١٣٢	المتقف والسلطة (١)	٢١١

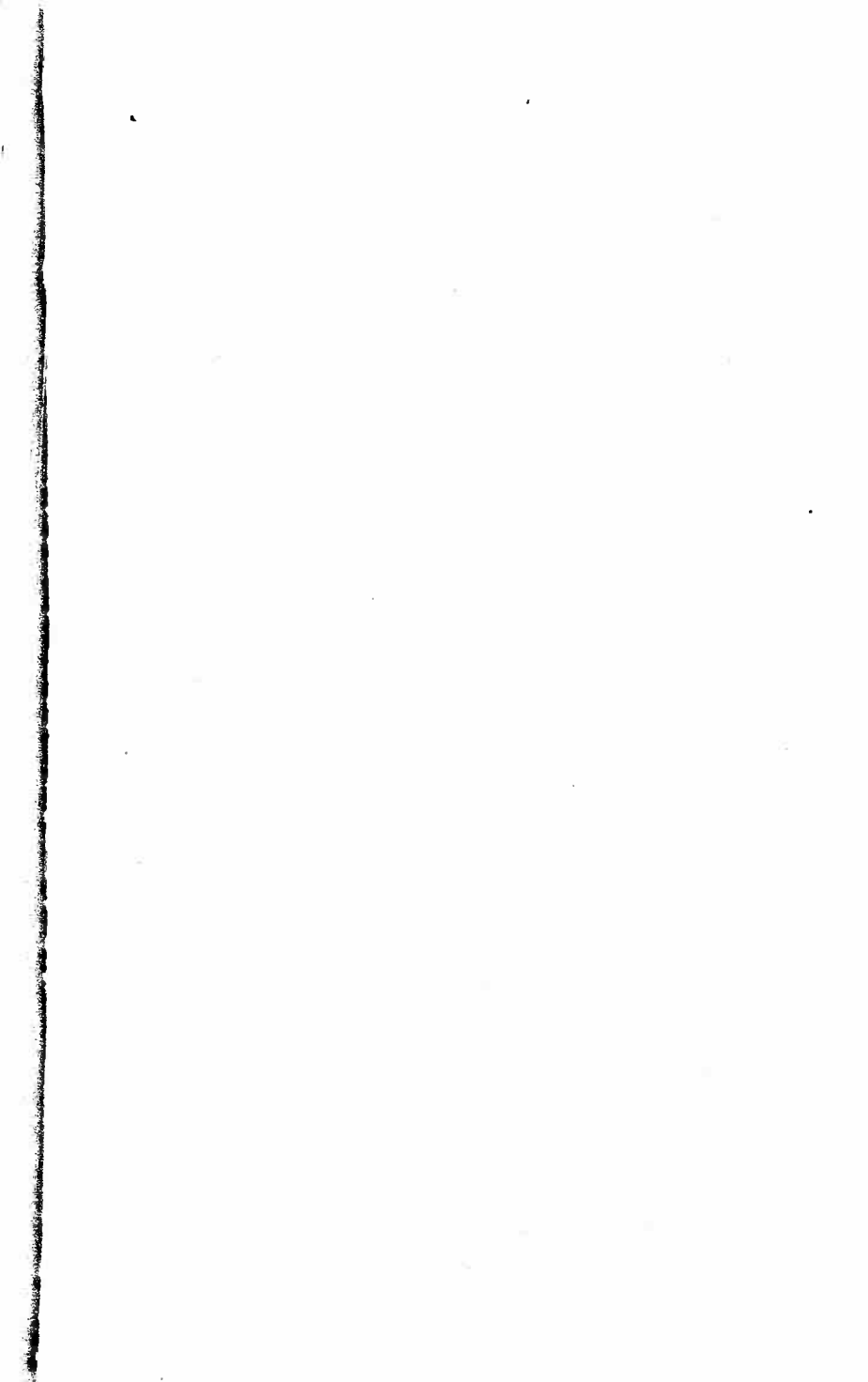
الصفحة	العنوان
١٣٥	٢١٢ المتقف والسلطة (٢)
١٣٨	٢١٣ المتقف والسلطة (٣)
١٤١	٢١٤ المتقف والسلطة (٤)
١٤٤	٢١٥ المتقف والسلطة (٥)
١٤٧	٢١٦ تسابيح
١٥٠	٢١٧ كيفية امتطاء جواد الحياة
١٥٢	٢١٨ تقرير الخارجية الأمريكية (١)
١٥٤	٢١٩ تقرير الخارجية الأمريكية (٢)
١٥٧	٢٢٠ خطرات
١٦٠	٢٢١ ألفاظ ومعان
١٦٣	٢٢٢ الهوان الحقيقي
١٦٦	٢٢٣ تصريح دبلوماسى بلا دبلوماسية
١٦٩	٢٢٤ الماضى بين الروابط والأساطير
١٧١	٢٢٥ معقولات مجردة
١٧٣	٢٢٦ أثر المحيط
١٧٥	٢٢٧ ظهور النوابع وكيف
١٧٨	٢٢٨ ثقافة الأونطة
١٨٠	٢٢٩ جرأة العقل

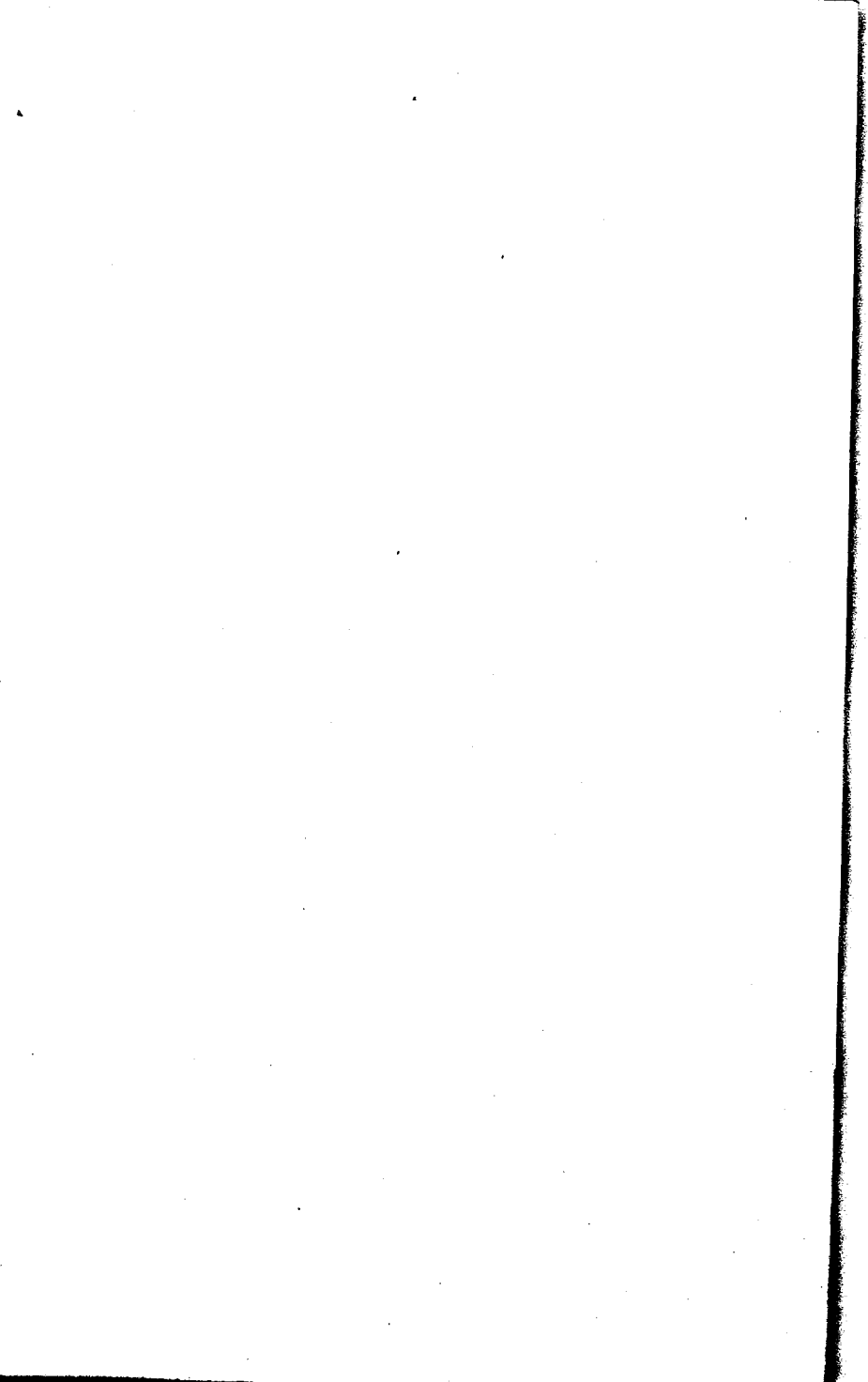
الصفحة	العنوان	
١٨٣	النفخة الكدابة وصناعة النجوم	٢٣٠
١٨٦	هل عرفنا أنها أمانة	٢٣١
١٨٩	نظرة للمحيط	٢٣٢
١٩٢	أستاذ الجيل وعبادة الأشخاص	٢٣٣
١٩٥	الطناش الأمريكي	٢٣٤
١٩٨	سخاء وتوالد الحياة	٢٣٥
٢٠٠	احتراف أعرج	٢٣٦
٢٠٣	إلام تمشى البشرية	٢٣٧
٢٠٦	شر البليّة ما يضحك	٢٣٨
٢٠٩	بليّة مضحكة أخرى	٢٣٩
٢١٢	الخيوط الرفيع بين الشفافية والتلصص	٢٤٠
٢١٥	الأخلاق في صحبة الفهم	٢٤١
٢١٨	العظماء المشردون	٢٤٢
٢٢١	التنوير الزائف (١)	٢٤٣
٢٢٤	التنوير الزائف (٢)	٢٤٤
٢٢٧	التنوير الزائف (٣)	٢٤٥
٢٣٠	بين الطبع والتطبيع	٢٤٦
٢٣٣	الأدب وشجونه	٢٤٧

الصفحة	العنوان	
٢٣٦	كلفة الثقافة	٢٤٨
٢٣٩	النبي الروائي	٢٤٩
٢٤٢	منطقة حرة أم منطقة مباحة ؟!	٢٥٠
٢٤٥	صفعة في الصميم	٢٥١
٢٤٨	رثاء متميز	٢٥٢
٢٥١	غدر الملوك	٢٥٣
٢٥٢	دماء على منبج سلطان الآباء	٢٥٤
٢٥٧	الأنثى وأمر الوعي	٢٥٥
٢٦٠	أدعية وتسابيح	٢٥٦
٢٦٢	معجزة القرآن	٢٥٧
٢٦٥	أغراض الآمنين	٢٥٨
٢٦٨	الماكيا فيلية الحسناء !	٢٥٩
٢٧٢	العارف	٢٦٠
٢٧٥	زاهد عفيف من الزمن البعيد	٢٦١
٢٧٨	العقاد ومجانية الثقافة	٢٦٢
٢٨١	حصاد لويس عوض	٢٦٣
٢٨٤	الدوم والحديث الأول	٢٦٤
٢٨٧	صح النوم	٢٦٥

الصفحة	العنوان	
٢٩٠	باسمك اللهم	٢٦٦
٢٩٢	الساذج الخالد	٢٦٧
٢٩٥	أيهما المسئول ؟	٢٦٨
٢٩٨	رباط الإسلام	٢٦٩
٣٠١	متى نفقد الصدق ؟!	٢٧٠
٣٠٣	حضانات الزمن الجميل	٢٧١
٣٠٦	أدعية وتسابيح	٢٧٢
٣٠٨	المسلمون وتيار العصر	٢٧٣
٣١٠	حينما يكون النصر هزيمة	٢٧٤
٣١٤	نظرية مالتس والانفجار السكاني !	٢٧٥
٣١٧	لا تعكر صفو فكري !	٢٧٦
٣١٩	ما دخلنا بالهولوكوست ؟!	٢٧٧
٣٢٢	ابتسامة الطفل ونشاط الروح	٢٧٨
٣٢٥	تغيير المجتمعات بين العاديين والساخطين	٢٧٩
٣٢٨	الـدوم	٢٨٠
٣٣١	بئر الخيانة !	٢٨١
٣٣٤	فبصرك اليوم حديد !	٢٨٢
٣٣٧	لا تلم كفى إذا السيف نبا !	٢٨٣

الصفحة	العنوان	
٣٤٠	من قصيدة المرجان	٢٨٤
٣٤٣	اجن العسل ولا تكسر الخلية !	٢٨٥
٣٤٦	وتقدرون فتضحك الأقدار !	٢٨٦
٣٤٩	مشروعية الدولة واحترام القانون !	٢٨٧
٣٥٢	المنبطحون بلا نداء !	٢٨٨
٣٥٥	اذهب أنت و ربك فقاتلا !	٢٨٩
٣٥٨	ملك والأ كتابة ؟!	٢٩٠
٣٦٢	حق الصمت !	٢٩١
٣٦٥	الدين والدولة والمصالح والناس !	٢٩٢
٣٦٨	تحالف الفقر والجهالة	٢٩٣
٣٧١	كتب وإصدارات المؤلف	





رقم الإيداع
٢٠٠٩ / ١٤٥٠١

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-209-189-5